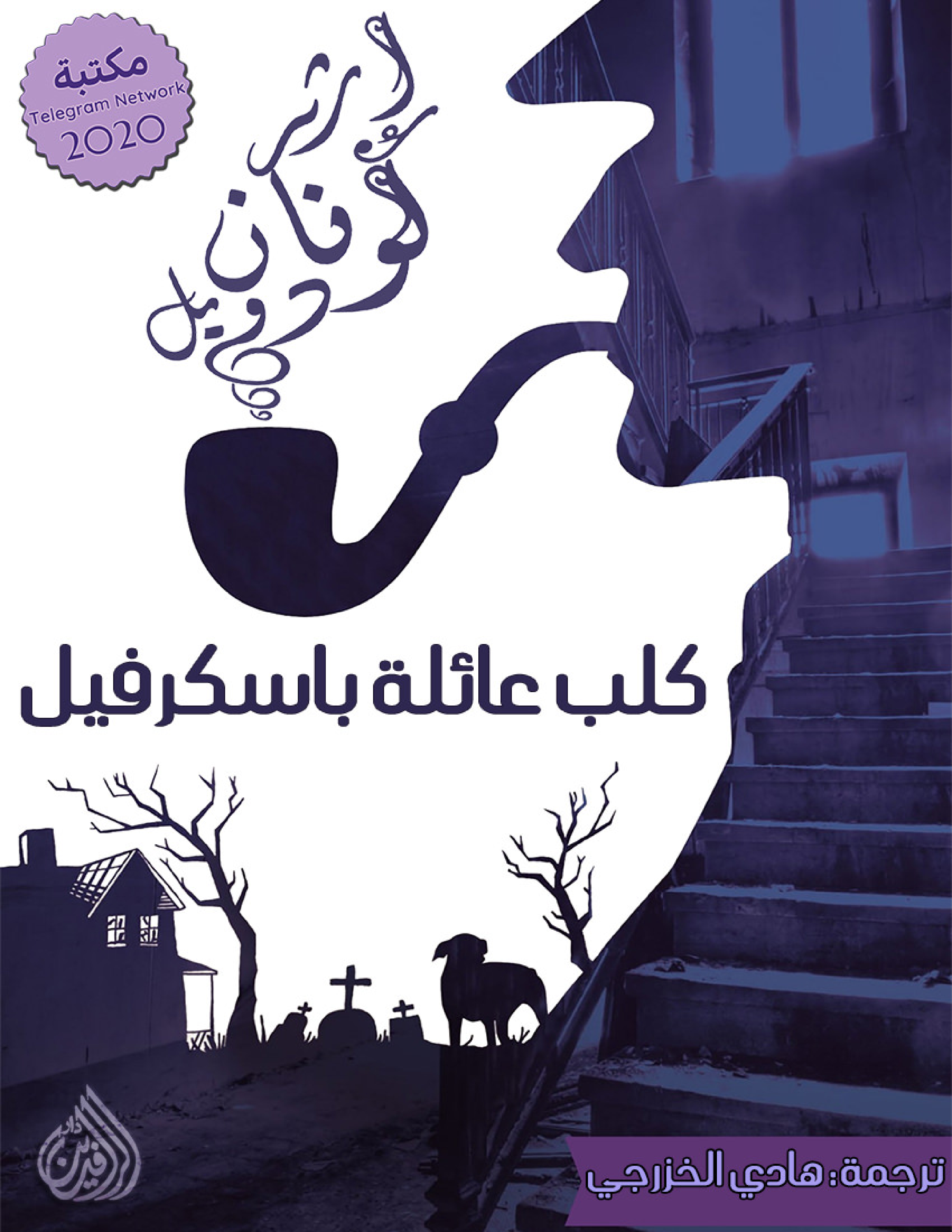


مكتبة
Telegram Network
2020
آرثر كونان دويل
كلب عائلة باسكرفيل
ترجمة: هادي الخزرجي

أرثر كونان دويل

كلب عائلة باسكرفيل

ترجمة: هادي الخزرجي



إهداء الترجمة

إلى الزهرة التي لا يكفّ عطرُها عن انتظاري... زوجتي.

مقدمة الترجمة

مغامرة تحبس الأنفاس! تجبرك على الهمس، والترقب، والتأكد من مواضع قدميك! عندما تسير خلف بطلها شارلوك هولمز ومساعده الدكتور واتسن، بين ممرات ومفاجآت وأصوات مخيفة تتربص بك! مغامرة تحيطك بالغموض، الذي يستفز روحك بالخوف، ويستفز عقلك بالتفكير بحثًا عن الحل.

تُعد هذه الرواية من أشهر أعمال الكاتب الإنجليزي (Sir Arthur Conan Doyle) (١٨٥٩ – ١٩٣٠)، وهي من الأعمال الرائدة المميزة في مجال القصة البوليسية (Detective Story)، بل يمكن عدّها أنموذجًا فنيًا وأدبيًا، يُحتذى في هذا النوع من الكتابة الإبداعية. تُرجمت الرواية إلى العربية بضع مرات، لكنني حاولتُ قدر الإمكان أن تكون هذه الترجمة في حلةٍ جديدة، ومعززة بالهوامش العلمية الضرورية.

يظهر بكل وضوح أثرُ العقل العلمي من المؤلف الطبيب، في بناء روايته الناضجة هذه، ولا سيما في جعل خطابها حاملًا رسالة الاهتمام بالعلم، والمنطق، والتجربة، أمام الخرافات والإشاعات... التي تنمو في عقول ساذجة بلا تمحيص ولا تأكد. يقدم المؤلف بناءً روائيًا متقنًا، اعتمد في إنجازه على مبدأ التوازن، وأعني به: الاهتمام بكثير من المعطيات والتفصيلات التي تُذكر في مواضع ما، ثم يعود المؤلف لتذكير القارئ بها، وبيان صلتها

بالأولى في مواضع تالية. يقدم هذا هيكلًا بنائيًا دقيقًا ومحكمًا، يرفع من شأن العمل الفني وصنعته. من الثابت أن هذا الأمر تحتاجه الكتابة الروائية عامةً، كي لا يكون العمل مفككًا ضمن مسار الرواية وعقدتها، لكن القصة البوليسية خاصة، في حاجة إلى الاعتناء بهذا الأمر، لأنها تقوم على أساس موضوع يتناول تحليلًا علميًا، لوقائع يُفترض أن يُستثمر كل تفصيل فيها، من أجل إحداث الغموض ثم إزالته. من جانب آخر، يحدث التشويق عند التعويل على نسيان القارئ بعض التفاصيل الصغيرة، التي تظهر أمامه في صورة أخرى ذات صلة في ما بعد، وتجبره على العودة إلى ذلك الموضع لقراءته بمزيد من التركيز! كل ذلك ضمن لعبة الانتظار والخوف والشكوك وصولًا إلى صناعة الحل! ربما يمكن القول، إن بين القصة البوليسية وقصة الخيال العلمي جانبًا مشتركًا ومهمًا، وهو عرض الأحداث ضمن إطار علمي ومنطقي، يكون فيه للفرضيات والتجارب والنظريات وعمليات التفكير المتأني... إلخ، حيزًا كبيرًا في إدارة أحداث العمل الأدبي.

كلبٌ جهنمي وشيطاني! يخرج من بين الرعب والفزع، ليطارد أفراد عائلة باسكرفيل، في منطقة المستنقع. كلب هو أداة ترسلها قوى الشر المظلمة، لتحطم الحياة ومشروعاتها الطيبة. ربما يكون الكلب رمزًا لتسافل الإنسان، وإقراره بأنه بعيد عن الحياة البشرية الطبيعية، وقريب من حياة الوحوش المفترسة! لكن العدالة تحرس الأتقياء والأخيار،

وتنصر الضعفاء بأيدي الذين يخاطرون بأرواحهم، ويجهدون أنفسهم في سبيل القضاء على الشياطين.

الشكر الجزيل لكل من شجّعني وقدم لي المساعدة على إنجاز هذه الترجمة. أرجو أن تكون هذه الترجمة وافية، وتنقل عملًا أدبيًا خالدًا يُعجب القراء في كل الأجيال. والحمد للّه رب العالمين.

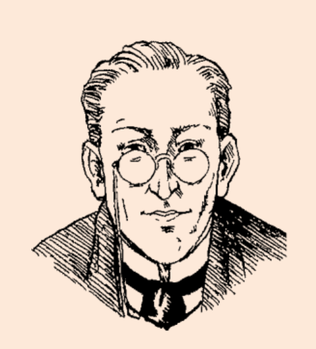
شخصيات الرواية



شارلوك هولمز: رجل تحرٍ فائق الذكاء يعيش ويعمل في ٢٢١ب شارع بيكر بمدينة لندن.



الدكتور واتسون: صديق شارلوك هولمز، ويساعده في حل الألغاز.



الدكتور مورتمر: يعيش بالقرب من دارتمور في جنوب غرب إنكلترا. وهو طبيب مختص بالأدوية.



سير هوغو باسكرفيل: كان مالك منزل باسكرفيل في ١٦٤٥.



سير تشارلز باسكرفيل: كان مالك باسكرفيل في بداية هذه الرواية. واعتقد الدكتور مورتمر بأن السيد تشارلز قد قتل.



سير هنري باسكرفيل: هو المالك الجديد لمنزل باسكرفيل. وقد جاء من كندا للعيش في إنكلترا.



السيد والسيدة باريمور: خادمين بمنزل باسكرفيل.





السيد جاك ستابلتون: يعيش في منزل ميريبت قرب مستنقع غرمبين، وهو مهتم بالنباتات والطيور والحشرات في دارتمور.



الآنسة ستابلتون: وهي شقيقة جاك ستابلتون، تعيش في منزل ميريبت، وهي سيدة طويلة وجميلة ذات شعر وعينين سوداوين.

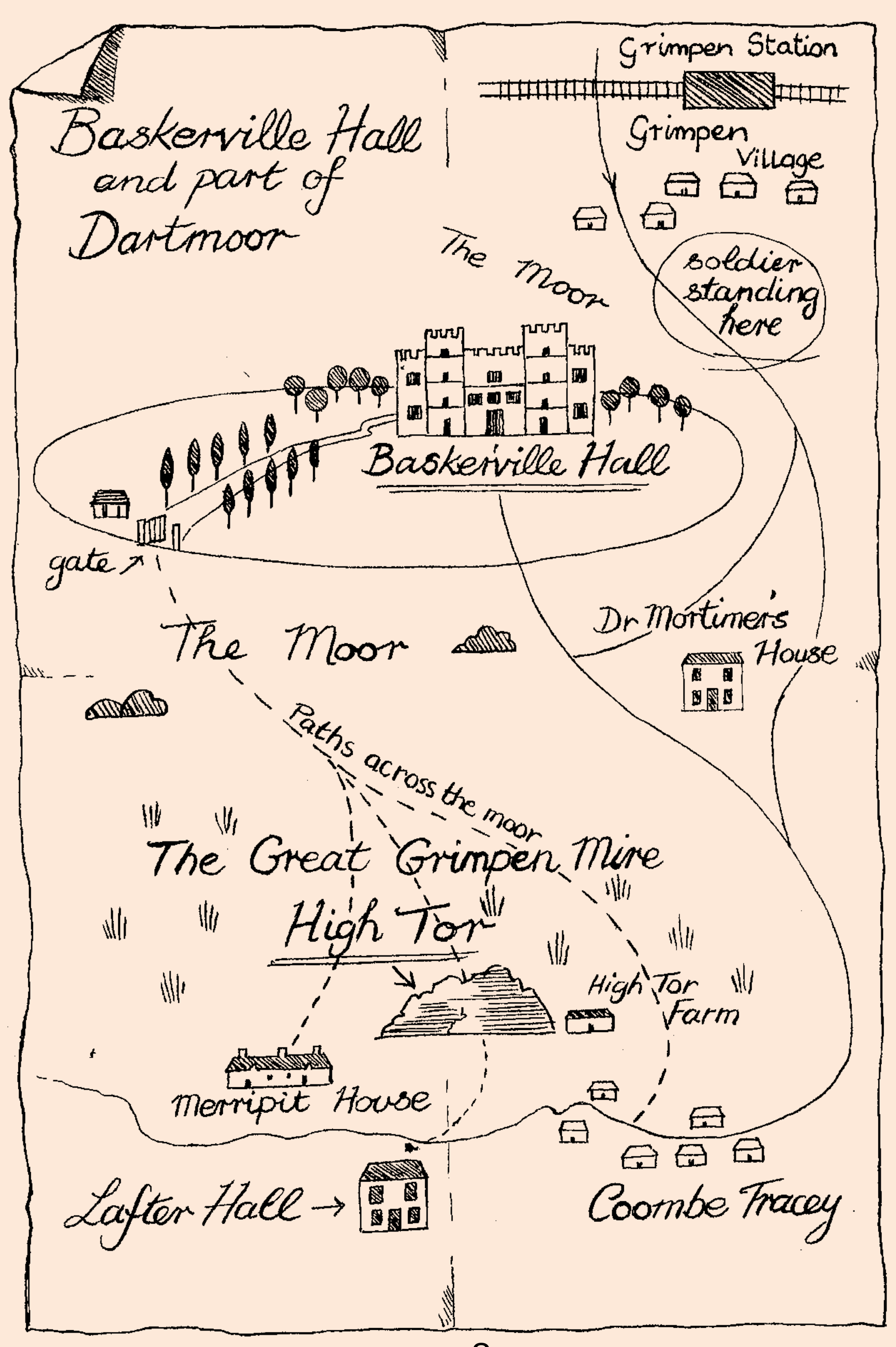


السيد فران فرانكلاند: يعيش في منزل لافتر بالقرب من كومب تريسي، وهو مهتم بدراسة النجوم ولديه تليسكوب ضخم.



سيلدن: سجين هارب من سجن دارتمور.

خريطة قصر باسكرفيل وجزء من دارتمور



١ – السيد شارلوك هولمز

مبكرًا عند الصباح، استيقظتُ فوجدت السيد شارلوك هولمز ـ وهو الذي اعتاد أن يبقى متأخرًا عن الاستيقاظ في صباحاته، باستثناء تلك الحوادثِ النادرة، التي تجعله يسهر الليلَ كله ـ جالسًا إلى مائدة الفطور! سرتُ لأقف على سجادة الموقد، والتقطت العصا التي تركها زائرُنا ليلةَ الأمس. كانت قطعةً حسنة وغليظة من الخشب، برأس كروي كالبصل، من النوع الذي يُعرف بـ (Penang lawyer). [١] تحت رأس العصا مباشرة، يلتفّ شريطٌ فضي بعرض بوصة واحدة تقريبًا، نُقشت عليه هذه العبارةُ:

«إلى جيمس مورتمر، عضو كلية الجراحين الملكية. من أصدقائه في (C.C.H) ١٨٨٤».

لقد كانت عصا، تشبهُ التي اعتاد أن يحملها أيّ طبيب أسرةٍ متمرس وقديم الطراز، عصا فخمة، ومتينة، وتمنح الثقة!

ـ حسنٌ، يا واتسن، ما الذي تستنتجه منها؟

---

[١] نوعٌ من عصا المشي، تُصنع من جذع النخل الأسيوي.

خاطبني هولمز بهذا القول جالسًا ويواجهني ظهرُه! وأنا الذي لم أحدِث أي علامةٍ على ما كنت أفعلُه! فقلت متعجبًا:

ـ لكن كيف عرفتَ ما أفعل!؟ أنا أجزمُ أن لك عينين في قفا رأسك!

ـ لديّ ـ في الأقل ـ إبريقُ قهوة مطليٌ بالفضة وشديد اللمعان، ها هو أمامي! لكن أخبرني يا واتسن، ما تصوراتُك عن عصا زائرنا؟ حتى الآن نحن غير محظوظين جدًا بسبب رحيله عنا، وليس لدينا أبسطُ معلومة عن مهمته التي جاءت به إلينا، سيكون هذا التذكارَ الذي حصلنا عليه عرَضًا هو الأهم عندنا الآن. أسمِعني ما عندك من انطباعاتٍ، تعيدُ تأليفَ صورة الرجلِ بتفحّص عصاه هذه.

فقلتُ متتبعًا ومقلّدًا قدر الإمكان أساليبَ صاحبي في التفحص والاستنتاج:

ـ أظن أن دكتور مورتمر طبيبٌ كبير في السن، وناجح ومحترم جدًا، وهذا ما أدركتُه مما قاله الذين عرفوه، فأهدوا إليه هذا التذكار تثمينًا لشخصيته.

ـ جيد يا واتسن، ممتاز!

ـ وأيضًا، أظن أن سببَ ذلك يكمن في فضل كونه طبيبًا في الريف، يسعى إلى كثيرٍ من زياراته العلاجية ماشيًا.

ـ كيف ظننتَ هذا؟

ـ لأن هذه العصا ـ مع أصالتها وروعتها ـ قد طُرقت واستُعملت كثيرًا... حتى أنني لا أكاد أتخيّل أن تكون عند طبيبٍ في مدينة. هذه حلقتها الحديدية متآكلة، وهو دليل على أنه قد أنجز مقدارًا عظيمًا من نشاطه وهو يمشي مستعينًا بها.

ـ هذا استدلالٌ يبدو متكاملًا، يا واتسن!

ـ وهنالك مزيد من المعلومات! لدينا أصدقاء الـ (C.C.H.)، إذ ينبغي أن أحزر أن شيئًا ما، هو المتعلق بجمعية الصيادين المحليين (Hunt)، التي يُحتمل أن مورتمر قدّم لأعضائها مساعدةً جراحية، تلك التي دفعتهم لمنحه تكريمًا صغيرًا في المقابل.

ـ حقًا، يا واتسن! أنت ترتقي بنفسك!

قال ذلك، وهو يدفع كرسيّه إلى الوراء ويشعل سيجارًا:

ـ حتمًا سأقول إنك في جميع التقديرات ـ التي كنتَ وما تزال فيها جيدًا جدًا، بما يساعد إنجازاتي الصغيرةَ الخاصة ـ دائمًا تقلّل من شأن إمكانياتك الخاصة. أنا أظن أنها ليست نفسَك التي تضيء حسب! بل أنت عبارة عن مسار ضوئي مرشد. بعض الناس لا يمتلكون

أي عبقريةٍ، لكن لهم قدرة مميزةً على تحفيزها. سأعترف لك يا رفيقي العزيز، أنني مدين لك بكثير.

لم يقل هولمز مثلَ هذا المقدار من قبل، وعليّ أن أعترفَ أن كلماته هذه منحتني بهجةً عميقة، لأنني كثيرًا ما كنتُ أشعر بالحنق تجاه لامبالاته بإعجابي، ونحو محاولاتي الدِعائية التي فعلتها، في سبيل ترويج أساليبه في الاستنتاج. أيضًا، لقد كنتُ فخورًا بظني أنني حتى الآن، استثمرت نظامه ومنهجه عند التطبيق، في طريقةٍ نالت استحسانه. والآن، ها هو قد تناول العصا من بين يديّ، وتفحّصها لبضع دقائق بعينيه المجردتين، ثم ـ وقد أظهر الاهتمامَ ـ أنزل سيجاره، وحمل العصا إلى حيث النافذة، وأنعم النظر فيها مرةً أخرى بالعدسة.

ـ مثيرٌ للاهتمام رغم أنه ابتدائي!

قال ذلك، وهو يعود إلى زاويته المفضلة على أريكته، وأكمل قولَه:

ـ بالتأكيد، هنالك مؤشر أو مؤشرانِ على العصا، وهو ما يقدم لنا الأسسَ لبعض الاستدلالات.

فسألتُ وأنا أشعر بأهمية نفسي:

ـ هل فاتني شيءٌ؟ أنا واثق من لا أهمية أي علامةٍ أخرى تجاهلتُها، عند فحصي العصا أول مرة!

ـ أظن يا عزيزي واتسن، أن أكثر استنتاجاتك كانت خاطئة! عندما قلتُ إنك حفّزتني، قصدتُ ـ وهذا لأكون صريحًا ـ أنني كنتُ في ملاحظة مغالطاتك في بعض المناسبات، أستدلّ على طريقي نحو الحقيقة! من جهة أخرى، ليس معنى ذلك أنك مخطئ كليًا في هذا الحال. هنا أقول: من المؤكد أن هذا الرجلَ طبيب ريفي، ويمشي كثيرًا.

ـ إذن كنتُ محقًا.

ـ إلى ذلك الحد.

ـ لكن كان ذلك كلّ شيء.

ـ لا! لا، يا عزيزي واتسن، في أي حال من الأحوال، ليس كلّ شيء! أنا أقترح ـ على سبيل المثال ـ أن الاحتمال الأقوى، أن ذلك الاحتفاء بالطبيب، كان من مستشفى لا من جميعة صيادين، ذلك لأن الأحرف الأولى: (C.C.) موضوعةٌ قبل اسم تلك المستشفى، والكلمات هي: (Charing Cross)، وهي التي تدلّ على نفسها بلا تكلف.

ـ ربما تكون محقًا.

ـ تكمن الاحتمالية في ذلك التوجيه. إذا وضعنا ذلك في محل فرضيةٍ للعمل، فستكون لدينا أسسٌ قوية، منها نبدأ عمليةَ تركيب ملامح زائرنا المجهول.

ـ حسنٌ إذن، على افتراض أن هذه الأحرف (C.C.H.) تشير إلى: (Charing Cross Hospital)، فأي استنتاجات أخرى يمكن أن تظهر؟

ـ لا شيءَ منها يوحي بذلك؟ أنت تعرف أساليبي، فطبّقها!

ـ فقط أستطيعُ أن أفكر في الاستنتاج الواضح: أن الرجل قد مارس الطب في المدينة قبل الذهاب إلى الريف.

ـ أظن أننا ربما نجازف بالاحتمالات قليلًا، أكثر من هذا. تطلعْ إليها في هذا الضوء: أي المناسبات تكون أكثرَ ملاءمة حتى يحصل مثل هذا الاحتفاء؟ متى قد يجتمعُ أصدقاؤه ليمنحوه عهد التكريم؟ من الواضح أن ذلك يكون عند تقاعد دكتور مورتمر من الخدمة في المستشفى، لكي يبدأ ممارسة الطب لشأنه الخاص. نحن نعرف أن هنالك احتفاءً قد حدث، ونجزم بأن تغيرًا قد حصل من مستشفى المدينة إلى ممارسة الطب في الريف. إذن، أليس هذا بسط بعيدًا جدًا لاستنتاجنا... كي نصل إلى القول إن الاحتفاءَ كان لمناسبة هذا التغيّر؟

ـ يبدو احتمالًا مؤكدًا.

ـ والآن، ستعرف أنه لم يستطعْ أن يكون ضمن ملاك المستشفى، طالما أن رجلًا ذا تأسيس جيدٍ في التطبيق في لندن، يقدر فقط أن يحتفظ بهذا الموقع، ومثل هذا المرء ما كان لينحدر نحو الريف. إذن، ما الحال الذي كان فيه؟ إن كان في المستشفى وحتى الآن ليس هو ضمن الملاك، فلا يستطيع إلا أن يكون جراحًا في منزله، أو طبيبًا منزليًا أكثر قليلًا من طالب أقدم. وهو قد غادر منذ خمس سنوات، والتاريخ مثبّت على العصا. لذا، فإن طبيبك، يا عزيزي واتسن ـ الذي تصورتَه في هيئة طبيب أسرةٍ متوسط العمر وكالح ـ سيتلاشى في هواء خفيف، وهنالك سيظهر بدلًا منه، زميلٌ شاب عمره دون الثلاثين، ودود، ومحدود الطموح، وشارد الذهن، ويملك كلبًا بنوع مفضّل، عليّ أن أصفه بدقّة شديدة: إنه أكبر من نوع التيرر(٢)، وأصغر من نوع الماستف!(٣)

ضحكتُ! وأنا في ذهول وعدم تصديق! استند شارلوك هولمز بظهره في أريكته، ونفخ في الهواء حلقات متأرجحةً من دخان غليونه حتى السقف!

ـ في ما يخص الجزءَ الأخير من كلامكَ، ليس لدي أي وسيلة للتحقّق من ذلك. لكن في الأقل، ليس صعبًا اكتشاف جزئيات قليلة خاصة بعمر الرجل ومهنته الاحترافية.

---

٢ (terrier) كلب صغير ونحيل، لكنه قوي ونشيط جدًا.

٣ (mastiff) كلب كبير متهدل الأذنين ومتدلي الشفتين.

تناولتُ من رف كتبي الطبية الصغير الدليلَ الطبي، وبحثت عن الاسم. فكان هنالك بضعة أسماء (مورتمر)، لكن واحدًا منها فقط، يمكن أن يكون زائرنا، فقرأتُ معلوماته بصوت عالٍ:

«مورتمر، جيمس، عضو كلية الجراحين الملكية، ١٨٨٢، غرمبين، دارتمور، ديفون. جراح منزلي، من ١٨٨٢ إلى ١٨٨٤، في مستشفى تشارنج كروس. حاصل على جائزة جاكسون في علم الأمراض المقارن، عن مقالته الموسومة بـ: (هل المرض انتكاس؟) عضو مراسل في جمعية الأمراض في السويد. مؤلف: (بعض مخلوقات التكرار الموروث/ لانسيت ١٨٨٢). (هل نحن نتقدم؟/ مجلة علم النفس، آذار، ١٨٨٣). مسؤول طبي على باريشس في غرمبين، ثورسلي، وهاي بارو».

قال هولمز مع ابتسامة مؤذية:

- لا ذكرَ لذلك الصيد المحلي، يا واتسن!

وأضاف:

- لكنه طبيب مدينة، وهذا ما عرفتَه جيدًا بذكاء. أظن أنني مسوّغ في استدلالاتي في صورة حسنة. أما صفات الطبيب - هذا إذا تذكرتَ جيدًا - فقد قلتُ: ودود، ومحدود الطموح،

وشارد الذهن. إنها خبرتي التي تقول لي: إن الرجل الودود الظريف هو فقط مَن يُمنح الشهاداتِ والتوصيات، ومحدود الطموح هو الذي يهجر مهنتَه في لندن من أجل الريف، وشارد الذهن هو الذي ينسى عصاه بدلًا من ترك بطاقته التعريفية في زيارته، بعد انتظارٍ لساعة في غرفتك!

ـ والكلب!؟

ـ ما يزال ملتزمًا بعادة حمل هذه العصا خلف سيده. وهي عصا ثقيلةٌ يحملها الكلب في جهد من الوسط، وأثر أسنانه واضح جدًا. وبنحو ما يظهر، فإن فكّ الكلب ـ نظرًا إلى المسافة بين هذه العلامات ـ عريضٌ جدًا بحسب رأيي مقارنةً بنوع التيرر، وأقل عرضًا من نوع الماستف. نعم، بحق جوف![٤] إنه من نوع سبانيَل[٥] مجعد الشعر!

كان هولمز قد وثب، وخطا داخل الغرفة بينما كان يتكلم، وأتمّ كلامه واقفًا في تجويف النافذة. كان هنالك ما يشبه نبرةَ اليقين في صوته، ميزتها وأنا مندهش! فقلتُ:

---

[٤] (Jove) تشير إلى الإله الروماني (jupiter). تعبير يستعمل للتعجب والدهشة! وهو رئيس الآلهة الرومانية، وإله البرق والسماء.

[٥] (spaniel) من سلالة الكلاب المتوسطة أو الصغيرة.

ـ لكن يا صاحبي العزيز، كيف يمكنك أن تكون متأكدًا جدًا من ذلك!؟

ـ ذلك بأبسط سبب! لأنني الآن أرى الكلبَ نفسه عند عتبة بابنا! وها هي رنة الجرس من مالكه. لا تغادر! أتوسل إليك، يا واتسن. إنه زميلك في المهنة، وربما يكون لحضورك مساعدة بالغة لي. والآن، ها هي لحظة القدر الدرامية المؤثرة، يا واتسن، عندما تسمع خطوةً على السلّم، تلك التي ستدخل في حياتك، وأنت لا تدري أهي خيرٌ أم شر؟ أتساءل: ماذا يطلب دكتور جيمس مورتمر رجلُ العلم، من شارلوك هولمز المختص بالجرائم؟ تفضّل...!

كان ظهور زائرنا مفاجأةً لي! لأنني توقعت أن أرى طبيب ريفٍ أنموذجيًا. كان طويلًا جدًا، ونحيفًا، ذا أنف طويل كالمنقار، ناتئٍ بين عينين رماديتين حادتين، تتجاوران جدًا وتشعان ببريق خلف نظارات بإطار ذهبي. ثيابه في هيئة المحترف لكنها رثة نوعًا ما، ذلك لأنه يرتدي معطفًا جيدًا ومهلهلًا! وبنطلونًا باليًا. رغم شبابه، كان ظهره الطويل منحنيًا في الأصل. وكان يمشي ويقدم رأسه نحو الأمام، في مظهر عام من التحديق والاهتمام الخيّر الطيّب. عند دخوله، رأى العصا التي كانت ما تزال بين يدي هولمز، فأسرعَ باتجاهها فرحًا مندهشًا! وقال:

ـ أنا مسرور جدًا جدًا. كنتُ متحيرًا، فلا أدري، أتركتها هنا أم في مكتب الشحن؟ وما كنتُ لأفقد تلك العصا مقابلَ العالم كله!

فقال هولمز:

ـ أظن من أجل ذكرى التكريم والاحتفاء؟

ـ نعم، سيدي.

ـ من مستشفى تشارنغ كروس؟

ـ من صديقٍ أو صديقين هناك، لمناسبة زواجي.

قال هولمز وهو يصافحه:

ـ يا عزيزي، يا عزيزي، هذا سيء!

فطرفت عينا دكتور مورتمر عبر نظارتيه في دهشة ودّية!

ـ لكن لماذا الأمر سيء!

ـ فقط لأنك أصبتَ استدلالاتنا الصغيرةَ بالإحباط. قلتَ: «زواجك»؟

ـ نعم، سيدي. لقد تزوجتُ، وكذلك غادرت المستشفى، ومعها كلّ الأمنيات بالممارسة الاستشارية. لقد كان ذلك ضروريًا لتأسيس بيتي ومشروعي الخاص.

ـ تعال، تعال، فنحن ـ بعد كل شيء ـ لسنا بعيدين جدًا عن الصواب. والآن يا دكتور جيمس مورتمر...

ـ أنا سيد، يا سير هولمز، سيد...[١] عضو جمعية جراحين ملكية متواضع.

ـ ورجل بعقل دقيق، وهذا جليّ.

ـ أنا هاوٍ في العلوم يا سيد هولمز، وألتقط الأصداف على ساحل المحيط المجهول العظيم! أفترضُ أن السيد شارلوك هولمز هو من أوجّه له خطابي هذا وليس...

ـ لا، فهذا هو الطبيب واتسن.

ـ يسرني لقاؤك سيدي. لقد سمعتُ اسمك مذكورًا مع اسم صديقك هذا. لقد أثرت اهتمامي جدًا، يا سيد هولمز. لم أكن أتوقع أنك ذو جمجمة مستطيلة، أو مثل هذا النوع الذي ينتمي إلى ما فوق المداري المتنامي الواضح. ألديك مانع من أن أضعَ إصبعي على

---

[١] لقب (Sir) أرقى من لقب (.Mr)، فالأول يلقّب به الفارس والبارون، وفي الماضي كان لقبًا للكاهن، ويُخاطب به الرجل الغريب احترامًا.

طول الشق الجداري من عظام رأسك؟ بل قالب جمجمتك سيدي، حتى لو كان الأصلي متوفرًا، سيكون مفخرةً لأي متحف مقتنيات أنثروبولوجية! ولا أقصد أن أكون بغيضًا، لكن عليّ أن أعترفَ أنني أحسدك على شكل جمجمتك هذه، وأطمعُ فيها!

أشار شارلوك هولمز للزائر الغريب للجلوس على كرسي، فقال مورتمر:

ـ أنا أتصوّر يا سيدي، أنك ذو حماسة كبيرة في مجال تخصصك وتفكيرك، مثلما أنا في تخصصي. لقد عرفتُ من سبّابتك أنك تلفّ سيجارك بنفسك، فلعلني أشعلُ لنفسي واحدة.

أخرج الرجل ورقًا وتبغًا، ولفّ الورق على التبغ في براعة مدهشة. إن لديه أصابع طويلةً كالنسر، ومضطربة كلوامس الحشرة! كان هولمز صامتًا، لكنّ نظراته المتحفزة القليلةَ أظهرت لي الاهتمامَ الذي استولى عليه بسبب صاحبنا الغامض. لكن هولمز قال أخيرًا:

ـ أنا أفترض يا سيدي، أن من الواضح أن تفحصك جمجمتي الذي قمتَ به قبل قليل، لم يكن الغرضَ الوحيد، من تشريفك إيانا بزيارتك الليلةَ الماضية وصباح اليوم مجددًا، أليس كذلك؟

ـ لا يا سيدي، لا، رغم أنني سعيد لحصولي على هذه الفرصة لفعل ذلك أيضًا! أنا جئتُ إليك، يا سيد هولمز، لأنني أدركت أنني بذاتي رجلٌ غير عمليّ، وكذلك لأنني وجدتُ نفسي فجأة، في مواجهة المشكلة الأغرب والأخطر! ومقرًّا أيضًا ـ بنحو ما أفعل الآن ـ أنك ثاني أفضل خبير في أوروبا.

فسأله هولمز في حدّة:

ـ بالفعل يا سيدي، هل لي أن أطلبَ معرفةَ مَن تشرّف بأن يكون الأول؟

ـ إنه الرجل ذو العقل العلمي تحديدًا، إن عمل المونسنيور بيرتيلون يجب دائمًا أن يُطلب في قوة.

ـ حسنٌ، ألم يكن من الأفضل أن تستشيره؟

ـ لقد قلتُ يا سيدي: للعقل العلمي تحديدًا. لكن من المعروف أنك بلا منازِع، في جانب الرجل العمليّ المختص بهذه الشؤون. أنا واثق يا سيدي، أنني لم أقصد...

فقال هولمز:

ـ تمهلْ قليلًا! أنا أظن أنك يا دكتور مورتمر، كنت ستنجز ما تريد في حكمة، إذا كان ذلك بلا مزيد من اللغط! كنتُ أرجو أن تخبرني في وضوح ودقة، عن طبيعة المشكلة التي جئتَ تطلب مني العونَ على حلها.

٢ – لعنة عائلة باسكرفيل

قال دكتور جيمس مورتمر:

ـ لدي مخطوطةٌ في جيبي.

فقال هولمز:

ـ لقد رأيتُ ذلك عند دخولك إلى الغرفة!

ـ إنها مخطوطة قديمة.

ـ من بدايات القرن الثامن عشر، ما لم تكن زائفة!

ـ ولكن يا سيدي، كيف يمكنك أن تعرفَ ذلك؟

ـ لقد جعلتَ منها مقدارَ بوصة أو اثنتين ظاهرًا أمامي عندما كنت تتكلم. سيكون خبيرًا بائسًا مَن لم يكتشف ويقدّر تاريخَ وثيقة، ضمن عقد أو ما يقارب ذلك. ربما قرأتَ دراستي الخاصة الصغيرةَ في هذا الموضوع، كتبتُ ذلك سنة ١٧٣٠.

سحبها دكتور مورتمر من جيب الصدر:

ـ التاريخ الدقيق هو ١٧٤٢. وضع السير تشارلز باسكرفيل ورقةَ العائلة هذه تحت رعايتي، وقد توفي قبل ثلاثة أشهر تقريبًا، بموت مفاجئ وتراجيدي! وبموته ذاك، أثار ضجةً كبيرة جدًا في ديفونشاير. ربما يجب أن أقول إنني كنتُ صديقه الشخصي، كما كنتُ طبيبه الخاص. كان رجلًا قوي الفكر، وحاصلًا على لقب سير، وداهية، وعمليًا، وقليل المخيّلة مثلي بالضبط! ومع ذلك، أخذ هذه الوثيقةَ مأخذ الجد، وهُيّء عقلُه لنهاية مثل التي أصابته أخيرا فقضت عليه!

مدّ هولمز يده لتناول المخطوطة، وبسَطها على ركبته:

ـ سترى، يا واتسن، تحولَ الاستعمال في الأحرف الطويلة والقصيرة. هذا واحد من بعض المؤشرات التي مكّنتني من معرفة التاريخ.

نظرتُ من فوق كتفه إلى الورقة الصفراء والخط الباهت، ورأيتُ المكتوبَ في رأس الورقة: «فيلا باسكرفيل ١٧٤٢».

ـ يبدو لي نوعًا من البيانات.

ـ نعم هو كذلك، إنه بيان حول أسطورةٍ معينة تحدثُ في عائلة باسكرفيل.

ـ لكنني أفهم أنه شيء أحدث وأكثر عملية، ذلك الذي تريد أن تستشيرني فيه، صحيح؟

ـ الأحدث، والأكثر عملية، وهو الأكثر إلحاحًا! ويجب أن يوضّح ويُحسم في أربع وعشرين ساعة. لكن المخطوطةَ قصيرة، ومرتبطة بالشأن بعلاقة مؤكدة، أستأذنك لكي أقرأها عليكم.

استند هولمز إلى الوراء في كرسيه، وقارب بين أطراف أصابعه، وأغلق عينيه، وظهر الانقطاع والعزلة على وجهه. وجّه دكتور مورتمر المخطوطة إلى النور، وقرأ السردَ الغامضَ من العالم القديم، بصوت عالٍ وساحق:

ـ «لأصل حكاية كلب عائلة باسكرفيل، كانت هنالك وما تزال أقوال عدة. ومع ذلك، بانحداري من سلالة مباشرة من هوغو باسكرفيل، ومع سماعي هذه القصة من والدي، الذي سمعها من أبيه، فإنني الآن قد نصصتُ عليها وحدّدتها، مع كل إيماني بأنها حدثت، كما سأعرضها هنا. أيضًا، أرجو أنكم تملكون الإيمانَ يا أبنائي، بأن العدالة نفسها التي تعاقب الخطيئة، سوف تسامحها وبكل رحمة، ولن تكون هنالك إدانة باهظة، عند وجود الصلاة والتوبة. إذن، تعلّموا من هذه القصة، أن لا تخافوا مما حصلَ في الماضي، لكن الأهم أن تكونوا على حذر مما في المستقبل، ذلك أننا نرجو أن العواطف المقيتة ـ التي عانت منها عائلتُنا في حزن كبير ـ لا تنفلت نحو خرابنا.

اعلموا إذن، أن في زمن الثورة الكبرى[٧] (التاريخ الذي هو من العلامة اللورد كلاريندون، أنا أجذب انتباهكم في اهتمام)، أسس فيلا باسكرفيل، هوغو المنسوبُ لذلك الاسم. ولا يمكن إنكار أنه كان بريًا متوحشًا، ومدنسًا، وملحدًا! وهذا ـ في الحقيقة ـ ما جعل جيرانه يسامحونه ويغفرون له، وهم يرون أن القديسين لم يظهروا في تلك الأنحاء! كان فيه نوع من الخلاعة والمزاح الفظ، جعلا اسمه مضربًا للأمثال على امتداد الغرب. بالمصادفة، وقع هوغو في حب ـ ولكن فعلًا حتى العاطفة المظلمة يمكن أن تظهر من الاسم المشرق المعروف! ـ ابنةِ مالك أرض صغيرة قرب فيلا باسكرفيل. لكن تلك العذراءَ الشابة ـ لأنها ملتزمة بالسمعة الجيدة ـ كانت بطبيعة حالها تتجنّبه، لخوفها من شره!

حدث ذات مرة في أحد الأعياد، أن أغارَ هوغو مع خمسة أو ستة من رفاقه العاطلين الأشرار، على تلك المزرعة، وأسروا البنتَ رغم وجود أبيها وإخوتها في البيت، وكان هوغو يعرفُ ذلك جيدًا. عندما أتوا بها إلى الفيلا، حبسوها في غرفة عليا، بينما جلسوا وانغمسوا طويلًا في شرب الخمر على عادتهم الليليّة الثابتة. والآن، خطرت فكرةٌ ذكية في روح المعشوقة المسكينة القابعة في الأعلى! عندما كان الغناء والهتافات وعبارات التجديف

---

[٧] (Great Rebellion)، أو (Great Revolt)، عنوان لمجموعة من الثورات العالمية، ومنها: ثورة الفلاحين في إنكلترا، ١٣٨١. والحرب الأهلية الإنجليزية، ١٦٤٢ ـ ١٦٥١.

الفظيعة تصل إليها من الأسفل ـ قيل إن الكلمات التي كان هوغو باسكرفيل يلفظها عندما كان ثملًا، كأنها تقضي على الرجل الذي ينطقها ـ فإنها في شدة خوفها، فعلت الأمرَ الذي يرهب الرجلَ الأشجع والأقوى، بالاستعانة بما كان ينمو من اللبلاب المتسلق، الذي كان يغطّي ـ وما زال حتى الآن ـ الجدارَ الجنوبي، من أجل النزول للأسفل تحت الأفاريز، ثم شقت طريقها عبر المستنقعات باتجاه المنزل، هناك حيث المسافة بين الفيلا ومزرعة أبيها ثلاثة فراسخ.



إنها قصة لعنة عائلة باسكرفيل.

صادف بعد ذلك بقليل، أن ترك هوغو ضيوفَه ليحمل الطعام والشراب ـ وربما ليفعل بعض الأمور السيئةِ الأخرى ـ إلى أسيرته، فوجد القفص فارغًا، وكان الطائر قد هرب! صار مثل مَن يستحوذ عليه الشيطان، فاندفع في جنون نحو أسفل السلّم، باتجاه قاعة الطعام، ووثب على المائدة الكبيرة، تتطاير أمامه الأباريقُ والصحون، وصرخ بأعلى صوته بين

رفاقه، أنه في تلك الليلة بالذات، سيكرّس جسمه وروحه لقوى الشر، فقط لو استطاع اللحاق بتلك الفتاة!

عندما نهض المحتفلون مذعورين أمام غضب الرجل، كان واحدٌ منهم أشدّ شرًا، أو ربما أكثر سكرًا من البقية، صرخ قائلًا: إنهم يجب أن يطلقوا كلابَ الصيد وراءها! عندئذٍ، ركض هوغو خارجًا من البيت، ينادي الخدم والسائسين، ليسرجوا فرسه، ويخرجوا قطيعَ الكلاب، وأن يجعلوها تشمّ وشاحَ الفتاة! ففعلوا ذلك، ثم دفعها نحو الطريق، فأطلقت عواءً عاليًا في ضوء القمر على أراضي المستنقع...

والآن... من أجل استيعاب ما يحصل، وقف المحتفلون فاغري الأفواه! غير قادرين على فهم ما يحصل في هذه العجلة والاضطراب! لكن في وقتٍ قصير حفّزوا ذكاءهم، ليستيقظ نحو طبيعة العمل، الذي كان سيُنجز على أراضي المستنقع. كل شيء كان في تلك اللحظة في هياج، نادى بعضُهم لجلب المسدسات، وبعضهم للخيول، وبعضهم للمزيد من قناني الخمر! وباستمرار ذلك، استرجعت عقولهم المجنونةُ بعض التركيز. كان عددهم ثلاثة عشر رجلًا، امتطوا أحصنتهم وطفقوا يطاردون. كان القمر مضيئًا فوقهم، وقد ساروا في سرعة ورشاقة متخذين الطريقَ نفسه، الذي لا مناص من أن تسيرَ عليه تلك الفتاة، إذا أرادت أن تصل إلى بيتها.

قطعوا ميلًا أو ميلين، عندما اجتازوا بواحد من الرعاة الليليين على أرض المستنقع، فسألوه عن الطريدة! لكن كان الخوف ـ بنحو ما تخبر القصة ـ قد عقد لسانَ الرجل! فهو يتكلم في صعوبة... وفي النهاية نطق، وقال إنه فعلًا قد شاهد الفتاة التعيسة، وعلى أثرها تركض الكلاب، وقال أيضًا: «لكنني رأيتُ أكثر من ذلك... عندما اجتاز هوغو باسكرفيل على فرسه السوداء هنالك، كان على أثره نوعٌ من كلاب الصيد يعدو في سكون! ويبدو كأنه من كلاب الجحيم! لا سمح اللّه أن يطاردني أبدًا!» لكن المطارِدين الإقطاعيين السكارى، لعنوا الراعي واستمروا في طريقهم!

لكن سرعان ما اقشعرت أبدانهم، لأنهم رأوا جسمًا يعدو قادمًا عبر المستنقع... كانت الفرس السوداء تعدو ويتطاير من فمها الزبد الأبيض، مع لجامها المسحوب على الأرض وسرجها الفارغ! بعد ذلك، سار الفرسان متلاصقين! بسبب الفزع الشديد الذي حلّ عليهم، واستمروا في المتابعة على أرض المستنقع، رغم أن كل واحد منهم في أعماق نفسه، سيكون بأتم سرور ليستدير بحصانه ويعود! وهكذا في نمط هذا المسير البطيء، وصلوا أخيرًا عند مجتمع كلاب الصيد، وكانت هذه الكلاب ـ رغم ما تُعرف به من بسالة وصفات سلالتها ـ قد تجمعت وتضامت، وهي تصدر أصواتًا من الخوف والأنين! عند رأس منخفض ضيق

شديد الانحدار، نسميه: (غويال)(٨)، على المستنقع. انسل بعضها في خفة مبتعدًا، والآخر بدا عليه وقوفُ شعره مع العيون المحدقة! وهي تنظر إلى أسفل الوادي الضيق أمامها. قررت المجموعة التوقف، وكثير منهم استعاد رشده ـ بنحو ما تتوقعوا ـ وصاروا أفضل مما كانوا عند البدء. ما كان أكثرهم ليتقدم مهما كان، لكن ثلاثة منهم، وهم الأجرأ والأشجع، وربما الأكثر ثمالة، انطلقوا متقدمين في أسفل المنحدر. والآن، الأرض مفتوحة أمام فضاء متسع، حيث تقف اثنتان من تلك الأحجار الكبيرة، التي نصبتها بعض الشعوب المنسية من أيام الزمان الماضي. كان القمر منيرًا على منطقة خالية من الأشجار، رأوا في مركزها جثة البنت المفجوعة، وقد سقطت ميتةً من الرعب والإنهاك الشديد! لكن ليس مشهد جثتها، ولا جثة هوغو باسكرفيل قربها! هو الذي أصاب هؤلاء المقتحمين الجريئين بالقشعريرة والذعر البالغ، فوقف شعرُ رؤوسهم، بل كان ذلك الذي يقف على جثة هوغو، منقضًا على رقبته يمزقها! يقف هنالك شيء كريه ومريع، حيوان عملاق أسود، له شكل كلب الصيد، بل أكبر من أي كلب رأته العينُ البشرية من قبل! كانوا ينظرون إلى ذلك الشيء، وهو يمزق عنقَ هوغو باسكرفيل، واتجهت حينئذٍ عيونه ذاتُ اللهيب، وفكه الذي يقطر دمًا نحوَهم، فصرخ الثلاثةُ بأشد الخوف والرعب، وركبوا هاربين للنجاة بحياتهم الغالية... وظلوا

---

٨ (goyal).

يصرخون عبر المستنقع كله! قيل إن واحدًا منهم، قد مات رعبًا وفزعًا في الليلة ذاتها، وأما الاثنان الآخران، فقد تصدّعت أرواحهم، وأصابهم الانهيار حتى نهاية حياتهم.

يا أبنائي، هذه هي الحكاية الخاصة بظهور الكلب، التي يقال إنها أصابت العائلةَ باللعنة والشدائد منذ ذلك الحين. إنني إن أهملتها، فهي معروفة بكل وضوح، ولو بأقل قدر من الرعب الذي يُلمح فيها. ولا يمكن أيضًا أن تُنكر، لأن كثيرًا من أفرد العائلة، كانوا تعساء في مصيرهم المحتوم، الذي كان مفاجئًا، ودمويًا، وغامضًا. وهذا يدعونا لنراعي أنفسنا بالخير والنعيم الإلهي اللامتناهي، الذي لن يعاقب الأبرياء إلى الأبد، أبعد من الجيل الثالث أو الرابع الذي يُهدَّد في الكتاب المقدس. من أجل تلك العناية الإلهية، يا أبنائي، أنا في هذه المناسبة، آمركم وأنصحكم بالحذر والكفّ عن عبور المستنقع في تلك الساعات المظلمة، حين تمسي قوى الشر مسيطرةً ومتفوقة.

هذا من هوغو باسكرفيل إلى أبنائه: روجر وجون، مع تعليمات وتوجيهات بأن لا يقولوا شيئًا من هذا المذكور لأختهم أليزابيث».

عندما أنهى دكتور مورتمر قراءةَ هذه الحكاية العجيبة، رفع نظارته على جبينه، وحدق نحو شارلوك هولمز، وكان الأخير قد تثاءب، وطرح عقب سيجاره في النار:

ـ حسنٌ...

ـ ألم تجد ذلك مثيرًا؟

ـ بلى، بالنسبة لجامع قصص خرافية!

سحب دكتور مورتمر جريدةً مطوية من جيبه:

ـ والآن، سيد هولمز، سنعطيك شيئًا أكثر حداثةً بقليل! هذه جريدة ديفون كاونتي كرونيكل، الصادرة في الرابع عشر من أيار، من عامنا هذا. إنه تقرير موجز حول بعض الحقائق، التي استُنبطت من موت السير تشارلز باسكرفيل، الذي وقع قبل أيام من ذلك التاريخ.

فانتبه صديقي! ومال قليلًا إلى الأمام، مع ظهور تعبير الاهتمام والحزم عليه. أما زائرنا فعدّل نظارته، وبدأ:

«ألقى موتُ السير تشارلز باسكرفيل مؤخرًا ـ وهو الذي ذُكر اسمه مرشحًا ليبراليًا محتملًا، عن مركز ديفون في الانتخابات القابلة ـ بظلال الحزن والتعاسة على المقاطعة كلها. ومع أن مستقر السير تشارلز كان في فيلا باسكرفيل لمدة قصيرة نسبيًا، فإن كياسته ولطافته في شخصيته وكرمه البالغ، قد تركا أفضلَ الأثر والاحترام في كلّ من كانت له صلةٌ به. في هذه الأيام الخاصة برواج شؤون الأغنياء الجدد، يكون من المثير والمنعش إيجادُ

قضية متعلقةٍ بسليل أسرة ريفية قديمة ـ مرّت عليها أيام سوءٍ ـ يقدر على أن يكوّن ثروته الخاصةَ ويجلبها معه، لاسترجاع عظمةِ سلالته وإرثه النبيل الضائع. جمع السير تشارلز ـ وهذا معروف جيدًا ـ مبالغَ كبيرة من المال، في استثمارات جنوب أفريقيا. وهو أكثر حكمة من أولئك الذين ذهبوا ولم يعرفوا كيفيةَ تدبير أمورهم، فانقلبت الظروفُ عليهم. أما هو فنال مكاسبَه، ثم عاد إلى إنكلترا.

لم يمر إلا عامان فقط منذ توليه مسكنَه في فيلا باسكرفيل... حتى أصبح من الشائع الحديث عن حجم المخططات الكبيرة، الخاصة بالإنشاءات والتحسينات التي توقفت بعد ذلك بسبب موته. ولأنه أبتر، فقد كانت رغبته المعلنة: أن كل الريف يجب ـ ما دام هو على قيد الحياة ـ أن يربح بوساطة ثروته الجيدة، ولهذا فإن كثيرين ستكون لهم أسباب شخصية للبكاء على فقدانه في هذا التوقيت. إن تبرعاته الكريمةَ للمؤسسات الخيرية في الريف، قد كانت وما زالت موضوعَ حديث تأريخي شائع في الأعمدة الصحفية.

لا يمكن أن يقال، إن كل الظروف المرتبطةِ بموت السير تشارلز قد اتضحت من خلال التحقيق، ولكن في الأقل هنالك ما يكفي مما تم إجراؤه، للتخلص من تلك الإشاعات التي أطلقتها الخرافةُ المحلية، وأعطتها سببًا للنمو! فليس هنالك ما يدعو للشك في ارتكاب خطأ، ولا للتخيل أن ذلك الموت كان بسبب أي شخص، إلا بالأسباب الطبيعية. كان السير

تشارلز أرملًا، ورجلًا يمكن أن يقال فيه، إنه كان في بعض الأحيان في مسالك عقلية غريبة! ومع ثروته الكبيرة، فإنه كان بسيطًا في أذواقه الشخصية، ويتألف خدم بيته في فيلا باسكرفيل من خادم وخادمة متزوجين، هما آل باريمور: الزوج في مقام كبير الخدم، وزوجته مدبرة المنزل. تُظهر شهادتهما ودليلهما ـ التي يؤكدها بعض الأصدقاء ـ أن صحة السير تشارلز كانت لبعض الوقت متدهورة، مع إشارة خاصة إلى بعض العلل في القلب. ظهر ذلك في تغيرات لونه، وضيقِ تنفسه، ونوباتٍ حادة من التوتر العصبي. وقد أعطى دكتور مورتمر ـ وهو صديقُ المريض وطبيبه الشخصي ـ وصفًا ودليلًا على الإصابة نفسها.

إن وقائع القضية بسيطة: كان السير تشارلز باسكرفيل على عادته نفسها كلّ ليلة، قبل الذهاب إلى الفراش، يسير على الممر الشجري المعروف في فيلا باسكرفيل. تؤكد شهادة الزوجين باريمور أن هذه كانت عادتَه. وقد أعلن السير تشارلز في الرابع من أيار، نيته في أن يبدأ يومه التالي بالسفر إلى لندن، وأمر باريمور بإعداد متاعه. في تلك الليلة، خرج على عادته إلى حيث اعتاد أن يسير ويدخن سيجارًا، لكنه لم يعد أبدًا...

عند الساعة الثانية عشرة، وجد باريمور بابَ الفيلا ما يزال مفتوحًا، فشعر بالقلق، وأضاء فانوسًا، ومضى يبحثُ عن سيده. في ذلك اليوم، كان الجو رطبًا والأرض مبللة قليلًا، فكان من السهل أن يتتبعَ آثار أقدامِ السير تشارلز وهي واضحة على الأرض. عند منتصف

هذا الممشى، يوجد باب يقود إلى الخارج نحو أرض المستنقع. هنالك بدا من الآثار، أن السير تشارلز قد توقف لهنيهة، وبعد ذلك باشر تحركه في طريقه نفسه، وعند النهاية البعيدة وُجدت جثته. هنالك حقيقة واحدة لم توضّح، وهي أن شهادة باريمور بأن آثار أقدام سيده غيرت شكلها ونمطها حين اجتيازه موضع باب المستنقع، من هنالك فصاعدًا بدا كأنه يمشي على أصابع قدميه! وكان آنذاك في المستنقع أحدُ تجار الأحصنة من الغجر اسمه مورفي، ولم يكن بعيدًا جدا في ذلك الوقت، لكنه ـ وقد أدلى بشهادته من دافع ذاتي ـ كان في حال سيء من الثمالة، وقال إنه سمع صرخات، لكن لم يستطع أن يميّز جهتها.

لم تكن هنالك علامات عنف على جثة السير تشارلز، مع أن شهادة الأطباء أشارت إلى تشوه كبير لا يصدق في وجهه، تشوه مدمّر جعل حتى صديقه دكتور مورتمر يرفض ـ عند رؤية الجثة أول مرة ـ أن يصدّق أنها جثة صديقه ومريضه! جرى التوضيح أن تلك الأعراض معتادة في حالات ضيق التنفس والاختناق والإجهاد القلبي. وتأكد ذلك بفحص الجثة وتشريحها، إذ أظهر علةً عضوية مزمنة. ثم قدمت هيئة المحلفين الحكمَ وفاقًا مع الأدلة الطبية. من الواضح أن الأمور تسير على هذا النحو: أقصى الأهمية الآن، أن وريث السير تشارلز يجب أن يستقر في الفيلا، ويستأنف الأعمال الخيرية التي يؤسف على انقطاعها بهذه الصورة الفظيعة. لولا النتيجة الأخيرة من الطبيب الشرعي، التي أنهت القصص الخيالية والإشاعات حول القضية، لكان من الصعب العثور على مَن يسكن في فيلا

باسكرفيل! من المعلوم أن الأقرب في العائلة هو السير هنري باسكرفيل ـ إن كان على قيد الحياة حتى الآن ـ وهو ابن أخ السير تشارلز باسكرفيل الأصغر. آخر ما سُمع عن ذلك الرجل الشاب أنه كان في أمريكا، وقد بدأت التحقيقات لإعلامه بحظه الجيد».

طوى دكتور مورتمر جريدته، وأعادها إلى موضعها في جيبه:

ـ هذه هي الحقائق العلنية يا سيد هولمز، التي لها صلة بموت السير تشارلز باسكرفيل.

قال هولمز:

ـ يجب أن أشكركَ على إثارة اهتمامي نحو قضيةٍ، من المؤكد أنها تقدم بعض ملامح الإثارة. لقد قرأتُ بعض تعليقات الجرائد في ذلك الوقت، لكنني كنتُ مشغولًا جدًا في ذلك الأمر الصغير الخاص بالحجر الكريم من الفاتيكان، وقلقي الخاص على الاعتذار للبابا، لذلك، انقطع التواصل مع بعض القضايا المحلية المثيرة. حسنٌ، أنت تقول إن هذا المقال يحتوي على كل الحقائق العلنية!

ـ نعم، هو كذلك.

ـ إذن، أخبرني عن تلك التفاصيل السرية الخاصة.

قال هولمز ذلك، واستند إلى الخلف، شابكًا أصابعه معًا، ومبديًا أقصى التعبير المشابه لمظهر القضاة.

قال دكتور مورتمر، الذي ظهرت على وجهه مشاعر قوية:

ـ في خضم هذا... سأقول ما لم أعترفْ به لأحد: إن دافعي نحو إخفاء التفصيل عن تحقيق هيئة المحلفين، هو أن رجل العلم يأنف من وضع نفسه في موضع علني، بمظهر من يؤيد وجودَ الخرافة. وأيضًا كان الدافع أن فيلا باسكرفيل ـ كما قالت الصحف ـ ستبقى خاوية وغير مرغوب فيها، فيما لو حدث أي شيء يزيد سمعتها البائسة، التي هي موجودة من قبل. من أجل هذين السببين معًا، أقنعت نفسي بأنني كنتُ في موقف مسوّغ، عند الكشف عن أقل المعطيات التي لديّ، لأنه لا ينتج أي فائدةٍ عملية من ذلك. ولكن معك أنتَ يا سيد هولمز، لا أجد سببًا يمنعني من وجوب أن أكونَ صريحًا تمامًا معك.

أرض المستنقع ليست مستوطنةً إلا بالعدد القليل من الناس، وهم يعيشون في تقارب وجوار جيد، لهذا السبب كنت ألتقي السير تشارلز باسكرفيل كثيرًا. باستثناء السيد فرانكلاند من فيلا لافتر، والسيد ستابلتون العالم المختص بالطبيعة، لم يكن هنالك رجالٌ متعلمون آخرون، على بعد أميال كثيرةٍ من هذا الجوار. كان السير تشارلز رجلًا متقاعدًا، لكن ما حصل من مرضه جمعنًا معًا، وعلاوة على ذلك، أدامت علاقتَنا وحدةُ الاهتمامات

العلمية، إذ جلب معه عند عودته من جنوب أفريقيا، كثيرًا من الفوائد العلمية، وما أكثرَ الأمسيات الساحرة التي قضيناها، ونحن نتحاور في علم التشريح المقارن بين جسم البوشمان والهوتنتوت![٩]

في الأشهر القليلة الماضية، بدا لي واضحًا أن نظام السير تشارلز العصبي، يزداد انحدارًا نحو نقطة الانهيار! لقد أخذ على محمل الجد هذه الأسطورةَ التي قرأتها عليكم، وفي إفراط وتعلق شديدين. فرغم أنه كان يمشي على أراضيه الخاصة، لكن لم يكن هنالك أمرٌ يدفعه ويغريه للخروج والسير على أرض المستنقع ليلًا. وما قد لا يُصدق بالنسبة لك سيد هولمز، أنه كان مقتنعًا بصدق أكيد بأن القدرَ القاهر يتوعد سلالته! ومن المؤكد أن السجلات الخاصة بأسلافه ـ التي يمكنه أن يقدمها ـ كانت تثبت أن الوضع لم يكن مشجعًا. استحوذت عليه في ثبات فكرةُ الحاضر المرعب الذي يعيش فيه، ولم تكن تمرّ أي مناسبة تجمعنا معًا، إلا وسألني عن رؤية أي مخلوقٍ غريب أو سماع نباح أي كلب في زياراتي الطبية ليلًا. كان السؤال الأخير هو الذي كرّره أمامي بضع مرات، ودائمًا كان مصحوبًا بصوت متهدج ومُثار! أتذكر جيدًا... كنت أقود نحو بيته، في أحد المساءات قبل ثلاثة أسابيع تقريبًا من الحادث المميت، وقد صادف أن كان عند باب الفيلا، نزلت من عربتي ذات العجلتين،

---

[٩] (Bushman)، (Hottentot) من الشعوب الأفريقية المعروفة.

وكنت واقفًا أمامه، ورأيت عينيه تحدقان فوق كتفي في ما ورائي، مع تعبير شديد من الفزع! فالتفتّ إلى الوراء، وما كان لدي وقت لأرى شيئًا في صورة جيدة، ظننت أنه ربما يكون كالعجل الأسود الكبير يمر عند مقدم العربة. لقد كان منفعلًا ومرتعبًا... حتى أنني كنت مُكرهًا على الانحدار نحو تلك البقعة، حيث مرّ الحيوان وألقيت نظرة هناك. في أي حال، كان قد مضى واختفى! وكأن ذلك الحادث كان الأشد تأثيرًا في عقله! فبقيت معه كل المساء، وكانت تلك مناسبة لإيضاح ما انتابه من تأثر وعاطفة، إذ أخبرني لأكون على اطلاع، فروى لي الحكايةَ التي قرأتها عليكم أولًا.

أنا ذكرتُ لكم هذه الجزئيةَ الصغيرة، وربما تكون لها أهميةٌ في صورة المشهد الكلي من التراجيديا التي حصلت. لكنني كنت مقتنعًا آنذاك، أن الأمر برمته تافه ولا قيمة له، لذلك، فإن انفعاله لا مسوغ له. كان على وشك أن يسافر إلى لندن استجابةً لنصيحتي. كان قلبه ـ وأنا علمتُ ذلك جيدًا ـ منهكًا، وكان للقلق المستمر الذي يمر فيه، الخطر والأثر الحقيقي في صحته بلا شك، وقد زاد من أوهام القضية فوق ما كانت عليه. كنتُ أعتقد أن قضاء بضعة أشهر للتسلية في المدينة، سيبعث في روحه رجلًا جديدًا. أما السيد ستابلتون، صديقنا المشترك الذي كان في أشد القلق على صحة السير تشارلز، فقد وافق رأيي، لكن في اللحظة الأخيرة حلّت علينا هذه الكارثة الفظيعة.

في تلك الليلة المشؤومة، أرسل باريمور ـ الذي اكتشف الجثة ـ إليّ بيركنز السائسَ على الحصان، وبما أنني كنت يقظا إلى وقت متأخر، فقد كان في إمكاني أن أصل إلى باسكرفيل، في ساعة بعد وقوع الحدث. راجعتُ وتأكدت من كل المعطيات التي ذُكرت في التحقيق، وتتبعتُ آثار الأقدام على الممر الشجري، ورأيتُ الموضع عند باب المستنقع، حيث لبث السير تشارلز، ورأيتُ تغيرًا في الآثار بعد تلك النقطة، ولم تكن هنالك آثار أقدام أخرى، باستثناء أقدام باريمور التي انطبعت على الطين الرطب.

أخيرًا، قمتُ بفحص الجثة في اعتناء، وهي لم تُمس حتى وصولي. كان جثمان السير تشارلز ملقيًا على الوجه، وذراعاه مفتوحتان إلى الخارج، وأصابعه مغروسة في الأرض، وكل ما فيه يشير إلى صراع في انفعال شديد انتابه إلى أقصى حد، ذلك الذي جعله يتغير، فلم أتمكن من أن أتعرف إليه إلا في صعوبة! وأؤكدُ عدم وجود إصابة جسدية من أي نوع. كان هنالك بيان خاطئ من باريمور عند التحقيق، إذ قال إنه لم تكن هنالك آثار على الأرض حول الجثة، ولم يرَ أيًا منها، لكنني وجدتُ ضمن مسافة قليلة من الجثة، وكانت واضحةً وجديدة.

فسأل هولمز:

ـ آثار أقدام؟

- نعم، آثار أقدام.

- لرجل أم امرأة؟

نظر دكتور مورتمر نحونا للحظة، وعلى وجهه الدهشة والاستغراب، وانخفض صوته حتى صار كالهمس:

- يا سيد هولمز، لقد كانت آثارَ أقدام كلب عملاق!!

٣ – القضية

عليّ أن أعترف أنني عند سماعي هذه الكلمات، أحسستُ بالقشعريرة تنتابني كليًا! كانت هنالك إثارة وتشويق في صوت دكتور مورتمر، ذلك ما أظهر أنه هو بذاته متأثر كثيرًا بما رواه لنا قبل قليل! أما هولمز، فقد انحنى إلى الأمام في اهتمام وانفعال، وكانت في عينيه نظرة قوةٍ وصلابة، تلك التي تنطلق منهما عندما يُستثار في حدة! قال:

ـ أنت رأيت هذا؟

ـ بكل وضوح، كما أراكَ الآن!

ـ ولم تقل شيئًا؟

ـ وما الفائدة؟

ـ لم يره أحدٌ آخر؟ كيف!؟

ـ كانت العلامات على بعد ما يقرب من عشرين ياردة من الجثة، ولم ينتبه لها أحد أو فكّر في وجودها هناك. أنا لا أفترض أنه كان يجب أن أفعل ذلك، لو لم أكن أعرف تلك الأسطورة.

ـ لكن هنالك كثير من كلاب الرعاة في المستنقع.

ـ لا شك في ذلك، لكنها لم تكن آثارَ كلاب الرعاة.

ـ لقد قلتَ إنها كانت آثارًا كبيرة، أليس كذلك؟

ـ بل هائلة.

ـ لكنها لم تكن قريبةً من الجثة؟

ـ نعم.

ـ صف لي تلك الليلة.

ـ رطبة وباردة.

ـ ولكن لم تكن ماطرة بالفعل؟

ـ نعم.

ـ كيف كان ذلك الممر؟

ـ هنالك سياجان من الشجر الصنوبري القديم(١٠)، على ارتفاع اثني عشر قدمًا وهو منيع، وعرض الممشى وحده في الوسط ثمانية أقدام تقريبًا بينهما.

ـ هل يوجد أي شيء بين سياجي الشجر والممشى؟

ـ نعم، هنالك شريط من الحشائش بعرض ستة أقدام تقريبًا من كل جانب.

ـ أنا أتصور الآن أن الممر الشجري مفتوح عند نقطة واحدة بوساطة باب.

ـ أجل، باب صغير(١١)، يُفتح نحو أرض المستنقع.

ـ هل توجد فتحات أخرى؟

ـ لا.

ـ إذن، لكي يصل شخص إلى الممر الشجري، فإما أن يأتي إليه نزولًا من الفيلا، أو يدخل إليه من باب المستنقع، صحيح؟

---

١٠ (yew) يسمى شجر الطقسوس، من أنواع الأشجار الصنوبرية المعمرة، ترتبط بالفولكلور والخرافات، ويستعمل خشبها في صناعة الأثاث والأقواس الطويلة.

١١ (wicket gate) باب صغير يكون على ممر أو سياج. أو باب صغير ضمن باب أكبر.

ـ هنالك مخرج خلال المنزل الصيفي عند النهاية البعيدة.

ـ هل وصل إليه السير تشارلز؟

ـ لا، لقد كانت الجثة بعيدة عنه على بعد خمسين ياردة تقريبًا.

ـ والآن أخبرني يا دكتور مورتمر ـ وهذا مهم ـ عن العلامات التي رأيتَها، أكانت على الممشى أم على العشب؟

ـ لا يمكن أن تظهر علامات على العشب!

ـ هل كانت على الجانب نفسه من الممر حيث باب المستنقع؟

ـ نعم، كانت على حافة الممر، على الجانب نفسه حيث باب المستنقع.

ـ حقًا لقد أثرتَ اهتمامي أكثر! حسنٌ، نقطة أخرى: هل كان باب المستنقع مغلقًا؟

ـ مغلقًا ومقفلًا بالمزلاج.

ـ كم يبلغ ارتفاعه؟

ـ أربعة أقدام تقريبًا.

ـ إذن، يمكن لأي شخص أن يتسوّره.

ـ أجل.

ـ وما العلامات التي رأيتها عند الباب؟

ـ لا شيء على وجه الخصوص.

ـ يا للسماء! ألم يفحصها أحد؟

ـ بلى، لقد قمتُ بفحصها.

ـ وجدتَ شيئًا؟

ـ كانت الأمور مضطربة جدًا... يبدو من الجلي أن السير تشارلز وقف هنالك لدقائق خمس أو عشر.

ـ وكيف لك أن تعرف ذلك؟

ـ لأن الرماد تساقط مرتين من سيجاره!

ـ ممتاز! يا واتسن، هذا زميل لنا في صميم قلوبنا. وماذا عن العلامات؟

ـ لقد خلّف علاماته الخاصة على كل أنحاء تلك الرقعة الصغيرة من الأرض، ولم أتمكن من تمييز علاماتٍ أخرى.

فصفق شارلوك هولمز يده على ركبته مع تعبير نفاد الصبر! وصاح:

ـ فقط لو أنني كنتُ هنالك! إنها بكل وضوح قضيةٌ ذات إثارة غير اعتيادية، وهي تقدم للخبير العلمي فرصًا شاملة. لو كنتُ هنالك لتفحّصتُ ذلك المكان مرات عدة منذ وقت طويل، قبل أن تضطرب بالمطر، وقبل أن تشوّه بآثار أحذية الفلاحين الفضوليين. أوه يا دكتور مورتمر... دكتور مورتمر، لتعرفْ أنه كان يجب عليك أن لا تستدعيني! فأنت فعلًا لديك كثيرٌ لتجيبَ عنه.

ـ لم أستطع استدعاءك يا سيد هولمز، مع عدم الإفصاح عن هذه الحقائق للعالم، وأنا في الأصل قدمت أسبابي الخاصةَ برغبتي في عدم فعل ذلك، هذا إلى جانب...

ـ لماذا أنت متردد؟

ـ هنالك مجال خاص، يكون فيه أكثر المحققين فطنةً وخبرة وتجربة بلا حول ولا قوة.

ـ أنت تعني أن ذلك الأمر خارقٌ للطبيعة؟

ـ لم أقل ذلك بصورة إيجابيةٍ مؤيدة.

ـ لم تقل، لكن من الواضح أنك تفكر فيه على هذه الطريقة.

ـ منذ حصول هذه المأساة، يا سيد هولمز، سمعتُ أن بعض الحوادث حصلت قبلها، وهي التي يكون من الصعب استيعابها والقبول بها، بالنظر إلى النظام الطبيعي المستقر.

ـ مثلا.

أخمن أنه رأى كلب عائلة باسكرفيل.



ـ قبل وقوع هذا الحادث الفظيع، زعم بعض الناس أنهم رأوا مخلوقًا على المستنقع، له صلة بشيطان باسكرفيل، وهو ما لا يمكن أن يكون أي حيوان معروف علميًا. توافقت أقوالهم كلها على أنه كان بصفة مخلوق ضخم، ومضيء، ومروّع، وشبحيّ. لقد قمتُ باستجواب أولئك الناس، واحد منهم كان ريفيًا ذا عقلية متحجرة، وآخر بيطري الخيول،

وآخر مزارعًا في منطقة المستنقع... وكلهم أخبروني بالقصة نفسها حول هذا الظهور المفزع، قصة مضبوطة بتفاصيلها، ومتصلة بكلب باسكرفيل الجهنمي! أنا أؤكد لك، أن هنالك هيمنة لهذا الفزع على المنطقة، ولن يعبر تلك المنطقةَ ليلًا إلا رجلٌ ميت القلب!

ـ وأنت ـ الرجل العلمي المدرّب ـ تصدق أنها حادثةٌ خارقة للطبيعة؟

ـ لا أعلم ما الذي أصدّقه!

فهز هولمز كتفيه استهجانًا:

ـ حتى هذه اللحظة، أنا أقيّد تحقيقاتي بعالمنا هذا. وفي تواضع أقول: أنا كافحتُ الشر، ولكن لكي تتولى مكافحة رأسِ الشر نفسه، ربما ينبغي لك أن تكون في مهمة طموحة ومتعالية جدًا، لأنك يجب أن تعترف أن علامات الأقدام مادية موجودة. لقد كان وجود الكلب ماديًا بما يكفي ليسحب عنق هوغو باسكرفيل وينتزع حنجرته، وكذلك كان شيطانيا خرافيًا ليفعل ذلك أيضًا! أنا أرى أنك بالغتَ كثيرًا في الخوارق. لكن الآن يا دكتور مورتمر، أخبرني عن هذا: إذا كانت لديك وجهاتُ النظر هذه، فلماذا جئتَ لاستشارتي بعد هذا كله؟ أنت تخبرني بالمستوى نفسه: أن من غير المجدي التحقيقَ في موت السير تشارلز، وأنك ترغب في أن أتولى أنا فعلَ ذلك.

ـ أنا لم أقل إنني رغبتُ في توليك حلّ القضية!

ـ إذن، كيف يمكنني أن أساعدك؟

ـ بتقديم النصح لي حول كيفية التصرف مع السير هنري باسكرفيل، الذي سيصل اليوم عند محطة واترلو.

نظر دكتور مورتمر إلى ساعته، وأكمل:

ـ بالضبط بعد ساعة وخمس عشرة دقيقة.

ـ وهو الوريث أليس كذلك؟

ـ نعم، عند موت السير تشارلز بحثنا عن هذا الجنتلمان الشاب، وعرفنا أنه ما يزال يمارس الزراعة في كندا. استنادًا إلى ما عرفناه عنه، فإنه رفيق ممتاز في كل شيء. أنا لا أتكلم هنا بصفتي طبيبًا، بل وصيًا مؤتمنًا لتنفيذ وصية السير تشارلز.

ـ أفترضُ عدمَ وجود وريث ومطالِب آخر، صحيح؟

ـ لا أحد. القريب الآخر الوحيد، الذي كان في إمكاننا اقتفاءُ أثره هو روجر باسكرفيل، وهو الأخ الأصغر من ثلاثة إخوة، كان المسكين السير تشارلز أكبرهم. الأخ الثاني الذي

توفي شابًا هو أبو هذا الشاب هنري. الثالث روجر كان الخروف الأسود في العائلة!(١٢) لقد انحدر من سلالة باسكرفيل القديمة القديرة، وأخبروني أنه كان أكثرهم شبهًا بصورة فرد العائلة هوغو القديم. لقد جعل إنكلترا هائجة جدًا للقبض عليه، فهرب إلى أمريكا الوسطى، ومات هنالك في عام ١٨٧٦ بالحمى الصفراء. هنري هو آخر آل باسكرفيل، وفي ساعة وخمس دقائق سألتقيه عند محطة واترلو. وصلت إليّ برقيةٌ تفيد أنه وصل إلى ساوثامبتون هذا الصباح. والآن يا سيد هولمز، ماذا تكون نصيحتك لي للتعامل معه؟

- ولماذا يجب أن لا يذهب إلى منزل آبائه؟

- يبدو هذا طبيعيًا لأول وهلة، أليس كذلك؟ ولكن ضع في الاعتبار، أن أي فردٍ من آل باسكرفيل يذهب إلى هناك، ستحلّ عليه لعنة الشر! أنا متأكد من أن السير تشارلز لو استطاع أن يتكلم معي قبيل موته، لحذرني برفضه أن آتي بهذا الشخص - آخر العِرق القديم ووارث الثروة العظيمة - إلى هذا المكان المميت. ومع ذلك، لا يمكن إنكار أن ازدهار ذلك الريف المسكين المغموم يعتمد على حضوره. فكل عمل الخير الذي أنجزه السير تشارلز سينهار ويتلاشى، إن لم يكن هنالك نزيل في الفيلا. وأخشى أن أكون مبالغًا بأحكامي من خلال

---

[١٢] تعبير يعني: الشخص الذي يرتكب أفعالًا سيئة وشريرة، تصيب سمعته وسمعة عائلته بالعار.

اهتمامي الواضح في هذه المسألة، وهذا ما جعلني أعرض القضيةَ أمامك وأسألك مشورتك.

فأطرق هولمز مفكرًا للحظات... ثم قال:

ـ ضعها في كلمات واضحة، هذه هي القضية: ترى أن هنالك تدخلًا من قوى شيطانية، يجعل دارتمور مسكنًا غير آمن لآل باسكرفيل... أهذا ما تعتقد؟

ـ في الأقل... ربما أرى مجاريًا القول بأن هنالك بعض الأدلة على أن الأمر على هذا النحو.

ـ بالضبط. ولكن من المؤكد أنه إذا كانت نظريتك حول خوارق الطبيعة صحيحة، فمعنى هذا أنها ستصيب الرجلَ الشاب عند مقامه في لندن، بمثل السهولة التي تصيبه وهو في ديفونشاير. إن شيطانًا له قوى محليةٌ محدودة مثل رعايا الأبرشية الاعتياديين، سيكون شيئًا غير مقنعٍ البتة!!

ـ يا سيد هولمز، أنت تجعل الأمر محلًا للتهكم كثيرًا! أكثر مما لو كنتَ تفعل فيما لو جُعلت على صلة شخصية مع هذه الأمور. فرأيك إذن ـ على نحو ما أفهم ـ أن هذا الشاب سيكون آمنًا في ديفونشاير كما في لندن، وهو سيصل بعد خمسين دقيقة، فما توجيهاتك؟

ـ أرى يا سيدي، أن عليك أن تستأجر عربةً، وتنادي كلبك الذي يخمش بابَ دارنا، وتعجّل بالتحرك نحو واترلو للقاء السير هنري باسكرفيل.

ـ وبعد ذلك؟

ـ وبعد ذلك، لا تقل له أي شيء، حتى أفكرَ جيدًا في الموضوع وأقرر.

ـ وكم سيستغرق ذلك وقتًا منك؟

ـ أربعًا وعشرين ساعة. غدًا عند الساعة العاشرة يا دكتور مورتمر، سأكون أكثر امتنانًا لك إذا جئتني إلى هنا. وسوف تكون مساعدةً لي في خططي للمستقبل، إذا قدرتَ على جلب السير هنري باسكرفيل معك إلى هنا.

ـ سوف أفعل ذلك يا سيد هولمز.

قال ذلك، ودوّن سريعًا بلا اعتناء تفاصيلَ الموعد على كم قميصه! وأسرعَ في الانطلاق في هيأته الغريبة، محدقًا في الفراغ وشارد الذهن. أوقفه هولمز عند رأس السلم، وقال:

ـ سؤال واحد فقط يا دكتور مورتمر: قلت إن بعض الناس قبل موت السير تشارلز باسكرفيل، رأوا هذا الشبح على المستنقع، صحيح؟

ـ نعم، وهم ثلاثة.

ـ هل رأى أي واحد منهم الشبحَ بعد ذلك؟

ـ لم أسمع أي شيء خاص بالموضوع.

ـ شكرًا جزيلًا لك، وعمتَ صباحًا.

رجع هولمز إلى مقعده وعليه ملامح الرضا الداخلي تمامًا، وهذا يعني أنه امتلك قضية متجانسة وملائمة أمامه.

ـ أتخرجُ يا واتسن؟

ـ لا أخرجُ إلا لكي أقدمَ لك العون.

ـ لا يا رفيقي العزيز، عند ساعة الحركة أحتاج إلى مساعدتك. وهذا أمرٌ مثير فاخر، حقًا، إنه فريد من حيث بعض الزوايا. عندما تجتاز بمحل برادلي، هلّا تطلب منه أن يرسل لنا باوندًا من أقوى تبغ شاغ.(١٣) شكرًا لك. وإنه سيكون جيدًا إذا استطعتَ من لطفك أن لا

---

[١٣] (Shag) نوع من التبغ يُستورد من فرجينيا – الولايات المتحدة، يستعمله الأفراد في لف السجائر أو حشو الغليون.

تعود قبل حلول المساء. إذ ذاك سأكون مسرورًا في مقارنة الانطباعات عن هذه القضية المثيرة للاهتمام، التي عُرضت علينا في هذا الصباح.

أدركتُ أن العزلة كانت مهمة جدًا لصديقي، في تلك الساعات ذات التركيز العقلي الشامل، خلال ما يفعله من تقدير كلّ جزئية من المعطيات وتحليلها، وإعادة تركيب نظريات بديلة، وموازنة واحدةٍ أمام الأخرى، ليحسم أمرَه بالنظر في النقاط من حيث كونها جوهرية أو غير مهمة. لذلك، قضيت نهاري كله في النادي، ولم أرجع إلى شارع بيكر حتى المساء. كان الوقت عند التاسعة تقريبًا، حين وجدت نفسي مرة أخرى في غرفة الجلوس.

عندما فتحت الباب، كان انطباعي الأول كأن حريقًا شبّ في المكان، لأن الغرفة كانت ممتلئةً بالدخان، حتى أن ضوء المصباح على المنضدة كان خافتًا بسببه. في أي حال، بعد دخولي هدأت نفسي وزال قلقي، كانت كثافة الدخان اللاذعة المنبعثة من التبغ القوي، تخنق أنفاسي وحنجرتي وجعلتني أسعل. من خلال العتمة رأيت لهولمز في رؤية مشوشة، كان في ردائه المنزلي ملتفًا على نفسه في كرسيه ذي المسندين، وغليونه من الفخار الأسود بين شفتيه، وحوله لفائف متناثرة من الورق! قال هولمز:

ـ أُصبتَ بالسعال، يا واتسن؟

ـ لا، لكنه هذا الجو السام...

ـ أنا أفترض أنه كثيف جدًا، وأنت الآن تشير إلى ذلك...

ـ كثيف!! إنه مفرط لا يُطاق!

ـ إذن، افتح النافذة. كنتَ في النادي طول يومك، أحدسُ هذا.

ـ يا عزيزي هولمز...!

ـ هل أنا مصيب؟

ـ بالتأكيد، ولكن كيف؟

ضحك هولمز من تعبير الحيرة على وجهي!

ـ يظهر عليك انتعاش السرور ونضارة البهجة، يا واتسن. ذلك الذي يجعل من دواعي سروري اختبار أي قوى صغيرة أحوزها على حساب سعادتك! يذهب الجنتلمان ويتورط في يوم ممتلئ بالمشاغلٍ وموحل، ثم يعود نظيفًا لامعًا عند المساء، ما يزال ذلك على قبعته وحذائه، لذلك، فإنه كان في مظهر ثابت كل اليوم، وهو رجل بلا أصدقاء حميمين. بعد ذلك كله، أين يمكن له أن يكون؟ أليس ذلك واضحًا؟

ـ حسنٌ، إنه واضح نوعًا ما.

ـ هذا العالم ممتلئ بالأدلة الواضحة التي لا يراها أحد في أي فرصة. أين تظن أنني قضيتُ وقتي؟

ـ في ثبات أيضًا.

ـ على العكس! لقد كنتُ في ديفونشاير!

ـ روحيًا؟

ـ بالضبط! بقي جسدي في كرسيه ذي المسندين هذا، ويؤسفني أن أرى أنني استهلكتُ في غيابي إبريقين كبيرين من القهوة، وكميةً لا تصدق من التبغ. بعد ذهابك، أرسلتُ طلبًا إلى مكتب ستامفورد، من أجل خرائط عسكرية خاصة بهذا الجزء من منطقة المستنقع، وقد حوّمت روحي فوقها طول اليوم. جعلت نفسي خفيفًا حتى استطعتُ أن أجد طريقي هناك!

ـ أفترضُ أنها خرائط واسعة ومفصّلة، أليس كذلك؟

ـ كبيرة جدًا.

ثم بسط واحدةً منها وأمسكها فوق ركبته، وقال:

ـ هنا، لديك المنطقة المحددة التي تهمنا، تلك هي فيلا باسكرفيل في الوسط.

ـ مع غابة حولها؟

ـ بالضبط. أنا أتخيل أن الممر الشجري ـ مع أنه ليس معلّما تحت ذلك الاسم ـ يجب أن يمتد على طول هذا الخط مع المستنقع، الذي يكون على جهة اليمين منه بنحو ما ترى. هذه المجموعة المتراكمة من البنايات هنا هي قرية غرمبين، حيث يملك صديقنا دكتور مورتمر مقر عمله. وضمن نطاق خمسة أميال هنالك ـ كما ترى ـ بضعة مساكن مبعثرة لا غير. ها هنا موقع فيلا لافتر التي ذُكرت في الكلام. هنالك علامة تشير إلى منزل هنا، ربما يكون مسكن العالم الطبيعي، واسمه ستابلتون ـ إذا كنت أذكر ذلك صحيحًا ـ وها هنا اثنان من منازل مَزارع أرض المستنقع: هاي تور، وفول ماير. وبعدها على مسافة أربعة عشر ميلًا، حيث مقر سجن الجرائم الكبرى في برنستاون. وبين هذه النقاط المبعثرة وحولها تمتد أراضي المستنقع المهجور الكئيب. إذن، هذا هو موقع المسرح الذي على منصته جرت أحداثُ التراجيديا، وعلى المنصة نفسها، ربما سيقدّر لنا أن نساعد على تمثيل حلّها مجددًا...

ـ لا بد أن يكون مكانًا موحشًا.

ـ نعم، والإعداد قيّم ومهم، إذا رغب الشيطان في أن تكون له يدٌ في شؤون الرجال...

ـ إذن، أنت نفسك تميل إلى التفسير الخارق للطبيعة...

ـ ربما تكون القوى الشيطانية من لحم ودم، وربما لا! تساؤلان ينتظراننا عند البدء: بصورة عامة، هل هنالك أي جريمة أصلا؟ والثاني: ما الجريمة وكيف نُفذت؟ طبعًا، إذا كان حدس دكتور مورتمر صحيحًا، فنحن نتعامل مع قوى خارج القوانين الطبيعية المعتادة، إذن هنالك نهاية لتحقيقنا، لكننا ملزمون باستنفاد كل الفرضيات الأخرى قبل التقهقر نحو هذه. أظن أننا سوف نغلق تلك النافذة مرةً أخرى، إن لم تمانع! إنه شيء مميز، لكنني أجد أن الجو المكثف يساعد على تركيز الأفكار! أنا لم أدفع باتجاه الدخول في صندوق للتفكير، ولكن هذا هو الناتج المنطقي والعقلاني لقناعاتي. ترى هل فكّرتَ مليًا في هذه القضية.

ـ نعم، لقد قضيتُ مقدارًا جيدًا من الوقت من أجل التفكير.

ـ ما الذي توصلتَ إليه؟

ـ إنها محيرة جدًا!

ـ حقًا إن لها طبيعتها الخاصةَ بها، ففيها نقاط اختلاف مميزة، مثلًا: ذلك التغير في آثار الأقدام، ما رأيك فيه؟

ـ قال مورتمر، إن الرجل قد سار بأطراف أصابعه على ذلك الموضع من الممر!

ـ لقد كرّر قولَ بعض الحمقى في التحقيق! لماذا يجب على رجلٍ ما أن يسير بأطراف أصابعه على الممر؟

ـ إذن...؟

ـ لقد كان يركض يائسًا، يا واتسن، يركض في شدة لينجو بحياته... حتى أجهد قلبَه فسقط على وجهه ميتًا!

ـ يركض هاربًا ممن؟

ـ هنالك تكمن معضلتنا! توجد مؤشرات على أن الرجل قد جنّ جنونه خوفًا، حتى قبل أن يبدأ بالركض أصلًا...

ـ أنّى لك أن تقول هذا؟

ـ إنني أفترض أن سبب فزعه جاء نحوه من جهة المستنقع. وإذا كان ذلك صحيحًا ـ وهو يبدو الاحتمال الأكثر قبولًا ـ فإنه لا يكون إلا رجلًا قد فقد عقله، كي يركض من المنزل بدلًا من التوجه إليه. إذا قُبل دليل الغجري، فإن الضحية ركض صارخًا وطالبا النجدة، نحو الاتجاه حيث ـ في الأقل ـ يكون الحصول على المساعدة محتملًا بالنسبه له. ثم، مرة أخرى،

مَن الذي كان ينتظره السير تشارلز تلك الليلة؟ ولماذا كان في انتظاره في الممر الشجري بدلًا من بيته الخاص؟

ـ تظنّ أنه كان ينتظر أحدًا ما؟

ـ لقد كان الرجل كبيرًا في السن وعاجزًا. يمكننا أن نفهم قيامه بجولة مسائية للمشي، لكن الأرض كانت رطبة والليل بهيمًا باردًا، فهل من الطبيعي أن عليه أن يقف لخمس أو عشر دقائق، كما استنتج دكتور مورتمر ـ بذكاء عمليّ أكثر مما عليّ أن أمنحه له ـ من رماد السيجار؟

ـ ولكنه اعتاد الخروجَ كل مساء.

ـ أظن أن من غير عادته الانتظار عند باب المستنقع كل مساء. لكن من جهة أخرى، يثبت الدليلُ أنه تجنب المستنقع. في تلك الليلة كان قد انتظر هنا، كانت الليلة التي تسبق سفره إلى لندن. الأمور تتشكل معالمها، يا واتسن، إنها تغدو متماسكة ومترابطة. هل لي أن أطلب منك أن تناولني الكمان؟ سنؤجل كل الأفكار الإضافية حول هذا العمل، حتى نحصل على المعطيات من لقاء دكتور مورتمر والسير هنري باسكرفيل عند الصباح.

٤ – السير هنري باسكرفيل

بعد تناول الفطور، رُفعت الأطباق في سرعة، وانتظر هولمز مرتديًا رداءه الرسمي موعدَ المقابلة المتفق عليها. كان عملاؤنا ملتزمين بدقة الموعد، فما إن دقت الساعة العاشرة، حتى ظهر دكتور مورتمر يتبعه البارون الشاب. كان الأخير رجلًا صغيرًا، ونشيطًا، وأسود العينين، وبعمر الثلاثين، وببنية جسدية متينة جدًا، له وجه ذو روح قتالية قوية، مع حاجبين أسودين عريضين. كان يرتدي بذلة صوفية خشنة حمراء داكنة، ولديه مظهر من لفحه الطقس، فكأنه قد قضى أكثر وقته في الهواء الطلق، وما يزال هنالك شيء في عينيه الحازمتين، والاطمئنان الهادئ الخاص بمشيته، التي تشير إلى أنه جنتلمان.

قال دكتور مورتمر:

ـ أقدمّ لكم السير هنري باسكرفيل.

فقال هو:

ـ مرحى! نعم، الأمر الغريب يا سيد شارلوك هولمز، هو أن صديقي لو لم يأتِ هنا هذا الصباح، لكان عليّ أنا أن أزورك! أفهمُ أنك تظن أن الأمر محير قليلًا، وأنا أصبت بحيرة

أيضًا هذا الصباح، ربما يحتاج الأمر من عندي مزيدًا من التفكير، أكثر مما في قدرتي على ذلك.

ـ أرجوك تفضل بالجلوس سير هنري. هل أفهم أنك تريد القولَ، أنك امتلكت بعض الخبرة المميزة منذ وصولك إلى لندن؟

ـ ليس أمرًا على أهمية كبيرة يا سيد هولمز! إنها مزحة فقط، ربما كذلك أو ربما لا. إنها هذه الرسالة ـ إن كان بإمكانك أن تسميها رسالة ـ التي وصلت إليّ هذا الصباح.

ثم وضع ظرفًا على المنضدة، وانحنينا كلنا عليه. كان من النوع الاعتيادي الشائع، يميل لونه إلى الرمادي. والعنوان:

«السير هنري باسكرفيل، فندق نورثمبرلاند».

كان مكتوبًا بأحرف خشنة، وكان الرمز البريدي: تشيرنغ كروس. وتاريخ الإرسال يشير إلى المساء السابق.

سأل هولمز وهو يلقي نظرة ثاقبة نحو زائرنا:

ـ من يعرف أنك كنتَ متوجهًا نحو هذا الفندق؟

ـ لا أحد أستطاع أن يعرف، لقد قررنا ذلك فقط، بعد أن التقيتُ دكتور مورتمر.

ـ ولكن دكتور مورتمر بلا شك كان نازلًا في الفندق نفسه قبل ذلك، صحيح؟

فقال دكتور مورتمر:

ـ لا، كنت أقيم عند صديق. لم يحدث أي شيء ينبئ عن عزمنا على التوجه لذلك الفندق.

ـ عجبًا! يبدو أن أحدهم مهتم جدًا بتحركاتك.

أخرجَ من الظرف نصفَ ورقة فولسكاب[١٤] مطوية إلى أربع. فتحها ونشرها على المنضدة. في وسطها كانت هنالك جملةٌ واحدة، أُلفت بطريقة لصق حروف مطبوعة. وهي: «إذا كنتَ تقدّر قيمةَ حياتك أو عقلك، فابتعد عن المستنقع». وكانت كلمة (المستنقع) وحدها مكتوبة بالحبر. قال هنري باسكرفيل:

ـ الآن، ربما ستخبرني يا سيد هولمز، ماذا يعني هذا بحق السماء؟ ومن ذلك المهتم كثيرًا جدًا بشؤوني الخاصة؟

---

[١٤] حجم الورق بقياسات: (٥, ١٣ * ٥, ٨) إنشًا. كان سائدًا في أوروبا ودول الكومنولث قبل انتشار الحجم المعياري الدولي (A٤).

ـ ما رأيك في هذا يا دكتور مورتمر؟ أيجب عليكَ أن تعترف، أن لا شيء من الخوارق

ـ وفي أي مستوى ـ له صلة بهذا الموضوع؟

ـ لا يا سيدي، لكن الاعتراف ربما يكون حسنًا جدًا، عندما يأتي من شخص كان مقتنعًا أن القضية خارقة للطبيعة.

فسأل السير هنري باسكرفيل:

ـ أي قضية؟ يظهر لي أيها السادة الكرام، أنكم كلكم تعرفون شؤوني الخاصة أكثر مني!

قال هولمز:

ـ يجب أن نتشارك ما نعرف قبل مغادرة هذه الغرفة، يا سيد هنري، وأنا أعدك بذلك. وأما الآن، وبعد إذنك، سنركز جهودنا في هذه الوثيقة المهمة، التي يظهر أنها صُفّت وأرسلت مساءَ الأمس. يا واتسن، هل لديك عددُ الأمس من جريدة التايمز؟

ـ إنها هنا في الزاوية.

ـ هل أزعجكَ لو طلبتُ منك أن ترى الصفحة الداخلية رجاءً، ضمن المقالات الرئيسة؟

تناولها وألقى عليها نظرة سريعة، بتحريك عينيه على الأعمدة صعودًا ونزولًا، وقال:

ـ هذه مقالة رئيسة في موضوع التجارة الحرة. اسمحوا لي أن أقدم لكم مقتطفًا منها:

«ربما يكون من التملق (إليك)، أن تتصور أن تجارت(كَ) الخاصة أو مجال(كَ) الصناعي يُشجعان بفرض التعرفة الجمركية الوقائية، لكن مما يحكم به (العقل) أن مثل هذا التشريع على المدى البعيد، من شأنه أن يقول للثروة: (ابتعدي) (عن ال) بلاد! لأنه سيقلل (قيمة) استيراداتنا، ويخفض ظروف (الحياة) العامة على هذه الجزيرة».

ثم صاح هولمز في طرب وزهو فاركًا يديه وعليه سيماء الرضا:

ـ يا واتسن، ما تقول في هذا؟ ألا ترى أنها وجهة نظرٍ بديعة؟

نظر دكتور مورتمر نحو هولمز في صورة الاهتمام الاحترافي، وأما السير هنري باسكرفيل فقد نظر نحوي بعينين سوداوين متحيرتين! وقال:

ـ أنا لا أعرف كثيرًا عن التعرفة الجمركية والأشياء ذات الصلة بهذا المجال. لكن يبدو لي أننا ابتعدنا قليلًا عن المسار حتى الآن، في حال أن هذه الرسالة مهمة.

ـ على العكس، يا سير هنري، أنا أظن أننا نسير في اندفاع محدد على المسار. واتسن هنا، يعرف أكثرَ حول طرقي أكثر مما تفعل أنت، لكنني أخشى أنه حتى هو لا يدرك المغزى تمامًا من دلالة هذا النص.

فقلت:

- لا، أنا أعترف أنني لا أرى صلةً هنا.

- يا عزيزي واتسن، حتى الآن هنالك صلة قريبة جدًا! إن أحدهما يُستخلص من الآخر: «أنت، كَ، كَ، حياة، عقل، قيمة، ابتعد، عن ال).[١٥] أترى الآن من أين أُخذت هذه الكلمات؟

صاح هنري:

- بحق الله، أنت محق! حسنٌ، أليس ذلك ذكيًا!

- إن كانت هنالك إمكانية لأي شك، فإنه يزول بالحقيقة الدامغة بأن: (ابتعد)، و(عن ال) مقتطعتان معًا.

- جيد، الآن هذه هي!

قال دكتور مورتمر محدقًا في صديقي في دهشة:

---

[١٥] (You, Your, Your, Life, Reason, Value, Keep away, From the)

ـ حقًا يا سيد هولمز، هذا يفوق أي شيء أتصوره! يمكنني فهم أي شخصٍ يقول إن الكلمات كانت مقتطعةً من جريدة، لكن أن تعيّنها، وتكتشف أنها جاءت من مقالة رئيسة، فإن ذلك حقًا واحدٌ من أعظم الأمور تميزًا التي عرفتها! كيف تفعل ذلك!

ـ أنا أفترض يا دكتور، أنك تستطيع التمييزَ بين جمجمة الزنجي وجمجمة رجل الأسكيمو، صحيح؟

ـ مؤكد تمامًا!

ـ لكن كيف؟

ـ لأنها هوايتي الخاصة. الاختلافات واضحة: قمة فوق المدارية، وزاوية الوجه، وقوس الفك العلوي، و...

ـ وهذه هوايتي الخاصة بي! الاختلافات واضحة بتساوٍ، هنالك كثير من الاختلافات تبدو لعينيّ، بين النمط البرجوازي الرصاصي لمقالات التايمز، والطبعة المسائية الرديئة بالورق بقيمة نصف البنس، كما يمكن أن يكون عندك الفرق واضحًا بين جمجمتي الزنجي ورجل الأسكيمو. إن تفحص الأنماط وتمييزها، واحدٌ من الفروع المعرفية الأساسية جدًا للخبير المختص بمجال الجرائم. رغم الاعتراف بأنني عندما كنت شابًا

خلطتُ بين جريدتي (Leeds Mercury) ([١٦]) و(Western Morning News) ([١٧])، لكن مقال التايمز الرئيس مميز بالكامل، وهذه الكلمات يمكن أن تكون مأخوذة من أي مكان آخر. إذا كانت منجزةً بالأمس، فإن الاحتمال القوي أننا سنعثر على الكلمات في عدد صحيفة الأمس.

قال السير هنري باسكرفيل:

ـ إذن، حتى الآن يا سيد هولمز ـ بنحو ما تمكنتُ من متابعتك ـ قصّ أحدهم كلماتِ هذه الرسالة بالمقص...

ـ مقص أظفار! يمكنك أن ترى أنه كان ذا شفرة قصيرة جدًا، حتى أن الذي قصّ الكلمات كان عليه أن يقص مرتين معًا لاستخراج كلمة: (ابتعد عن).

ـ هذا هو الحال. أحدهم، إذن، اقتطع كلمات الرسالةِ بمقص صغير، ولصقها بمعجون...

---

[١٦] جريدة نُشرت في مدينة ليدز، غرب يوركشاير، أنكلترا، للمدة من ١٧١٨ إلى ١٧٥٥، ثم نُشرت مرة أخرى في ١٧٦٧. كانت مؤلفة من ١٢ صفحة.

[١٧] جريدة إقليمية يومية نُشرت في ١٨٦٠. كانت تغطي أخبار غرب البلاد.

ـ صمغ.

ـ بالصمغ على الورقة. لكنني أريد أن أعرف: لماذا وجب أن تكون كلمة (مستنقع)[١٨] مكتوبةً بدلًا من لصقها؟

ـ بالطبع، وهذا يفسر سبب ذلك. هل هنالك أمر آخر من قراءتك هذه الرسالةَ، يا سيد هولمز؟

ـ هنالك واحد أو اثنان من المؤشرات، لأن المُنشئ قد بذل قصارى جهوده لمحو كل الأدلة. انظر إلى العنوان، إنه مكتوب بأحرف خشنة غير أنيقة. إن التايمز جريدة نادرًا ما تجدها عند غير ذوي المستوى العلمي الراقي. ربما نفهم من ذلك أن الرسالة ألّفها رجلٌ متعلم، رغب في أن تظهر رسالته كأنها من رجل غير متعلم، أما جهده في تمويه كتابته هذه، فيلمح إلى أن تلك الكتابة ربما تكون معروفة أو تحاول ذلك، من خلال قراءتك أنت لها. مرة أخرى، سترى أن الكلمات ليست ملصقةً إلى بعضها في خط مستقيم دقيق، بل إن بعضها أعلى من بعض، كلمة (حياة) مثلًا خارجة تماما عن موضعها المناسب، وربما يدل هذا على عدم الاعتناء، أو إلى الهياج والتسرع من الشخص الذي يقطع عند ذلك الجزء. على

---

[١٨] (moor) تعني: المستنقع، ومساحةً مفتوحة غير مزروعة، أو الأرض البور.ـ لأنه لم يستطع العثور عليها مطبوعةً. كل الكلمات الأخرى كانت بسيطة ومن المحتمل وجودها في أي عدد، لكن كلمة (مستنقع) ستكون أقل شيوعًا.

العموم، أنا أميل إلى الرأي الأخير، لأن المادة كانت مهمة في وضوح، ومن غير المحتمل أن يكون الشخص الذي جمع مثل هذه الرسالة غير مهتم. إذا كان في عجلةٍ من أمره، فذلك يثير سؤالًا مهمًا: لماذا عليه أن يكون في عجلة؟ إن أي رسالةٍ تُرسل بالبريد المسائي، كانت ستصل إلى السير هنري عند الصباح الباكر قبل أن يغادر فندقه؟ هل شعر مؤلف الرسالة بالخوف من أن يقاطعه أحدٌ؟ ومن يكون ذلك؟

قال دكتور مورتمر:

ـ نحن مقبلون الآن نوعًا ما على الدخول في منطقة عمل التخمينات.

ـ قل بدلًا من ذلك: إننا في المنطقة، حيث نوازن الاحتمالات ونختار الأرجح. إنه الاستعمال العلمي للخيال، لكن لدينا دائمًا بعض القواعد المادية، التي عليها نبدأ التكهنات. والآن، ربما تسمّيها عملية تخمين، بلا شك، لكنني متيقن تقريبًا أن هذا العنوان قد كُتب في فندق.

ـ بحق العالم! كيف يمكنك أن تقول ذلك!

ـ إذا فحصتَ الرسالة في اعتناء، فسوف ترى أن القلم والحبر كليهما قد سببا للكاتب مشكلة. أما القلم فقد زاد في تدفق الحبر مرتين في كلمة واحدة، وصار جافًا ثلاث مرات في

الخطاب القصير، وهذا يدلنا على أن الحبر كان قليلًا جدًا في المحبرة. والآن، فإن القلم أو قنينة الحبر الخاصين، من النادر أن يُسمح أن تكون في مثل هذا الحال، وأن الجمع بين الحالتين يجب أن يكون نادرا تمامًا. تعرفون أن القلم والحبر في الفندق، يكون من القليل أن تحصل على غيرهما. نعم، لدي ترددٌ قليل جدًا نحو القول، إننا يمكن أن نبحث في سلال المهملات، ونفايات الورق في الفندق حول تشيرنغ كروس، حتى نجد البقايا الخاصة بمقال جريدة التاميز المقطّعة، وبذلك نستطيع أن نضع أيادينا مباشرة، على الشخص الذي أرسل هذه الرسالة المميزة. عجبًا! عجبًا! ما هذا؟

قال هولمز وهو يفحص في عناية ورقة الفولسكاب، حيث ألصقت عليها الكلمات، ممسكًا بها فقط بمسافة بوصة أو اثنتين من عينيه:

ـ حسنٌ، لا شيء!

رماها إلى الأسفل، وقال:

ـ إنها نصف ورقة فارغة، حتى إنها بلا علامة مائية. أظن أننا استنفدنا ما في هذه الورقة الغريبة قدر ما يمكننا! والآن، يا سير هنري، هل حدث لك أي شيء آخر يبدو غريبًا أو مثيرًا منذ مجيئك إلى لندن؟

ـ لماذا؟ لا، يا سيد هولمز. لا أظن ذلك.

ـ ألم تلحظ أي أحدٍ يتبعكَ أو يراقبك؟

قال ضيفنا:

ـ يبدو أنني سرتُ على طريق أدخلني في متاهة رواية رخيصة!([19]) فلماذا بحقّ السماء يجب على أي أحدٍ أن يتبعني أو يراقبني!

ـ سنصلُ إلى ذلك. أليس لديك شيء آخر تخبرنا به، قبل أن ندخل في معترك هذه القضية؟

ـ حسنٌ، إنه يعتمدُ على ما ترى أنه يستحق الإخبار.

ـ أنا أعتقد أن أي شيءٍ خارج عن المألوف اليومي للحياة يستحق الإخبار.

فابتسم السير هنري!

---

[19] (The dime novel) إصدار قصصي أمريكي بين أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. كان يُنشر في سلاسل طباعية رخيصة الثمن. كلمة (dime) تعني عشرة سنتات أو مقدارًا ضيئلًا من المال.

ـ حتى الآن، أنا لا أعرف كثيرًا عن نمط الحياة البريطانية، لأنني قضيتُ كل حياتي تقريبًا في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا. لكنني آمل أن فقدانَ حذائي ليس جزءًا من المألوف اليومي هنا!

ـ لقد فقدتَ حذاءك؟

صاح دكتور مورتمر:

ـ فقدتَ حذائك! سيدي العزيز، إنه أضاعها فقط، ستجد الحذاء تلك عندما تعود إلى الفندق. فما النفع من إشغال السيد هولمز بهذه التوافه؟

ـ حسنٌ، هو سألني عن أي شيء قد حدث خارج المألوف بالنسبة لي.

قال هولمز:

ـ بالضبط، رغم ما قد يبدو عليه هذا الحادث من تفاهة. لقد قلتَ إنك فقدت فردةً من حذائك؟

ـ نعم، أضعتها! في أي حال، وضعت حذائي خارج بابي الليلةَ الماضية، وعند الصباح لم يكن هنالك إلا واحدة. لم أستطع الحصول على ما يُفهم من الشاب الذي صبغه. أسوأ

ما في الأمر، أنه لم يمض على شرائي تلك الحذاء من مركز ستراند إلا الليلة الماضية، ولما أضعهما في قدميّ بعد!

ـ إن لم تكن وضعت قدميك فيهما قط، فلمَ تركتهما في الخارج للتنظيف؟

ـ حذائي الجديد جزمة ذات جلد بني لم تُصبغ قط، هذا ما جعلني أضعها خارج غرفتي.

ـ إذن، أنا أفهم أنك عند وصولك إلى لندن يوم أمس، خرجتَ من فورك لتشتري حذاءً جديدًا؟

ـ حقًا، لقد تسوقت كثيرًا، وهذا دكتور مورتمر هنا قد رافقني في جولتي. إذا كنتُ سأصبح من الإقطاعيين هناك، فعليّ أن أرتدي ما يلائم، ربما كنتُ في الغرب أقل اعتناءً بمظهري. من بين كل الأشياء الأخرى، اشتريت هذه الجزمة البنية، وأعطيت ستة دولارات ثمنًا لها، وقد سُرقت فردةٌ منها حتى قبل أن أضع قدمي فيهما!

ـ يبدو شيئًا بلا أهمية كبيرة لكي يسرق وحده. وأنا أعترف أنني أشاطر دكتور مورتمر اعتقادَه، في أن الوقت لن يطول قبل أن يُعثر عليها.

قال البارون هنري مقررًا:

ـ والآن أيها السادة، يبدو أنني قد تكلمتُ بما يكفي من معرفتي القليلة. وقد حان الوقت للوفاء بوعدكم. أخبروني عن تفاصيل الحكاية كلها، الخاصة بما نحن سائرون فيه.

أجابه هولمز:

ـ طلبك معقول جدًا. أظن يا دكتور مورتمر، أنك لن تفعل شيئًا أفضل من أن تروي القصة للسير هنري كما رويتَها لنا.

بهذا التشجيع، أخرج صديقنا العلمي أوراقه من جيبه، وشرع بتقديم تفاصيل القضية كاملةً، بنحو ما فعل في الصباح السابق... وقد استمع السير هنري باسكرفيل في أعظم الاهتمام، مع إبداء دهشته وعجبه من حين لآخر. ثم قال بعد انتهاء الحكاية:

ـ جيد، يبدو أنني مقبل على الدخول في معترك الإرث مع الانتقام! بالطبع، سمعتُ قصةَ الكلب منذ كنتُ في الحضانة في عمر مبكر. إنها الحكاية اللطيفة التي تتناقلها العائلة دائمًا! ولم أفكر بأخذها على محمل الجد مطلقًا، لكن بالنسبة لموت عمي، يبدو كل شيء الآن يتشوش في رأسي، ولا أتمكن من توضيح الأمر لنفسي. فلا يمكنك تمامًا أن تتخذ قراراتك فيها، سواء أكانت قضيةَ رجل شرطة أم قضية رجل دين.

ـ بالضبط.

ـ والآن، لدينا الشأن الخاص بالرسالة الموجهة لي في الفندق. وأظن أن هذا يأتي في ما يلائمه من مسار القضية.

قال دكتور مورتمر:

ـ يبدو أن هنالك من يعرف أكثر منا، حول ما يجري على أرض المستنقع.

قال هولمز:

ـ أيضًا، إن ذلك الشخص عدائيٌ وليس متعاطفًا تجاهك، لأنه حذّرك من الخطر والأذى.

ـ أو ربما يرجون ـ من أجل مصالحهم الشخصية ـ أن يفزعونني لأهرب بعيدًا...

ـ ذلك ممكن أيضًا. أنا مدين لك كثيرًا، يا دكتور مورتمر، لإعلامي بتفاصيل المشكلة، التي تقترح بضعةَ أفكار بديلة مثيرة للاهتمام. لكن النقطة الحرجة التي علينا أن نقرر بشأنها يا سير هنري، هي: أيكون من الأفضل لك أن تذهب إلى باسكرفيل هول؟

ـ ولماذا لا أذهب؟

ـ يبدو أن الخطر يحدق بك.

ـ أتقصد أن الخطر من شيطان العائلة هذا أم من البشر؟

ـ ذلك ما نحاول اكتشافه.

ـ فليكن أي شيء! إن موقفي ثابت، ليس هنالك من شيطان في الجحيم، يا سيد هولمز، وليس هنالك من رجل على سطح الأرض، يستطيع منعي من الذهاب إلى بيت أسلافي، ويمكنك أن تتلقى قولي هذا قرارًا حاسمًا.

كان حاجباه قد انعقدا، واحتقن وجهه بلون أحمر قاتم مكفهر. من الواضح أن المزاج الناري من سلالة باسكرفيل، لم يكن منقرضًا في ممثلهم الأخير هذا! ثم قال أيضًا:

ـ في الوقت نفسه، لم يكن لدي الوقت الكافي للتفكير في كل ما أخبرتني به. إنه أمر كبير على الرجل، إذا وجب عليه أن يستوعبه ويفهمه، وأن يقرر قراره فيه في جلسة واحدة. أرغب في الحصول على ساعة كاملة أخلو لنفسي فيها لأفكر وأقرر. والآن، انظر هنا، يا سيد هولمز، إنها الحادية عشرة والنصف الآن، وأنا عائد نحو فندقي مباشرة. لعلك يا سيد هولمز، مع صديقك دكتور واتسن، تشرفونني بمجيئكم عند الساعة الثانية، وسوف أكون قادرًا على إخبارك في وضوح أكثر، عن أثر هذا الموضوع فيّ.

ـ أيلائمك ذلك التوقيتُ، يا واتسن؟

ـ بشكل مثالي.

ـ إذن، لكَ أن تنتظر مجيئنا عندك. أتريد أن أطلبَ لك عربة أجرة؟

ـ أنا أفضّل المشي، لأن هذا الشأن أصابني بالقلق والهم نوعًا ما!

فقال دكتور مورتمر:

ـ سأنضم إليك في مشيك، في كل سرور.

ـ إذن نلتقي عند الساعة الثانية، (إلى اللقاء)[٢٠] وصباح الخير!

سمعنا صوتَ خطوات زائرينا وهم ينزلون على السلم، ثم صوت إغلاق الباب. بعد ذلك في لحظة، تغير هولمز من الحالم فاتر الهمة إلى رجل الحركة!

ـ قبعتَكَ وحذاءكَ يا واتسن، أسرِع! يجب أن لا نضيع أي لحظة.

اندفع إلى داخل غرفته في ردائه، وعاد في ظرف ثوانٍ مرتديًا معطفه. أسرعنا معًا بالنزول، والخروج إلى الشارع. لم يبتعدا كثيرًا... كنا نرى دكتور مورتمر وهنري باسكرفيل، ضمن مائتي ياردة أمامنا باتجاه شارع أوكسفورد.

---

[٢٠] بالفرنسية (Au revoir).

ـ هل يجب أن أركض وأوقفهما؟

ـ لا، لا، يا عزيزي، إياك! أنا راضٍ تمامًا بصحبتي معك إذا تحملتَ ما عندي. أصدقاؤنا على حق، لأن من المؤكد أنه صباح جميل جدًا ليمشي الناس فيه.

أسرعَ في خطاه، حتى تمكنا من تقليل المسافة الفاصلة بيننا إلى النصف. ثم، مع إبقاء مائة ياردة تبعناهم داخل شارع أوكسفورد، ثم في شارع ريجينت. حالما توقف صديقانا أمام واجهة متجر لينظرا إلى المعروضات، فعل هولمز الأمر نفسه في التوقيت نفسه! بعد ذلك بوقت قصير، صاح صيحة بسيطة تنم عن الرضا، وبمتابعة اتجاه عينيه المتلهفتين، رأيت عربة أجرة من نوع هانسوم(٢١) على الجانب الآخر من الشارع وفيها رجل، وكانت في هذه اللحظة تزداد تقدمًا في بطء.

ـ ذلك هو رجلنا الذي نريد! تقدم، يا واتسن. سنحظى برؤيته جيدًا، إن لم نستطع فعلَ شيء آخر.

---

[٢١] نوع من العربات التي يجرها الحصان، صممها المعماري جوزيف هانسوم من مدينة يورك في ١٨٣٤. كان الغرض من اختراعها أن تجمع بين السرعة والأمان مع مركز ثقل واطئ من أجل الاستدارة الآمنة.



رجل ذو لحية سوداء كثيفة يجلس في عربة وهو يراقب.

في تلك اللحظة، كنت منتبهًا لهيئةٍ ذات لحية سوداء كثيفة، وعينين ثاقبتين، نظرتا باتجاهنا من النافذة الجانبية من عربة الأجرة. في عجلٍ فُتح باب العربة العلوي كأنما قد طار! ومن هنالك صرخ على السائق، فانطلقت العربةُ في جنون نحو عمق شارع ريجينت. نظر هولمز حوله في تلهف... يبحث عن عربة أجرة أخرى، لكن لم تكن هنالك واحدة فارغة!

فاندفع في مطاردة عمياء وسط تيار الزحام، لكن انطلاق تلك العربة كان سريعًا جدًا، إذ كانت قد غابت عن أنظارنا. قال هولمز في مرارة، عندما عاد لاهثًا ممتقعًا، غاضبًا على سيل زحام العربات:

ـ يا للضياع! هل هنالك اجتماع بين سوء الحظ وسوء التدبير كما حصل الآن؟ واتسن، يا واتسن، إذا كنتَ رجلا نزيهًا، إذن ستسجّل هذا أيضًا، وتضعه أمام شهرتي ونجاحاتي!

ـ من كان الرجل؟

ـ لا فكرةَ لدي...

ـ جاسوس؟

ـ كان واضحًا مما سمعناه، أن هنري باسكرفيل كان مُراقبًا بشخصٍ ما من كثب، منذ لحظة وصوله إلى لندن، وإلا فكيف يمكن لشخص آخر، أن يعرف أنه اختار النزول في فندق نورثمبرلاند؟ أنا أستنتج وأصرّ على هذا: إنهم إذا كانوا قد تتبعوه من أول يوم، فهم سيتبعونه أيضًا في اليوم التالي، ربما رأيتَ أنني مكثتُ عند النافذة مرتين، عندما كان دكتور مورتمر يقرأ قصته الأسطورية.

ـ نعم، أذكرُ ذلك.

ـ كنتُ أبحث عن أي مشردين أو متسكعين في الشارع، لكنني لم أرَ أي أحد. نحن نتعامل مع رجل حاذق، يا واتسن. هذا الأمر يغوص عميقًا جدًا، ورغم أنني لم أحسم أمري نهائيًا، في هوية القوة التي هي على تماسٍ معنا، أهي قوة خيّرة أم شريرة؟ فأنا مدرك ومهتم دائمًا بالقوة والتصميم فيها. عندما غادر أصدقاؤنا تبعتهم من فوري، على أمل أن أظفر برؤية تابعهم الخفي وأميز علامةً فيه. إنه ماكر مراوغ جدًا، إذ لم يكشف نفسه بالسير على قدميه، بدلًا من ذلك استعمل عربة أجرة ليتمكن من متابعتهم في توانٍ وسيطرة خلفهم، أو يندفع متجاوزًا إياهم فيهرب منهم كي لا يروه. طريقته هذه، منحته مزيةً إضافية، ذلك أنهم إذا استأجروا عربة فإنه سيكون جاهزًا قبل

ذلك لمتابعتهم، ولكن لذلك في أي حال سيئة واحدة في وضوح.

ـ إنه يضع نفسه تحت رحمة قائد العربة!

ـ بالضبط.

ـ ارتكبنا أمرًا يؤسف عليه بعدم تسجيل رقم العربة!

ـ ما زلتُ غير متقن! عزيزي واتسن، هل أنت جاد في تصورك، أنني أهملتُ الحصول على الرقم؟ هذا هو الرقم: (٢٧٠٤)، وهو خاص برجلنا، لكن ذلك لا ينفعنا في هذا الوقت.

ـ أنا أعجز عن رؤية ما يمكن أن تفعله أكثر من ذلك.

ـ كان يجب عليّ عند مراقبة العربة، أن أستدير وأمشي مسرعًا في الاتجاه الآخر، وبعد ذلك في مهلٍ أقوم باستئجار عربة أخرى، لألحق وأتابع الأولى ضمن مسافة جيدة، أو ـ وهو الأفضل من ذلك ـ أن أقود إلى فندق نورثمبرلاند وأنتظر هناك. عندما تبع رجلُنا الغامض هنري باسكرفيل حتى مسكنه، كان علينا أن نغتنم الفرصةَ للعب دوره نفسه في اللعبة، ونرى أين يقيم وماذا يدبّر. لكننا كما ترى ـ بالتلهف الطائش الذي استغله غريمنا بالسرعة الفائقة والقوة ـ خنّا أنفسنا وأضعنا رجلنا!

خلال تلك المحاورة، كنا نمشي الهوينى في شارع ريجينت، كان دكتور مورتمر وصاحبه قد اختفيا من أمامنا منذ وقت طويل. قال هولمز:

ـ لا فائدة الآن من الاستمرار في متابعتهم، فإن الرجل الغامض قد غادر ولن يعود. يجب علينا أن نرى ما تبقى بين أيدينا من أوراق رابحةٍ ونلعب بها في حسم. هل يمكنك أن تتعرف وتؤكد وجهَ ذلك الرجل الذي كان في العربة؟

ـ يمكنني تأكيد اللحية فقط.

ـ وكذلك أنا... أرى بكل الاحتمالات أنها لحية زائفة. رجل ذكي في مهمة دقيقة جدًا، لا يحتاج اللحية للإبقاء على تمويه ملامحه. هنا، يا واتسن.

دخلنا إلى واحد من مكاتب سعاة المنطقة، حيث استقبله المدير بترحاب شديد.

ـ أوه يا ويلسون، أرى أنك لم تنسَ القضية الصغيرة، التي أسعفني فيها الحظ الجيد لمساعدتك.

ـ لا يا سيدي، حقًا لم أنسَ. لقد حفظتَ عليّ سمعةَ اسمي الجيدة، وربما حياتي أيضًا.

ـ رفيقي العزيز، أنت تبالغ. أتذكّر، يا ويلسون، أن من رجالك فتى اسمه كارترايت، الذي أظهر بعض البراعة والقدرة خلال التحقيق.

ـ نعم، يا سيدي، إنه ما يزال يعمل هنا.

ـ هل يمكنك أن تناديه؟ أشكرك. سأكون مسرورًا إذا حوّلتم لي ورقة الخمسة الباوندات إلى عملات أصغر.

جاء فتى بوجه مشرقٍ متحمس في الرابعة عشرة، وقف أمامنا محدقًا بعظيم التبجيل بالمحقق المشهور. قال هولمز:

ـ أريد أن أرى دليلَ الفندق. شكرًا. والآن، يا كارترايت، هنالك أسماء ثلاثة وعشرين فندقًا هنا، كلها في الحي الحالي حي تشيرنغ كروس، هل تراها؟

ـ نعم سيدي.

ـ سوف تمرّ عليها كلها.

ـ نعم سيدي.

ـ تبدأ عند كل واحد منها، بإعطاء البوّاب الخارجي شلنًا واحدًا. إليك ثلاثة وعشرين شلنًا.

ـ نعم سيدي.

ـ ستقول: إنك تريد أن ترى نفايةَ الورق التي رُميت يوم أمس، وأنك تبحث عن برقية مهمة، قد حصل الخطأ في تسليمها إلى جهة أخرى. أتفهم قولي هذا؟

ـ نعم سيدي.

ـ لكن الذي ستبحث عنه في الحقيقة، هو الصفحة الداخلية المركزية من جريدة التايمز، ذات ثقوب حدثت فيها بوساطة القطع بالمقص. إليك نسخةً من الجريدة نفسها، وانظر

جيدًا، هذه هي الصفحة المطلوبة، يمكنك أن تميزها في سهولة، لن يصعب عليك هذا، صحيح؟

ـ لن يكون صعبًا، يا سيدي.

ـ في كل حال، سوف ينادي البواب الخارجي الحمّالَ من القاعة، وسوف تمنحه أيضًا شلنًا، هذه ثلاثة وعشرون شلنًا أُخر. وستعرف في احتمالية عشرين حالة من ثلاث وعشرين، أن نفاية اليوم السابق أُحرقت أو أُبعدت. وفي الحالات الثلاث الأخرى، سوف تُعرض أمامك كومةٌ من الورق، لتبحث بينها عن هذه الصفحة المطلوبة من جريدة التايمز. احتمالات عدم العثور عليها ستكون هائلة. هذه عشرة شلنات احتياطية للطوارئ. أنتظرُ منك تقريرًا عبر التلغراف، على عنوان شارع بيكر قبل المساء.

ـ الآن يا واتسن، فقط يبقى أمامنا أن نتعرف بوساطة التلغراف، إلى هوية سائق العربة ذات الرقم: (٢٧٠٤). وبعد ذلك سنتوقف عند معارض اللوحات في شارع بوند، ونقضي الوقت حتى يحين موعد الفندق.

٥ – ثلاثة خيوط مقطوعة!

يمتلك شارلوك هولمز ـ بمستوى مميز جدًا ـ القدرةَ على فصل عقله ساعة يشاء! إذ لساعتين كان النشاط الغريب الذي تورطنا فيه كأنه منسيٌ تمامًا! كان هولمز منجذبًا كليًا نحو لوحات الفنانين البلجيكيين المحدثين، وما كان ليتحدث عن أي شيء إلا الفن ـ الذي له فيه أفكار غير ناضجة ـ منذ مغادرتنا المعرض، حتى وجدنا أنفسنا عند فندق نورثمبرلاند.

قال موظف الفندق:

ـ السير هنري باسكرفيل في الأعلى، ينتظركم. لقد طلب مني أن آتي بكم حالًا حين قدومكم. فقال هولمز:

ـ ألديك أي اعتراض إذا ألقيتُ نظرةً على السجل؟

ـ لا، في الإطلاق.

أظهر السجلُ أن اثنين من الأسماء أُضيفا بعد اسم هنري باسكرفيل. الأول كان ثيوفيلوس جونسون مع العائلة من نيوكاسل، والآخر السيدة أولمور وخادمة، من هاي لوج ألتون. قال هولمز للموظف:

ـ من المؤكد أن جونسون هذا، يجب أن يكون هو جونسون نفسه الذي أعرفه منذ سنوات. إنه محامٍ، أليس كذلك؟ بشعر أشيب، ويمشي برجل عرجاء؟

ـ لا، يا سيدي، بل هذا سيد جونسون، تاجر الفحم. إنه جنتلمان نشيط جدًا، وليس أكبر منك.

ـ أنا متأكد أنك أخطأتَ في وصف تجارته، صحيح؟

ـ لا، سيدي! لقد اعتاد النزولَ في هذا الفندق لسنوات كثيرة، وهو معروف عندنا جيدًا.

ـ أها! هذا يؤكده. السيدة أولدمور أيضًا، يبدو لي أنني أتذكر الاسم أيضًا، اعذر لي فضولي، لكن يحدث كثيرًا عند تذكّر صديقٍ أن تجد الآخر في الذاكرة أيضًا...

ـ إنها امرأة عليلة وعاجزة، يا سيدي. كان زوجها في إحدى المرات عمدة غلوسيستر. وهي دائما تنزل في فندقنا عندما تكون في المدينة.

ـ شكرًا لك. أنا أخشى أنني لا أستطيع ادعاء معرفتها...

ثم انصرفنا عنه، وقال هولمز لي بصوت منخفض، عندما كنا نصعد على السلم معًا:

ـ نحن قد وضعنا أهم الحقائق من خلال هذه الأسئلة، يا واتسن، فنحن نعرف الآن أن الناس المهتمين جدًا بصديقنا لم ينزلوا في فندقه هذا. وهذا يعني، أنه بينما كانوا ـ بنحو ما

رأينا ـ قلقين جدًا من رؤيته، فإنهم في المقدار نفسه قلقون من أنه يجب أن لا يراهم أيضًا. والان، هذه هي الحقيقة الموحية الأفضل.

ـ وما الذي توحي به هذه الحقيقة؟

ـ إنها توحي بـ... مرحى! رفيقي العزيز. ماذا حدث؟ ما الذي يشغلك في هذا العالم؟

عندما استدرنا على قمة السلّم، واجهنا السير هنري باسكرفيل. كان وجهه محتقنًا بالغضب، وممسكًا بفردة حذاء قديم ومغبر بين يديه. كان غاضبًا جدًا حتى إنه لم يتكلم في وضوح، وعندما تكلم حقًا كان يتحدث بلهجة الغرب، أكثر مما سمعناه منه عند الصبح. صاح:

ـ يبدو لي أنهم يتلاعبون بي كالمغفل في هذا الفندق! سيعرفون أنهم بدؤوا بالسخرية والعبث مع الرجل الخطأ ما لم يكونوا حذرين. بحق الرب! إن لم يستطع ذلك الفتى العثور على حذائي المفقود ستحدث لهم مشاكل. أنا أحب المزاح، يا سيد هولمز، ولكنهم تجاوزوا الحد هذه المرة!

ـ بحثك مستمر عن حذائك؟

ـ نعم، سيدي، ومصرٌ على أن أجدها.

ـ لكن من المؤكد أنك قلتَ إنها كانت حذاء بنيًا جديدًا، صحيح؟

ـ نعم، يا سيدي. أما الآن فهي حذائي السوداء القديمة!

ـ ماذا! أنتَ لا تعني أن تقول...

ـ ذلك تحديدًا ما أعني فعلًا قوله. كان لدي فقط ثلاثة أحذية في الدنيا، البني الجديد، والأسود القديم، والجلدي الجميل، الذي أرتديه الآن. في الليلة الماضية أخذوا فردة من البني، واليوم اختلسوا واحدة من الأسود! حسنٌ، هل وجدتَها؟ تكلم يا رجل، ولا تقف محدقًا...

صاح بوجه نادلٍ ألماني منفعل وقلق، اقتربَ من مشهدنا هذا.

ـ لا، يا سيدي. لقد بحثتُ وسألتُ في كل أرجاء الفندق، ولم أحصل على شيء!

ـ حسنٌ، إما أن تعود تلك الحذاءُ قبل غروب الشمس، أو أقابل المدير وأخبره بأنني عازمٌ على مغادرة الفندق.

ـ سوف نجدها يا سيدي، أنا أعدك بذلك، فقط لو أنك تتحلى بقليل من الصبر... سيُعثر عليها.

ـ ضع هذا في الاعتبار، لأنه الأمر الأخير عندي الذي أفقده في وكر اللصوص هذا!

طيب، طيب، يا سيد هولمز، ستسامحني على ما أحدثتُه لكم من مشكلة حول هذه التوافه...

ـ أنا أعتقد أنها مشكلة تستحق الاهتمام.

ـ لماذا تنظر في جدية كبيرة إلى هذا الأمر؟

ـ ما تفسيرك لهذا الأمر؟

ـ أنا لا أحاول تفسيرَ الأمر، يبدو أنه الأمر الأكثر جنونًا وشذوذًا الذي حصل لي قط!

قال هولمز مفكرًا:

ـ الأكثر شذوذًا ربما...

ـ ما الذي استنتجتَه منه؟

ـ حسنٌ، لن أدّعي أنني فهمتُ كل ما يحدث، فقضيتك هذه معقدة جدًا، يا سير هنري. عندما نضع في الاعتبار ربطَ الأمر مع وفاة عمك، فأنا لست متأكدًا. عملتُ على خمسمائة قضية كبيرة الأهمية، ولم تكن واحدة منها تغوص عميقًا جدًا كهذه. لكننا نمسك بأيدينا

بضعة خيوط، واحدٌ منها أو آخر يقودنا نحو الحقيقة. ربما أننا نضيّع الوقتَ في متابعة الخيط المضلّل، لكن عاجلًا أو آجلًا يجب أن نعثر على الاتجاه الصحيح.

بعد ذلك تناولنا غداءً في لطف وراحة، ولم نتطرق إلا قليلًا للقضية التي جمعتنا معًا. ثم اجتمعنا في غرفة الجلوس الخاصة، وسأل هولمز هنري باسكرفيل عن مقاصده وأفكاره، فقال:

ـ سأذهب إلى باسكرفيل هول.

ـ ومتى ذلك؟

ـ عند نهاية الأسبوع.

ـ في الإجمال، أعتقد أنه قرار حكيم. لدي دليل جيد على أنك كنتَ مراقَبًا في لندن. وضمن ملايين الناس من سكان هذه المدينة الكبيرة، يصعب اكتشاف مَن هؤلاء الناس أو ما هدفهم من ذلك. فإن كانت نواياهم شريرة فمن المحتمل أنهم يؤذونك، بذلك سنكون بلا حول ولا قوة لنمنعهم من ذلك. أنت لم تكن تعلم، يا دكتور مورتمر، أنكما كنتما تحت المراقبة هذا الصباح منذ خروجكما من بيتي، أليس كذلك؟

فبدأ دكتور مورتمر في هياج:

ـ متابَعون! وممن؟

ـ لسوء الحظ لا أعرف. ألديك من بين الأقارب أو الأصدقاء في دارتمور، أي رجل له مظهر بلحية سوداء كثيفة؟

ـ لا... أو ـ دعني أرَ ـ لماذا؟ نعم... إنه باريمور، كبير خدم السير تشارلز، إنه رجل ذو لحية سوداء كبيرة.

ـ ها! وأين باريمور هذا؟

ـ إنه المسؤول عن الفيلا.

ـ سنحصل على أفضل ما يثبت الآن مكانَ وجوده هنا أو في لندن.

ـ وكيف ستفعل ذلك؟

ـ ناولني أنموذج برقية تلغراف، واكتب: «أكلّ شيءٍ جاهز لاستقبال السير هنري؟» ذلك سوف يؤدي الغرض. وجّه البرقيةَ إلى السيد باريمور/ باسكرفيل هول. أين أقرب مكتب تلغراف هنالك؟ غرمبين، جيد جدًا. سنرسلُ برقيةً أخرى إلى مدير البريد/ غرمبين: «البرقية إلى السيد باريمور، تُسلّم له يدًا بيد. في حال غيابه تُرجى إعادتها إلى السير هنري

باسكرفيل/ فندق نورثمبرلاند». هذا ما سيجعلنا نعرف قبل المساء، سواء أكان باريمور في ديفونشاير أم لا.

قال هنري باسكرفيل:

ـ هكذا إذن... للمناسبة يا دكتور مورتمر، من يكون باريمور هذا؟

ـ إنه ابن كبير خدم الدار القديم الذي مات... لقد تعاهدوا الفيلا بالعناية والرعاية لأربعة أجيال حتى الآن على حد علمي. هو وزوجته ثنائيٌ محترم كأي زوجين اثنين في البلد.

قال باسكرفيل:

ـ في الوقت نفسه، من الواضح جدًا أنه منذ وقت طويل ـ حيث لم يكن هنالك أحد من العائلة في الفيلا ـ كان لهؤلاء الناس بيت جيد يؤمن عيشَهم ولا شيء يفعلوه!

ـ هذا صحيح.

سأل هولمز:

ـ هل حصل باريمور على أي شيء في وصية السير تشارلز؟

ـ خمسمائة باوند له وأخرى مثلها لزوجته.

ـ ها! أيعلمان أنهما كانا سيحصلان على ذلك؟

ـ نعم، كان السير تشارلز مولعًا بالكلام على مخصصات وصيته.

ـ ذلك مثير للاهتمام جدًا.

قال دكتور مورتمر:

ـ أنا آمل أنك لا تنظر في ريبةٍ إلى كل من تلقّى إرثًا من السير تشارلز، لأنني أيضًا حصلتُ على ألف باوند خاصة بي!

ـ حقًا! ومَن أيضًا؟

ـ هنالك كثير من الهبات لبعض الأفراد، لكنها ليست مبالغَ مالية ضخمة، وكذلك لعدد كبير من الجمعيات الخيرية العامة، والبقية كلها إلى السير هنري.

ـ كم يبلغ مقدار بقيةِ الإرث؟

ـ ٧٤٠ ألف باوند.

فرفع هولمز حاجبيه دهشةً، وقال:

ـ لم يكن لدي تصور عن هذا المبلغ العملاق المتورط في هذه القضية!

ـ كانت للسير تشارلز سمعة الأغنياء وشهرتهم، لكننا لم نعرف كم تبلغ ثروته، حتى حلّ الوقت الذي أحصينا فيه أصول ثروته الخفية عبر أوراقه المالية. إجمالًا: تبلغ قيمة ملكيته ما يصل إلى المليون!

ـ يا عزيزي! إنها حصةٌ من أجلها يغامر الرجل بالتورط في لعبة يائسة. جيد، لدي سؤال آخر، يا دكتور مورتمر، لو افترضنا حصولَ أي حادث على صديقنا الشاب هنا ـ واغفر لي الافتراضَ غير السار ـ فمن سيرثُ العقار؟

ـ بما أن روجر باسكرفيل ـ وهو الأخ الأصغر للسير تشارلز ـ قد توفي وهو غير متزوج، فسينتقل الإرث إلى آل ديزموند، وهم من أبناء العمومة البعيدين. جيمس ديزموند رجل دين مسنٌ في ويستمورلاند.

ـ شكرًا لك. هذه التفاصيل على مقدار عظيم من الفائدة. هل التقيتَ السيد جيمس ديزموند قط؟

ـ نعم، جاء مرة لزيارة السير تشارلز، إنه رجل ذو مظهر وقور مهيب يشبه القديسين. أذكرُ أنه رفض تلقي أي هبةٍ من السير تشارلز، على الرغم من أنه ألح عليه!

ـ وهذا الرجل ذو المظهر الزاهد، قد يكون وريثَ الالاف من السير تشارلز؟

ـ قد يكون وريثَ العقار بالتبع، أو يرث الأموال إذا لم يقم المالك الحالي بتلقيها، الذي ـ بخلاف ذلك ـ يستطيع طبعًا أن يفعل ما يشاء بها.

ـ وهل تلقيتَ الإرث والتوصية يا سير هنري؟

ـ لا يا سيد هولمز، لما أفعل ذلك. فلم أملك الوقت، لأنني لم أدرك ما يحصل وأهميته إلا يوم أمس. ولكن في أي حال، أنا أشعر أن المال يجب أن يقترن مع اللقب والعقار، فهذه كانت فكرة عمي المسكين. فمن المالك الذي سيقوم باستعادة أمجاد باسكرفيل، إن لم يكن لديه المال الكافي ليستمر بالحفاظ على العقار؟ فيلا، وأرض، ودولارات يجب أن تكون معًا...

ـ بالضبط. حسنٌ، يا سير هنري، أنا اتفق معك على صحة ذهابك إلى ديفونشاير بلا تأخير. ويجب عليّ أن أعدّ احتياطًا واحدًا، وهو أنك يجب أن لا تذهب وحدكَ.

ـ دكتور مورتمر يعود معي.

ـ لكن دكتور مورتمر لديه انشغالاته الطبية التي يعود إليها، وبيته يقع على بعد أميال من بيتك. فمع كل حسن النية في العالم، ربما لن يكون قادرًا على مساعدتك. إذن، يجب أن تأخذ معك شخصًا ما، شخصًا معتمدًا، يكون دائمًا إلى جانبك.

ـ أليس من الممكن أن تكون أنتَ الذي تأتي، يا سيد هولمز؟

ـ إذا ساءتِ الأمور ودخلتْ في أزمة، فيجب عليّ السعي لأكون موجودًا بالفعل! ولكن يمكنك أن تدرك، أن ـ بسبب ما لدي من أعمال، وخبرتي الاستشارية واسعة النطاق، والمطالبات والاستغاثات التي تصل إليّ من كل مكان ـ من المستحيل عليّ أن أغيب عن لندن، ولوقت غير محدد أصلًا. في هذه اللحظة بالذات، هنالك واحد من الأسماء الراقية جدًا، قد تلطخت سمعتُه بسبب أحد المبتزين، وأنا الوحيد الذي يمكنه أنه يكبح وقوع هذه الفضيحةَ الكارثية. هكذا، سترى وتعلم كم من المستحيل عليّ أن أذهب إلى دارتمور.

ـ إذن، فمن ترشّح للذهاب معي؟

وضع هولمز يده على ذراعي:

ـ إذا شاء صديقي أن يتولى هذه المهمة، فلا يكون هنالك رجل أفضل منه يستحق الوقوفَ إلى جانبك عند الشدائد، ولا أحد يمكنه أن يقول هذا في ثقة كبيرة أكثر منّي.

فاجأني هذا الاقتراح والترشيح كليًا! ولكن قبل أن يكون لدي وقت للإجابة، أمسك السير باسكرفيل بيدي وعصرها وهزها في امتنان شديد:

ـ رائع! الآن يا دكتور واتسن، هذا كرمٌ بالغ منك. وأنت ترى كيف يكون ذلك معي، وتعلم تمامًا عن الأمر بقدر ما أعرف، فإن أتيتَ معي إلى باسكرفيل هول وكنتُ على عينكَ فلن أنسى لك ذلك.

لطالما استحوذ عليَ سحر المغامرات الموعودة، ولقد مدحني هولمز بكلماته، ولهفة هذا البارون الذي أشاد بي رفيقًا له، فقلت:

ـ سأذهب وفي كل سرور. أنا لا أعرف كيف يمكنني قضاء وقتي أفضل من ذلك.

قال هولمز:

ـ وسوف ترسلُ لي التقاريرَ المفصلة بكل عناية. وعند حصول أزمة ما ـ وهذا ما سيحصل ـ سأوجّهك بكيفية التصرّف المناسب. أفترضُ أن في يوم السبت سيكون كل شيء جاهزًا، فما رأيك؟

ـ أيكون ذلك ملائمًا للدكتور واتسن؟

ـ إنه مثاليٌ.

ـ إذن، يوم السبت، ما لم تسمع خلافَ ذلك. سنلتقي عند بادنكتون، لنسافر بقطار الساعة ١٠:٣٠.

كنا قد نهضنا لنغادر، وعند ذاك صاح باسكرفيل في زهو النصر! واتجه نحو واحدة من زوايا الغرفة، ثم سحب حذاءً بنيًا من تحت الخزانة:

ـ انظروا... إنه حذائي البني!

قال هولمز:

ـ نرجو أن تزولَ كل مصاعبنا في يسر كهذا الأمر!

قال دكتور مورتمر ملاحظًا:

ـ لكنه أمرٌ فريد! لأنني فتشتُ الغرفة كلها بتدقيق قبل الغداء!

قال باسكرفيل:

ـ وأنا فعلت الأمرَ نفسه... كلّ شبر من الغرفة.

ـ من المؤكد أنه لم يكن هنالك أي حذاء حينذاك.

ـ في هذا الحال، لا بد أن النادلَ قد وضعها هناك عندما كنا نتناول الغداء.

كلّمنا النادلَ الألماني، لكنه قال إنه لا يعرف شيئًا عن الأمر. ولم يفلح أي تحقيق في استيضاح ما جرى! إنه أمر آخر قد أُضيف إلى ما يحصل، هذا على ما يبدو سلسلة من الألغاز الصغيرة بلا هدف، وقد تتابعت واحدًا بعد الآخر في سرعة. بالإضافة إلى كل تفاصيل قصة موت السير تشارلز المحزنة، واجهتنا سلسلةٌ من الحوادث غير القابلة للتعليل كلها في ظرف يومين: تسلمُ رسالةٍ بكلمات مطبوعة، والجاسوس ذو اللحية السوداء في العربة، وفقدان الحذاء البني الجديد، وفقدان الحذاء الأسود القديم، والآن، عودة ذلك الحذاء البني الجديد!

بعد أن غادرنا، جلس هولمز في العربة المتجهة نحو شارع بيكر صامتًا، وأدركتُ من حاجبيه المرفوعين ووجهه الحاد، أن عقله ـ كعقلي تمامًا ـ كان يحاول ويجهد نفسه في رسم مخطط، حيث كل تلك الحلقات الغريبة وغير المترابطة تمامًا، يجب أن تتناسق ضمن إطار منسجم. وهكذا، أمضى الظهيرةَ حتى وقت متأخر في المساء بالتدخين والتفكير...

قبيل العشاء وصلت برقيتان باليد لنا. كانت الأولى: «لقد عرفتُ قبل قليل أن باريمور موجود في الفيلا». باسكرفيل. والثانية: «زرتُ ثلاثة وعشرين فندقًا وفاقا للتوجيهات، لكن يؤسفني أن أبلغكم أنني لم أجد أثرًا لقصاصات جريدة التايمز». كارترايت.

قال هولمز:

ـ هنالك تنقطع اثنان من خيوطي، يا واتسن. ليس هنالك أمر أكثر تحفيزًا من قضية كل شيء فيها يسير ضدك! علينا أن نقوم بمحاولة أخرى للحصول على خيط جديد.

ـ ما يزال لدينا سائق العربة الذي نقل الجاسوس.

ـ بالضبط. لقد أبرقتُ للحصول على اسمه وعنوانه من مكتب التسجيل. يجب عليّ أن لا أكون متفاجئًا إذا كان هذا جوابًا على طلبي.

في اللحظة نفسها رنّ الجرس! لكن رنينه أخبرنا بأمر أكثر إرضاءً لنا من جواب. في أي حال، عندما فُتح الباب، دخل رجل قاسي المظهر، كان واضحًا أنه هو الرجل المطلوب. بادَرنا بالقول:

ـ لقد تلقيتُ رسالةً من المركز، تفيد أن عميلًا جنتلمانًا عند هذا العنوان، يستفسر عن الرقم (٢٧٠٤). لقد كنتُ وما أزال، أقود هذه العربةَ منذ سبع سنوات، ولم أسمع كلمة شكوى. ها أنذا أتيت مباشرة من الساح، لأسألك وجهًا لوجه عما يكون لديك ضدي؟

ـ ليس لدي شيء في العالم كله ضدك يا رفيقي الجيد. ولكن من جانب آخر، لدي من أجلك نصف سفرن([٢٢]) فقط إذا أجبتَ في وضوح عن أسئلتي.

فابتسمَ:

ـ حسنٌ، لقد مررتُ في يوم طيب، ولم يحصل خطأ. فما الذي تريد أن تسألَ عنه، يا سيدي؟

ـ قبل كل شيء، أريد أن أعرف اسمك وعنوانكَ، إذ ربما أحتاج إليكَ مرة أخرى.

ـ جون كلايتون/ ٣ شارع تيربي/ البلدة. عربتي خارج ساحة شبلي، قرب محطة واترلو.

فدوّن هولمز ذلك.

ـ والآن يا كلايتون، أخبرني كلّ شيء عن الشخص الذي استأجر عربتك، وجاء إلى هنا وراقب البيت، عند الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم، وبعد ذلك تبع رجلين جنتلمانين في شارع ريجينت.

---

[٢٢] (sovereign) عملة ذهبية في المملكة المتحدة، تساوي قيمتها باوندا واحدًا، وخرجت عن التداول بعد عام ١٩١٤.

فنظر السائق مندهشًا! وأصابه شيءٌ من الخجل والإحراج:

- لماذا؟ لا ينفع ذلك بشيء إن أخبرتك حول الأمور، لأنك كما يبدو تعرف بقدر معرفتي أصلًا. الحقيقة أن ذلك الجنتلمان قد أخبرني أنه محقق، وأوصاني أن لا أقول شيئًا لأي أحد.

- يا رفيقي العزيز، هذا شأن خطر ومهم جدًا، ولربما تجد نفسك في ظرف سيء جدًا، إذا حاولت إخفاء أي شيء عني. لقد قلتَ إنه كان محققًا؟

- نعم، لقد قال ذلك.

- متى أخبرك بذلك؟

- ذلك عندما تركني.

- هل قال شيئًا آخر؟

- لقد ذكر لي اسمَه.

ألقى هولمز نظرة نصرٍ سريعة عليّ، وقال:

- ها! لقد ذكر اسمه، أليس كذلك؟ كان ذلك تهورًا وطيشًا! ما الاسم الذي ذكرَه؟

ـ اسمه... كان السيد شارلوك هولمز.

لم أرَ صديقي يُفاجأ قط، أكثر من هذا الموقف بجواب سائق العربة. للحظةٍ جمد في دهشة صامتة... ثم انفجر في ضحكة مجلجلة من أعماق القلب:

ـ إنها لمسة! يا واتسن، لمسة محترفة لا يمكن إنكارها. أنا أشعر بوجود ندٍ لي يتصف بالذكاء ودقة التصرف مثلي! لقد جاء إلى بيتي في كل سهولة في ذلك الوقت. إذن، فإن اسمه كان شارلوك هولمز، صحيح؟

ـ نعم، سيدي، ذلك كان اسم الجنتلمان.

ـ ممتاز! أخبرني أين كان عندما استأجر عربتك، وحدث كل ذلك؟

ـ ناداني عند التاسعة والنصف عندما كنتُ في ساحة الطرف الأغر. وقال لي إنه محقق، وعرض عليّ جنيهين، إذا كنتُ مستعدًا لفعل ما يطلبه منّي بالضبط خلال اليوم كله، وعدم توجيه أي سؤال. كنتُ مسرورًا لذلك بما فيه الكفاية. أول شيء فعلناه، أننا ذهبنا إلى فندق نورثمبلاند، وانتظرنا هنالك حتى خرج رجلان جنتلمانان واستأجرا عربةً من الصف، تبعنا عربتهم حتى توقفت في مكان قريبٍ من هنا.

ـ عند هذه الباب بالضبط.

ـ حسنٌ. لم أكن متأكدا تمامًا من ذلك، لكنني أجرؤ على القول أن مستأجري عرف كل ما حولها. توقفنا في المنتصف من ذلك الشارع، وانتظرنا لما يقرب من ساعة ونصف، ثم اجتاز بنا الرجلان ماشيين، فتبعناهم في شارع بيكر، ثم على طول...

ـ أعرف ذلك.

ـ حتى قطعنا ثلاثة أرباع شارع ريجينت، ثم فجأة فتح مستأجري البابَ العلوي، وصاح عليّ للانطلاق إلى الأمام نحو محطة واترلو بأقصى ما يمكنني! فأجهدت نفسي بضرب السوط على ظهر الحصان، فوصلنا إلى هناك في أقل من عشر دقائق. دفع لي الجنيهين، مثل أي رجل طيب، ثم مشى في زحام المحطة. لكنه بعد خطوات استدار باتجاهي، وقال: «ربما يكون من المثير والمهم لك أن تعرف، أنك كنتَ طول هذا اليوم تنقل في عربتك السيدَ شارلوك هولمز»، وهكذا عرفتُ الاسم.

ـ أفهمُ ذلك. ولم ترَ منه المزيدَ؟

ـ ليس بعد أن ذهب ليدخل في المحطة.

ـ وهل يمكنك الآن أن تصف لي السيد شارلوك هولمز ذاك؟

فحكّ سائق العربة رأسه، وقال:

ـ حسنٌ، لم يكن بهيئة جنتلمان كافية لكي يُوصف في سهولة، يمكن لي أن أقدّر عمره في الأربعين، وبطول متوسط، أقصر منك يا سيدي، بنحو بوصة أو اثنتين، وكان يرتدي ملابسه في هيئة الأثرياء، وله لحية سوداء ذات شكل مربع. ووجهه شاحب، ولا أعرف ما يمكنني قوله أكثر من ذلك.

ـ وماذا عن لون عينيه.

ـ لا، لا أعرف.

ـ هل من شيء آخر يمكن أن تتذكره؟

ـ لا يا سيدي... لا شيء.

ـ حسنٌ إذن، إليك نصفَ الجنيه. وينتظرك نصف آخر إذا استطعتَ أن تجلب لي مزيدًا من المعلومات. طاب مساؤك.

ـ طاب مساؤك، سيدي وشكرا لك.

غادر جون كلايتون مقهقهًا من السرور والطرب. واستدار هولمز نحوي هازًا كتفيه في استهجان مع ابتسامة كئيبة:

ـ فجأة يذهب الخيط الثالث سدى، وها نحن ننتهي إلى حيث بدأنا. الوغد الماكر! لقد عرف رقمنا، وعرف أن السير هنري باسكرفيل قد استشارني، واكتشف أنني كنتُ في شارع ريجينت، وحزر أنني سأحصل على الرقم الخاص بالعربة، وأنني سأعرف السائق، ولهذا أرسل لي هذه الرسالة الجسورة. أقول لك يا واتسن، لدينا في هذا الوقت رجل عدو يستحق أن نواجهه بعزمنا وصلابتنا. لقد هُزمتُ في لندن، وليس لدي الآن إلا أن أرجو لك حظًا أفضل في ديفونشاير، ولكن بتصوري ليس سهلًا...

ـ وما ذاك؟

ـ أقصد إرسالكَ. إنه عمل مؤذ، يا واتسن، عمل فظيع وخطر، كلما شهدتُ منه كثيرًا قلّ حبي له. نعم يا صاحبي العزيز، ربما تضحك، لكنني أصدقك القولَ، سأكون مسرورًا جدًا لعودتك آمنًا، وأراك هنا في شارع بيكر مرةً أخرى.

٦ – فيلا باسكرفيل

كان السير هنري باسكرفيل ودكتور مورتمر على استعدادٍ في اليوم المحدد. انطلقنا نحو ديفونشاير وفاقًا لما رتبناه. صحبني شارلوك هولمز إلى المحطة، وأخبرني عند الفراق بالأوامر والنصائح:

ـ لن أشوّش عقلك بالنظريات والمقترحات والشكوك يا واتسن، أنا أرجو منك في كل بساطة أن ترسلَ لي التقارير حول الوقائع، بطريقة متكاملة قدر الإمكان، وبهذا يمكنك أن تترك لي دورَ رسم النظريات.

ـ أي نوع من الوقائع؟

ـ أي أمرٍ ربما يبدو لك أنه يحمل معاني مهمة، حتى لو كان غير ذي صلةٍ مباشرة بالقضية، ولا سيما العلاقات بين باسكرفيل الشاب وجيرانه، أو أي تفاصيل جديدة خاصة بموت السير تشارلز. في الأيام القليلة الماضية أنجزتُ بنفسي بعض التحقيقات، لكنها كانت سلبية النتيجة، إلا أمرًا واحدًا ظهر كأنه مؤكد، وهو أن السيد جيمس ديزموند ـ وهو الوريث التالي ـ جنتلمان مسنٌ لين العريكة، لذا فإن ما جرى من سلوك شديد من ذلك الشخص المجهول لا يرقى لمستوى شخصيته. حقًا أفكر في أننا ربما نستبعده تمامًا من حساباتنا، ويبقى لدينا الجيران الذين يحيطون بمسكن السير هنري تشارلز على أرض المستنقع.

ـ ألن يكون من الأفضل في المقام الأول، أن نتخلص من هذين الزوجين باريمور؟

ـ لا، مطلقًا. لا يمكنك أن ترتكب خطأ أعظم من هذا، فإن كانوا أبرياء فسيكون عملك ظلمًا مبينًا، وإن كانوا مذنبين فعلينا أن نستنفد ونبذل قصارى جهدنا، لمنعهم من أن يكون البيت لهم. لا، لا... سوف نجعلهم على لائحة المشبوهين، ونرى بعد ذلك ما يحصل. لدينا أيضًا السائس في الفيلا إن كنتُ أتذكر ذلك جيدًا، ومزارعان على أرض المستنقع، وصديقنا دكتور مورتمر الذي أجزم أنه بريء بالكامل، وزوجته التي لا نعرف عنها شيئًا، وذلك العالم الطبيعي ستابلتون وأخته، التي قيل إنها سيدة شابة مثيرة! والسيد فرانكلاند صاحب فيلا لافتر، وهو عنصر مجهول، وهنالك جار أو جاران آخران. أولئك هم الناس الذين يجب أن يكونوا محلّ دراستك الخاصة.

ـ سأفعل ما بوسعي.

ـ لديك سلاح على ما أظن؟

ـ نعم، لقد فكرتُ أن من الأفضل أن آخذ سلاحي معي.

ـ بكل تأكيد. ابقِ مسدسك قريبًا منك ليلًا ونهارًا، وإياك أن يتراجع حذرُك وانتباهك!

كان أصدقاؤنا قد حجزوا لنا عربةً في الدرجة الأولى، وكانوا ينتظروننا على المنصة. قال دكتور مورتمر جوابًا عن أسئلة هولمز:

ـ لا، ليس لدينا أخبار حول أي شيء. وأنا أقسم على شيء واحد، وهو أنه في اليومين الماضيين لم يتبعنا أحد قط، إذ لم نخرج ولم نسر إلا ونحن ننظر يمينا وشمالًا! فلم ينجُ أحدٌ حولنا من إنعام النظر فيه!

ـ بقيتما معًا دائمًا... أفترض ذلك، صحيح؟

ـ باستثناء ما بعد ظهر الأمس. من عادتي أن أمنح يومًا للتسلية المحضة حينما أكون في المدينة، لذا فإنني قضيتُ ذلك الوقت وحدي في متحف كلية الجراحين.

قال باسكرفيل:

ـ أما أنا فقد ذهبتُ إلى التفرج على الناس في المتنزه، ولم تحدث لنا أية مشكلة من أي نوع.

قال هولمز هازًا رأسه وفي نظرة خطرة:

ـ لقد كان ذلك تهورًا وبغير حكمة... موقفان متشابهان! أتوسل إليك يا سير هنري، أن لا تتجول منفردًا. إن قليلًا من سوء الحظ المؤثر، سوف يصيبك ويوقع بك إذا كنتَ وحدك. هل عثرتَ على حذائك الآخر؟

ـ لا، يا سيدي، لقد ضاعت إلى الأبد!

ـ حقًا إن ذلك مثير جدًا! حسنٌ وداعًا.

عندما بدأ القطار ينسل من المحطة، أضاف:

ـ يا سير هنري، إياك ثم إياك أن تنسى... واحدةً من العبارات التي وردت في الأسطورة الغريبة القديمة، التي قرأها دكتور مورتمر علينا: «تجنّب المستنقعَ في تلك الساعات المظلمة، حين تكون قوى الشر مستيقظة»!

اندفع القطار، ونظرتُ خلفي نحو المنصة التي تركناها بعيدا وراءنا، فرأيت جسمَ هولمز الطويل القاسي يقف بلا حراك يحدق فينا... كانت رحلتنا سريعة وهانئة، وقد قضيتها في جعل التعارف مع رفيقيّ أكثر حميمية، وفي ملاعبة كلب دكتور مورتمر من نوع سبانيل.

بعد مرور بضع ساعات، تحول لون الأرض من البني إلى المحمر، وتغير الطابوق إلى حجر الغرانيت، وكانت الأبقار ترعى في حقول مسيجة في اعتناء، حيث الحشائش الخضر الوافرة، والمزروعات الفاخرة تنطق بغنى المناخ وإن كان كئيبًا مثبطًا! كان باسكرفيل الشاب يحدق في لهفة من النافذة، وصاح مسرورًا عندما وقعت عيناه على بعض الملامح المألوفة لديه، من مشاهد ديفون:

ـ لقد كنتُ في سفري أعيش في بقعة جيدة من العالم منذ مغادرتي، يا دكتور واتسن، لكنني لم أرَ مكانًا يفضل مكاني الأول هذا.

فقلت:

ـ لم أرَ رجلًا من سكنة ديفونشاير وإلا وكان يقسم ببلدته!

فقال دكتور مورتمر:

ـ وهذا يعتمد أيضًا، على حسب الرجل ونسبه تمامًا كما على المقاطعة. إن لمحةً سريعة على هيئة صديقنا هنا، تكشف رأس سلالة السلتيين المدور(٢٣)، التي تحمل في داخلها الحماس والاندفاع السلتي وشدة التعلق. إن رأس الراحل المسكين السير تشارلز

---

٢٣ (Celts) مجموعة كبيرة من القبائل القوقازية في أوروبا. ظهورهم الأول كان في بداية ١٢٠٠ قبل الميلاد، في النمسا.

كان من النوع النادر: نصف غيلي، ونصف ايفرنياني(٢٤)، في سماته المميزة. لكنك كنتَ حدثا جدًا حين رأيتَ فيلا باسكرفيل آخر مرة، ألم تكن كذلك؟

ـ كنتُ ولدًا في عمر المراهقة عند وفاة أبي، ولم أر الفيلا مطلقًا، لأن أبي عاش في كوخ صغير على الساحل الجنوبي. من ذلك المكان، انطلقت مباشرة نحو الأراضي الأمريكية، حيث يقيم صديق لي. وأخبرك الآن: أن الأمر جديد كليًا بالنسبة لي كما هو لدكتور واتسن، وأنا متحفز جدًا لرؤية أرض المستنقع.

قال دكتور مورتمر:

ـ هل أنت كذلك فعلًا؟ إذن أمنيتك حُققت في سهولة، لأن ما تراه هناك هو المنظر الأول لك من أرض المستنقع، وأشار خارج نافذة عربة القطار.

فوق مربعات الحقول الخضر، والقوس المنخفض للغابة، هنالك ينهض على بعدٍ التلُ الرمادي الكئيب، بقمته المسننة الغريبة وهي قاتمة وغامضة من بعيد، مثل قطعة أرض عجيبة في الأحلام! جلس باسكرفيل وقتًا طويلًا، وكانت عيناه مثبتتين على المنظر، وقرأتُ على وجهه المتشوق عظيمَ مقدار ما يعنيه ذلك له. هذا هو المشهد الأول من تلك البقعة

---

[٢٤] (Gaelic) منسوب إلى بعض قبائل السلتيين ولغاتهم في أسكوتلاند خاصة. (Iverni) من شعوب آيرلندا الأولى.

الغريبة، حيث الرجال من سلالته ودمائه، أقاموا سطوتهم منذ وقت طويل، وتركوا آثارهم وعلاماتهم الراسخة. هنالك جلس، ببذلته الصوفية، ولكنته الأمريكية، في زاوية عربة قطار بروزايك.

حتى عندما نظرت إلى وجهه القاتم والمعبّر، شعرتُ أكثر من قبل كم يبدو حقيقيًا، أنه كان منحدرًا من ذلك الخط الطويل، للرجال ذوي الدماء الشريفة، والطبع الناري، والحذق. هنالك كان الكبرياء، والبسالة، والقوة في حاجبيه الكثيفين، ومنخريه الحساسين، وعينيه الكستنائيتين الواسعتين. إن كان هنالك على المستنقع المحرم، بحثٌ صعب ومحفوف بالمخاطر يقبع أمامنا، فإن هذا الرجل كان في الأقل رفيقًا لمن قد يغامر، مع اليقين بأنه سيشاركه إياها بكل شجاعة.

توقف القطار عند محطة جانبية صغيرة ونزلنا كلنا. في الخارج، كانت هنالك خلف السياج الأبيض المنخفض، تنتظر عربةٌ بزوج من الأحصنة. من الواضح أن قدومنا كان حدثًا كبيرًا، لأنني رأيت مدير المحطة والحمالين، قد تجمعوا حولنا ليهتموا بشؤوننا ويحملوا أمتعتنا. كانت بلدة لطيفة وبسيطة، لكنني دُهشت إذ رأيتُ عند البوابة جنديين واقفين في ملابس داكنة، يستندان إلى بندقيتيهما القصيرتين، حدقا فينا بحدة عندما اجتزنا بهما!

حيّا رفيقنا الحوذيُ الصغير ذو الوجه القاسي الشرس السير هنري باسكرفيل، وفي دقائق قليلة كنا ننطلق في سرعة على الطريق الأبيض العريض. أمامنا على الجهتين تنحني أراضي المراعي المتعرجة، وكانت البيوت والمخازن الكبيرة القديمة، تبزغ من وسط خضرة الأوراق الكثيفة، لكن خلف هذا الريف المسالم والمضيء بالشمس، هنالك يرتفع أبدًا ظلامٌ تجاه سماء المساء، ومنحنى كئيب من المستنقع الطويل، مكسورٌ بالتلال المتعرجة والشريرة.

تأرجحت العربة عند دخولها على طريق جانبي، استدرنا صعودًا في مجازات عميقة، داست عليها العجلات لقرون. كانت أكتاف الطريق على الجانبين مثقلة بالطحالب التي تقطر، وسرخس لسان الأيل الممتلئ، أما السرخس البرونزي والعليق المزركش فقد التمعا في ضوء الشمس الغارقة. مع استمرار صعودنا في ثبات، عبرنا على جسر غرانيتي ضيق، وحاذينا جدولًا صاخبًا يندفع في سلاسة نحو الأسفل، مثيرًا الرغوة والزمجرة وسط الصخور الرمادية. الطريق والجدول كلاهما التفا خلال وادٍ كثيف بأشجار التنوب المنخفض والبلوط.

عند كل انعطافة أظهر باسكرفيل دهشة وسرورًا، متطلعًا في تلهف حوله ويسأل أسئلة كثيرة! بدا كل شيء لعينيه جميلًا، ولكن بالنسبة لي، كانت هنالك صبغة من الكآبة تسود الريف! الذي حمل في وضوح علامة

انقضاء العام، فالأوراق الصفر غطت كالسجادة المجازاتِ وتساقطت علينا عند مرورنا. خفت صوت قعقعة عجلات عربتنا عندما قدنا خلال أكوام النباتات المتعفنة، إنها هدايا حزينة! هذا ما بدا لي، لأن الطبيعة ترميها أمام عربة عودةِ وريث باسكرفيل!

صاح دكتور مورتمر:

ـ عجبًا... ما هذا؟

كان أمامنا منحنى حاد لمرجٍ ملتف من الأرض، وهو نتوء معزول من المستنقع، على قمته يقف جندي على حصان، راسخًا وعابسًا وقويًا! كان بارزًا مثل تمثال فروسية منتصب على القاعدة، وبندقيته في وضع الاستعداد على ساعده. كان يراقب طول الطريق الذي ننطلق فيه.

سأل دكتور مورتمر الحوذي:

ـ ما هذا يا بيركنز؟

فاستدار الحوذي بنصف جسده وهو على مقعده:

ـ سيدي، هنالك مجرم مدان هرب من سجن برنستاون، مضت عليه حتى الآن ثلاثة أيام، تراقب الدوريات كل طريق وكل محطة، لكنهم لم يروا له أثرًا قط. الفلاحون هنا لا يتعاطفون معه مطلقًا يا سيدي، وهذه حقيقة.

ـ حسنٌ، أنا أعرف أن الشرطة تمنح دائمًا خمسة باوندات لمن يقدم أي معلومات.

ـ نعم سيدي، ولكن فرصة نيل تلك الباوندات، ليست إلا شيئًا يسيرًا مقارنة بخطورة



هنالك مجرم مدان هرب من سجن برنستاون

التورط في أن تُقطع رقبة أحدهم. أنت ترى، أنها ليست قضية مدانٍ اعتيادي كأي قضية أخرى، إنه رجل مستعد لأن يطعن من أجل لا شيء!

- ومن هو؟

- إنه سيلدن، مجرم نوتنج هيل.

تذكرت قضيته جيدًا، لأنها كانت واحدةً من اللاتي اهتم بها هولمز، لما فيها من العنف الغريب والخاص في عالم الجريمة، والوحشية القاسية التي فاقت كل أفعال القتل. جرى تخفيف عقوبة الإعدام بسبب بعض الشكوك في سلامة المجرم العقلية الكاملة، إذ كان سلوكه وحشيًا وفظيعًا جدًا!

اعتلت عربتنا مرتفعًا، وظهر أمامنا الامتدادُ الهائل من أرض المستنقع: أرض مزركشة بخليط من الالتواءات، والجروف الحجرية المنحدرة، وركامات التراب. من تلك المناطق هبت ريح باردة جعلتنا نرتجف! في مكان ما هنالك، على ذلك السهل المقفر، كان مأوى ذلك المجرم الخبيث، الذي يختبئ في جحر مثل حيوان بري، يمتلئ قلبه بالشر والحقد تجاه البشر الذين نبذوه بعيدًا! وكأن الوضع لا ينقصه إلا هذا! كي يكتمل الأيحاء المتجهم من هذا القفر العقيم، والريح القارسة، والسماء الغارقة في الظلام... حتى باسكرفيل سقط في السكون، ولملم أطراف معطفه من حوله ليتزمل به!

تركنا وراءنا وتحتنا الريفَ الخصيب، ونظرنا الآن، كانت الأشعة المائلة من الشمس المنخفضة، تحوّل جدول المياه إلى خيوط من ذهب، متوهجة على الأرض الحمراء، التي

قُلبت حديثًا بالحراثة، وبلون تشابك أغصان أشجار الغابة. ازداد أمامنا الطريق بريةً وتوحشًا، على منحدرات خمرية وزيتونية اللون كبيرة، وعليها صخور عملاقة متناثرة. بين الحين والآخر، كنا نمرّ أمام كوخ على أراضي المستنقع، مسوّر ومسقّف بالحجارة، بلا زراعة نباتات زاحفة تغطي منظرها القاسي! فجأة نظرنا إلى أسفل، في ما يشبه المنخفض مثل الكوب، مغطّى في مواضع متناثرة بالسنديان والتنوب القصير، الذي التوى وانحنى بفعل سنوات من هبوب العواصف، هنالك ارتفع برجان عاليان رفيعان فوق الأشجار. أشار الحوذي بسوطه:

- فيلا باسكرفيل.

نهض سيده السير هنري، كان يحدق وخدوده متوردة وعيونه مشرقة! بعد دقائق وصلنا إلى بوابات المسكن، وهي متاهة من الزخارف الرائعة في الحديد المطاوع، مع أعمدة نال منها الطقس على الجانبين، وملطخة بالأشنات، وتعلوها رؤوس الخنازير المصادة من قبل آل باسكرفيل! كان مسكنًا قديمًا ومتداعيًا من الغرانيت الأسود، والأضلاع المقوسة من العوارض الخشبية، لكن يواجهه مبنى جديد، نصف مبني، وهو أول ثمار تجارة السير تشارلز في ذهب جنوب أفريقيا.

اجتزنا خلال باب المدخل المشجّر، حيث سحقت عجلاتُ العربة مرة أخرى ركام الأوراق المتساقطة، وكوّنت الأشجار القديمة بأغصانها قناة قاتمةً فوق رؤوسنا. ارتعش باسكرفيل عندما رأى الطريق الطويل والمظلم! إلى حيث البيت غير الواضح مثل الشبح عند النهاية البعيدة، فسأل في صوت منخفض:

ـ هل كان هنا؟

ـ لا، لا، إن الممر الشجري في الجانب الآخر.

فامتقع وجه الوريث الشاب بقتامة الكآبة:

ـ لا عجب أن شعر عمي بحصول مشكلة وشيكة تصيبه في مكان كهذا! إنه كافٍ لإفزاع أي رجل. سأجلب هنا صفًا من المصابيح الكهربائية خلال ستة أشهر، وسأغير المكان تمامًا ولن تتعرفوا إليه... بألف شمعة كهربائية من إنتاج سوان وأديسون، هنا تمامًا أمام باب الفيلا!

انفتح المدخل المشجر في مدى عريض من الأرض المعشوشبة، وهنالك تقبع الفيلا أمام أنظارنا. عبر الضوء الخافت، تمكنت أن أرى أن المركز كان كتلة كبيرة من البناء حيث الشرفة المعروضة، وكانت الواجهة الكلية مكسوة باللبلاب المتسلق، مع ترميمات ملصقة

وواضحة للعيان هنا وهناك ـ حيث نافذة مكسورة، أو أيقونة رمز العائلة ليست على ما يرام ـ خلال الحجاب المظلم. من هذه الكتلة المركزية ارتفع برجان توأمان، وقديمان، ومزخرفان، ومثقبان بكثير من الثغرات والكوى. على يمين البرجين وشمالهما كانت هنالك أجنحة من الغرانيت الأسود أكثر حداثة، والتمع ضوء قليل خلال النوافذ المضلعة الثقيلة، ومن المداخن العالية التي ترتفع من السقف شديد الانحدار بالزاوية الحادة، هنالك ينبثق عمود دخان أسود منفرد.

ـ مرحبا يا سير هنري، مرحبا بك في فيلا باسكرفيل.

قال ذلك رجل طويل، بزغ من ظل الشرفة ليفتح باب العربة، ورُسم ظلُ شكل امرأة بمقابل الضوء الأصفر من الفيلا. خرجتُ وساعدت الرجل على إنزال حقائبنا.

قال دكتور مورتمر:

ـ أرجو أن لا تمانع إذا انصرفتُ مباشرة نحو بيتي، يا سير هنري؟ زوجتي تنتظر قدومي.

ـ سوف تبقى وتتناول العشاء.

ـ كلا، يجب أن أذهب. أظن أنني سأجد هنالك بعض الأعمال تنتظرني. كنت أود البقاء لكي أريك المنزل، لكن باريمور سيكون دليلًا أفضل مني. وداعًا، ولا تتردد في الليل أو النهار أن تطلب مجيئي ولأي خدمة.

كان صوت العجلات قد تلاشى بعيدًا في الممر، فاستدرنا أنا والسير هنري للدخول إلى الفيلا، وتم إغلاق الباب بالمزلاج خلفنا بإحكام. وجدنا أنفسنا في داخل مسكن جيد ورحب، وكبير، وعالي المقام، وله روافد ضخمة وألواح من كتل خشب السنديان الأسود. في الموقد الكبير ذي الطراز القديم، خلف قضبان الحديد العالية، قطع خشب تلتهمها النيران وتصدر فرقعة. مددنا أيدينا نحوها بسبب ما أصابنا من خدر في رحلتنا الطويلة، ثم حدقنا حولنا نحو النافذة العالية الرقيقة من الزجاج الملون القديم، وألواح السنديان، ورؤوس الأيائل، والأيقونات والشعارات على الجدران، كلها معتمة ومتجهمة في الضوء الضئيل من المصباح المركزي.

قال السير هنري:

ـ إنها كما تخيلتها بالضبط. أليست هي الصورة المعتادة لبيت العائلة القديم؟ أنا أفكر بأن هذه يجب أن تكون الفيلا نفسها، التي عاش فيها أسلافي لخمسمائة سنة. يصدمني هذا لمهابة التفكير فيه.

رأيتُ وجهه القاتم يضيء بالحماس الصبياني! عندما حدق في ما حوله، كان الضوء يسقط عليه حيث كان واقفًا، ولكن ظلالًا طويلة تعثرت على الجدران، وتعلقت فوقه مثل مظلة سوداء. عاد باريمور بعد أخذه حقائبنا إلى غرفنا، ووقف أمامنا الآن بطريقة هادئة ومتزنة، تليق بخادم حسن الإعداد، كان رجلًا ذا طلعة مميزة، طويلًا، ووسيمًا، مع لحية سوداء مربعة وباهتة... سمات مميزة!

ـ أترغب يا سيدي، في تناول العشاء حالًا؟

ـ وهل العشاء جاهز؟

ـ نعم، سيدي، في دقائق قليلة، وستجدون ماءً ساخنًا في غرفكم. سنكون أنا وزوجتي سعداء، يا سير هنري، للبقاء معكم حتى إنجازكم ترتيباتكم، ولكنك ستعرف أن في هذه الظروف الجديدة، سيحتاج هذا البيت إلى كثير من الموظفين.

ـ أي ظروف جديدة؟

ـ قصدتُ يا سيدي: أن السير تشارلز عاش نمط حياة تقاعدية جدًا، وكان في إمكاننا أن نعتني به ونلبي حاجاته. أنت سترغب ـ وهذا طبيعي ـ في رفقة وعلاقات أكثر، ولهذا، سوف تحتاج إلى تغييرات في القائمين على بيتك.

ـ هل تعني أنك وزوجتك ترغبان في المغادرة؟

ـ ذلك إذا كان مناسبًا تمامًا لكم، سيدي.

ـ لكن عائلتك عاشت معنا لبضعة أجيال، أليس كذلك؟ وأنا سأكون آسفًا جدًا إذا بدأتُ حياتي هنا بكسر هذه الصلة العائلية القديمة.

ظهر لي تمييز بعض علامات التأثر على وجه باريمور الأبيض.

ـ أنا أشعر الشعور نفسه يا سيدي، وكذلك زوجتي. ولكن لأصدقك القول والحقيقة، سيدي، كنا كلانا على صلة مقربة جدًا من السير تشارلز، ولقد صدمتنا وفاته، وأمسى كلّ ما حولنا مؤلمًا جدًا. أنا اخشى أننا لن نكون مرة أخرى على طبيعتنا، بنحو ما اعتدنا في فيلا باسكرفيل!

ـ ولكن ما الذي تنويان أن تفعلاه؟

ـ ليس لدي شك يا سيدي، في أننا سوف ننجح في تأسيس أعمال أخرى لأنفسنا. منحنا كرمُ المرحوم السير تشارلز الوسائلَ لفعل ذلك. والآن، يا سيدي، ربما يكون الأفضل أن أريكم غرفكم.

كان هنالك ما يشبه معرض لوحات مربع محاط بالدرابزون، يدور حول قمة الفيلا القديمة، ويتوصل إليه بالدرج المزدوج. ومن هذه النقطة المركزية يتفرع ممران طويلان على طول الفيلا، عليهما تنفتح كل غرف النوم. كانت غرفتي في جناح السير باسكرفيل نفسه وقريبه منه جدًا، وبدت هذه الغرف أكثر عصرية وحداثة من الجزء المركزي للفيلا. ورق الجدران اللامع والشموع الكثيرة، فعلت فعلها في إزالة الانطباع الثقيل الذي نزل عليّ عند الوصول.

لكن غرفة الطعام التي فتحت خارج الفيلا كانت مكانا للظل والغم، كانت حجرةً طويلة مع عتبة تفصل المقاعد الشرفية ـ حيث تجلس العائلة ـ عن القسم الواطئ المحفوظ لأتباعهم. عند واحدة من النهايات، كان هنالك بورتريت لشاعر غنائي ينظر من علٍ. أعمدة سود تتقاطع فوق رؤوسنا، مع سقف مسود من الدخان في أعلاها، وصفوف من المشاعل الملتهبة لتنير المكان، أما اللون والمرح الصاخب والفظ لوليمة قديمة، فربما يكون قد اضمحل. لكن الآن، عندما يجلس اثنان من الجنتلمانات بملابس سود، في دائرة صغيرة من الضوء الذي يلقيه مصباح خافت، يمسي صوت الشخص مهموسًا وروحه مكبوتة وخافتة. خط معتم من الأجداد، في كل مجموعة متنوعة من اللباس: من الفارس الإليزابيثي إلى عهد

الوصاية([25])، تحدق نحو الأسفل فينا، وأرعبتنا برفقتها الصامتة! تحدثْنا قليلًا، وكنت شخصيًا مسرورًا، لأن الوليمة انتهت، وكان في إمكاننا أن نستريح في داخل غرفة البليارد الحديثة وندخن سيجارًا.

قال السير هنري:

ـ هذا رأيي: إنه ليس مكانًا مبهجًا جدًا، أنا أفترض أن الشخص يمكنه أن يتناغم معه، لكنني أشعر قليلًا بأنني خارج الصورة في الوقت الحالي. أنا لا أعجب من أن عمي قد أصابه قليل من العصبية وتقلب المزاج، إذا كان قد عاش وحيدًا كل ذلك الوقت في فيلا مثل هذه. وفي أي حال، إذا كان هذا يلائمك، فإننا سنأوي إلى الفراش هذه الليلة مبكرين، وربما تبدو الأشياء أكثر إبهاجًا عند الصباح.

قبل أن أنام سحبتُ الستائر إلى جانب، وتطلعت من نافذتي نحو الخارج. كان المنظر ينفتح على فضاء عشبي يمتد أمام باب الفيلا، بعده، اثنان من أجمات الأشجار تئن وتتأرجح في الريح العالية، ظهر نصف قمر من خلال فجوات في الغيوم المسرعة، وفي ضوئه البارد،

---

[25] (The Elizabethan era) العصر الأليزابيثي، يرى المؤرخون أنه العصر الذهبي في تاريخ إنكلترا، في عهد الملكة أليزابيث الأولى (١٥٥٨ – ١٦٠٣). (Regency era) المدة التي تشير إلى حكم الأمير الوصي ريجينت في عهد والده جورج الثالث (١٨١١ – ١٨٢٠).

رأيت في ما وراء الأشجار مجموعةً صخرية متكسرة، ومتطرفة على الحافات، والقوسَ الطويل المنخفض للمستنقع الموحش. أغلقت الستائر مع شعوري بأن تأثري الأخير هذا، كان منساقًا مع البقية السابقة. ومع ذلك، لم يكن الأخير تمامًا، إذ وجدتُ نفسي مرهقًا سئمًا ويقظًا تمامًا، أتقلب في انزعاج من جانب إلى آخر، أبحث عن النوم الذي لا يأتي.

من بعيد، سمعت صوتَ دقات الساعة، بخلاف ذلك خيّم الصمت المميت على البيت القديم. لكن بعد ذلك، فجأة وصل صوتٌ إلى أذني، واضحًا وله رنين، ولا يمكن أن أخطئ بتمييزه. كان نشيج امرأة! صوت مكبوت مختنق وممزق بحزن لا تمكن السيطرة عليه! جلستُ في سريري أنصتُ في اهتمام، لا يمكن أن تكون تلك الأصوات بعيدة جدًا، فهي من داخل البيت... انتظرت نصف ساعة وأعصابي في حال تأهب، لكن لم يأتِ صوت آخر باستثناء الساعة الدقاقة، وحفيف أوراق اللبلاب على الجدار.

٧ – آل ستابلتون في فيلا ميريبت

كان الصباح الجديد المنعش قد فعل فعله، بإزالة العبوس والانطباع الرمادي عن روحينا، ذلك الانطباع الذي نزل علينا عند أول لقاء مع فيلا باسكرفيل! عند جلوسنا أنا والسير هنري إلى مائدة الفطور، غمرنا ضوءُ الشمس من خلال النوافذ المضلعة المقسمة، التي ألقت بقعًا مائية من اللون، عبر الرموز والأيقونات التي تغطيها. لمعت ألواح التغليف السقفية الداكنة مثل النحاس بالأشعة الذهبية، وكان يصعب إدراك أن هذه هي حقًا الحجرة نفسها، التي صدمت أرواحنا بمثل ذلك العبوس والقتامة في المساء المنصرم!

قال البارون هنري:

ـ أظن أننا يجب أن نلوم أنفسنا لا الفيلا... لقد كنا متعبين من رحلتنا، ومرتجفين وخدرين بسبب تلك القيادة، لذلك أخذنا انطباعا شاحبًا عن المكان، والآن نحن منتعشون وفي حال حسن، وهكذا كل شيء الآن مبتهج دفعة واحدة...

ـ لكن الأمر لم يكن مسألة خيال تمامًا، فعلى سبيل المثال: هل حصل أن انتبهتَ لسماع صوت امرأة ـ على ما أظن ـ تبكي في الليل؟

ـ هذا مثير للفضول! لأنني كنتُ في خيال نصف النائم، لذلك سمعت شيئًا من ذلك، انتظرتُ وقتًا ولكن لم يكن هنالك المزيد منه، لذلك استنتجت أن ذلك كله لم يكن إلا حلمًا.

ـ لقد ميّزتُ الصوت، وأنا متأكد أنه كان نواح امرأة حقيقيًا.

ـ إذن، علينا أن نستفسر عن ذلك الآن بلا تأخير.

قرع الجرسَ، وسأل باريمور عن أي توضيح لديه يجيب تساؤلاتنا، وبدا لي أن الملامح الباهتة على وجه كبير الخدم، أصابها شحوب عميق عندما استمر بالإصغاء إلى أسئلة سيده. ثم أجاب:

ـ يا سير هنري، هنالك امرأتان لا غيرهما في الفيلا: واحدة هي خادمة المطبخ، التي تنام في الجناح الآخر، والأخرى هي زوجتي، وبخصوصها أجيب: أن الصوت لم يكن منبعثًا منها.

مع ذلك، كان كاذبًا في إجابته! لأنني صادفتُ بعد الإفطار زوجته السيدة باريمور في الممر الطويل، وكانت الشمس تسطع بالكامل على وجهها. كانت امرأة كبيرة، وهادئة، وبملامح وجه ضخمة ومميزة، مع تعبير الحزم على فمها. لكن عيونها الواشية كانتا

محمرتين، وحدقت بي من جفنين منتفخين. إذن! هي التي كانت تبكي في الليل، وإذا كانت قد فعلت ذلك، فإن زوجها يعلم ما جرى. لكنه رغم ذلك اختار المخاطرة بعدم كشف هذا السر، إذ أعلن أن الأمر لم يكن كما ظننا. لماذا فعل ذلك؟ ولماذا بكت في مرارة وحرقة شديدة؟ بالفعل، حول هذا الوجه الباهت والوسيم ذي اللحية السوداء، كان يتجمع هنالك جو من الغموض والكآبة: كان هو أول من عثر على جثة السير تشارلز، ولم تكن لدينا إلا شهادته على كل المعطيات، التي قادت إلى موت الرجل المسن. أمن الممكن ـ بعد كل شيء ـ أن باريمور هو من كان في عربة الأجرة بشارع ريجينت؟ فاللحية ربما تبدو متطابقة جيدًا، والسائق قد وصف لنا رجلًا أقصر نوعًا ما، لكن من المحتمل أن مثل هذا الانطباع، يمكن أن يكون خاطئًا في سهولة. كيف أستطيع أن أنتهي من تسوية هذه النقطة إلى الأبد؟ من الواضح أن الشيء الأول الذي سأفعله هو رؤية مدير بريد غرمبين، واكتشاف حقيقة تسليم برقية التلغراف إلى باريمور. ليكن الجواب ما يكون، لأنني في الأقل، يجب أن يكون لدي شيء أرسل عنه تقريرًا إلى هولمز.

كان لدى السير هنري عددٌ كبير من أوراق العمل ليراجعها بعد الفطور، لذا كان ذلك الوقت مؤاتيًا للقيام بنزهتي المختلسة. لقد كانت مسيرة لطيفة وسارة، لمسافة أربعة أميال على طول حافة المستنقع، تقودني في النهاية نحو قرية رمادية صغيرة، حيث رأيتُ فيها بنايتين

كبيرتين، وقد تبين أنهما النزل، وبيت دكتور مورتمر، كان شاخصين أعلى من بقية المباني.

وتبين أن مدير البريد ـ وهو البقال في آن واحد ـ لديه ذاكرة واضحة عن البرقية:

ـ بالتأكيد، سيدي. لقد قمتُ بتسليم البرقية إلى السيد باريمور حسب التوجيه بالضبط.

ـ ومن قام بتسليمها؟

ـ ولدي هذا الجالس هنا. يا جيمس، أنت قد سلّمت البرقية إلى السيد باريمور عند فيلا باسكرفيل الأسبوعَ الماضي، أليس كذلك؟

ـ بلى، يا أبي. لقد سلّمتها.

ـ سلمتها يدًا بيد له شخصيًا؟

ـ حسنٌ، لقد كان في الأعلى، في العلّية، لذا لم أتمكّن من تسليمها إليه شخصيًا، لكنني أعطيتها للسيدة باريمور، وقد وعدتْ بأن تسلمها له بلا تأخير.

ـ هل رأيت السيد باريمور؟

ـ لا، يا سيدي، أقول لك إنه كان في العلية.

ـ إن لم تكن رأيتَه، فكيف عرفتَ أنه كان في العلية؟

فقال مدير البريد في انزعاج ونكد:

ـ حسن، بالتأكيد أن على زوجته أن تعرف أين يكون هو! ألم تصل إليه البرقية؟ إذا كان هنالك أي خطأ، فله نفسه أن يشكو!

بدا لي أن الاستمرار في التحقيق أكثر من هذا غير مجدٍ، لكن كان واضحًا أنه رغم حيلة هولمز بإرسال البرقيات، فإننا لم نحصل على برهان يثبت أن باريمور لم يكن في لندن طول ذلك الوقت. لنفترض أن ذلك حدث، ولنفترض أن الرجل نفسه كان آخر من رأى السير تشارلز حيًا، وهو أول من يتتبع ويراقب الوريثَ الجديد عند عودته إلى لندن. وماذا بعد؟ أيكون هو وكيلًا عن آخرين، أم أن لديه مشروعه الشرير الخاص به؟ وأين محل الفائدة التي يمكن أن يحصل عليها باضطهاد أسرة باسكرفيل وتعذيبها؟ أنا أفكر في التحذير الغريب المقتطع من مقالة التايمز الرئيسة، أكان ذلك من تدبيره، أم من المحتمل أن يكون من شخص آخر عازمٍ على مواجهة مخططاته؟

كان الدافع الذي يمكن تصوره هو ذلك الذي اقترحه السير هنري، وهو: إذا أُصيبت العائلة بالرعب وهجرت كل شيء، فسيكون هنالك بيت دائم ومريح يعيش فيه آل باريمور. لكن من المؤكد أن تأويلًا مثل ذلك، لا يرقى ليُحسب ضمن التخطيط العميق والحاذق، ذلك الذي ظهر أنه يحوك شبكةً خفية حول البارون الشاب. حتى هولمز نفسه، قال إنه لم

تكن له قضية أكثر تعقيدًا، في كل السلسلة الطويلة من التحقيقات المثيرة... لقد دعوتُ اللّه وأنا أسير وحيدًا، وعائدًا على طول الطريق الرمادي، أن يتخلص صديقي قريبًا من التزاماته، ويكون سهلًا عليه أن يأتي إلى هنا، ليتولى الأمر ويزيح هذه المسؤولية الملقاة على عاتقي!

فجأة! قطع عليّ أفكاري صوتُ أقدام تركض خلفي، ونداءٌ عليّ باسمي! استدرت متوقعًا أن أرى دكتور مورتمر، لكن أدهشني أنه كان رجلًا غريبًا يلاحقني. كان صغير البنية، ونحيفًا، وبوجه حليق متزمت، وشعر أصفر باهت، ضامر الفكين، بعمرٍ بين الأربعينات والثلاثينات، يرتدي بذلة رمادية، وقبعةً من القش، ويحمل على كتفيه صندوقًا قصديريًا لحفظ الأنواع النباتية، ويمسك شبكة خضراء لصيد الفراشات. قال وهو يتقدم باتجاهي محدقًا بي حيث وقفت:

ـ أنا متأكد يا دكتور واتسن، أنك ستغفر لي وقاحتي! نحن هنا في أرض المستنقع ناس متآلفون وودّيون، ولا ننتظر التقديمات الرسمية، وربما تكون قد سمعتَ اسمي من صديقنا المشترك مورتمر. أنا ستابلتون، أسكن في فيلا ميريبت.

ـ لقد أخبرتْني شبكتك وصندوقك هذين كثيرًا قبل أن تعرّف نفسك، لأنني عرفتُ أن السيد ستابلتون رجلٌ عالم بالطبيعة، لكن كيف عرفتني؟

ـ كنت أزور دكتور مورتمر، وقد أشار نحوك من نافذة عيادته الجراحية، عندما مررتَ في الخارج، فكرتُ أن ألحق بك وأقدّم نفسي لأن طريقنا واحد هنا. وأنا أرجو أن السير هنري لم يصادف أي سوء ومتاعب في رحلته.

ـ إنه في خير، شكرًا لك.

ـ كنا كلنا نوعًا ما نخشى بعد الموت الحزين للسير تشارلز، أن يرفض البارون الجديد العيش هنا، وهذا يتطلب أكثر من مجرد رجل ثريٍ جدًا، للسكن هنا ودفن نفسه في مكان من هذا النوع، لكن لا حاجة لأن أخبرك أن ذلك يعني صفقةً كبيرة للريف. أنا أفترض أن السير هنري، لا خشية لديه من الأمور الخرافية في هذا الأمر، صحيح؟

ـ لا أظن ذلك محتملًا...

ـ بالطبع أنت تعرف أسطورة الكلب الشيطاني الذي يطارد أفراد العائلة؟

ـ قد سمعتُ عنها.

ـ إنه لأمر غريب حقًا أن ترى مقدارَ السذاجة عند الفلاحين هنا! أي مجموعة منهم، ستكون مستعدة للقسم على أنهم شاهدوا مثل هذا المخلوق على أرض المستنقع!

قال ذلك وهو يبتسم هازئًا، لكنني قرأتُ في عينيه أنه يأخذ الأمر في جدية أكبر، ثم أضاف:

ـ لقد استحوذت القصةُ استحواذًا عظيمًا على خيال السير تشارلز، ولا شك لدي أن ذلك قاد إلى موته المأساوي.

ـ ولكن كيف؟

ـ كانت أعصابه متحفزة جدًا، حتى أن أي ظهور لأي كلب كان سيؤثر فيه بصورة مهلكة على قلبه المريض. أنا أتصور أنه قد رأى فعلًا شيئًا من ذلك، في تلك الليلة الأخيرة في الممر الشجري. لقد خشيتُ أن كارثة ما قد تحصل، لأنني كنتُ حنونًا وعطوفًا على ذلك الرجل المسن، وعرفت أن قلبه كان ضعيفًا.

ـ كيف عرفتَ ذلك؟

ـ أخبرني صديقي دكتور مورتمر.

ـ إذن، أنت تعتقد أن كلبًا ما قد لاحق السير تشارلز، وهكذا مات رعبًا بسبب ذلك؟

ـ ألديك تفسير أفضل؟

ـ لم أتوصل إلى أي استنتاج بعد.

ـ وماذا عن السيد شارلوك هولمز؟

أدهشتني كلماته! وسلبت أنفاسي للحظة، لكن النظرة على الوجه الهادئ والعيون الحازمة لصاحبي هذا، أقنعتني بأنه لم يكن يقصد مفاجأتي. أضاف:

ـ لا فائدة من التظاهر بأننا لا نعرفكم يا دكتور واتسن. إن إنجازات محققك قد وصلت إلينا هنا، وأنت لم تستطع أن تعلن عنه، من دون أن تكون أنت نفسك معروفًا. عندما أخبرني مورتمر باسمك، لم يستطع إنكار هويتك. إذا كنتَ هنا، فهذا يعني أن السيد شارلوك هولمز نفسه مهتم بالأمر، وأنا بصورة طبيعية لدي فضول لمعرفة وجهة نظره حول الأمر.

ـ أظن أنني غير قادر على الإجابة عن هذا السؤال.

ـ اسمح لي أن أسألك: هل سيأتي السيد شارلوك هولمز بنفسه ويشرّفنا بزيارة؟

ـ لا يمكنه أن يغادر المدينة في الوقت الحالي، فهو مهتم بقضايا أخرى يعمل على حلها.

ـ يا للأسف! ربما لو كان هنا، فإنه سيلقي بعض الضوء على ما هو مظلم بالنسبة لنا. ولكن بالنسبة لأبحاثك الخاصة، إذا كانت هنالك أي إمكانية أو طريق، أستطيع به أن أكون في خدمتك، فأنا آمل أنك سوف تأمرني به. إذا كان لدي أي مؤشر على طبيعة شكوكك

وشبهاتك، أو كيفية تقدمك في التحقيق بالقضية، فأنا مستعد حتى لو كان الآن لأقدّم بعض المساعدة أو النصيحة.

ـ أنا أؤكد لك في كل بساطة، أنني هنا من أجل زيارة صديقي السير هنري، ولذلك لا أحتاج إلى مساعدة من أي نوع.

ـ ممتاز، أنت محق تمامًا في كونك حذرًا وحريصًا. أنا ألوم نفسي حقًا لما أشعر أنه تدخل غير مسوغ، وأنا أعدك بأنني لن أذكر الأمر مرة أخرى.

كنا قد وصلنا في مسيرنا إلى نقطة حيث ممر ضيق مكسو بالعشب، يعترض مسار الطريق وينشق عبر المستنقع، وتل منحدر بصخور متناثرة يستقر في جهة اليمين، والذي كان في زمنٍ مضى محجرًا لقطع الغرانيت. أما الجهة التي واجهتنا فكوّنت منحدرًا مظلمًا، نبت في فتحاته السرخس والعليق. من مسافة بعيدة يرتفع هنالك طافيًا عمودٌ رمادي من الدخان يشبه الريشة.

قال ستابلتون:

ـ مشية مستقيمة على طول هذا الطريق في المستنقع توصلنا إلى فيلا ميريبت. ربما يكون لديك ساعةٌ من فراغ، فأكون مسرورا لاستضافتك وتعريفك إلى أختي.

كانت فكرتي الأولى أنني يجب أن أكون عند السير هنري، لكنني تذكرتُ كومَ الأوراق والفواتير التي كانت متناثرة على منضدة عمله! فكان من الواقعي أنه ليس في إمكاني مساعدته في ذلك، ومن جهة أخرى كان هولمز قد أوصاني في صراحة ووضوح، أنني يجب أن أدرس أحوال الجيران في هذه المنطقة، لذا، قبلتُ دعوةَ ستابلتون، واستدرنا معًا نزولًا في الطريق...

قال ستابلتون:

ـ هذا المستنقع مكان رائع.

قال ذلك وهو يمد بصره حوله ويرى منظرًا من المنخفضات المتماوجة، ومنحنيات خضر طويلة، وقمم من صخور الغرانيت المسننة، تفور في رياح رائعة. وأضاف:

ـ إنك لن تشعر بالسأم من المستنقع، ولن تنقضي أسراره العجيبة التي تختبئ فيه، إنه رحب جدًا، وقاحل جدًا، وغامض جدًا!

ـ إذن، أنت تعرفه جيدًا؟

ـ مضت على وجودي هنا سنتان، وكان ساكنو المنطقة يطلقون علي لقب القادم الجديد. جئنا بعد مدة قصيرة من استقرار السير تشارلز، وقادتني أذواقي واهتماماتي

لاستكشاف كل جزء من الريف حولي. يجب أن أجزم بالقول إن هنالك قليلًا من الرجال يعرفونه أفضل مني.

ـ هل من الصعب معرفته؟

ـ صعب جدًا! أنت ترى على سبيل المثال، هذا السهل العظيم إلى الشمال، مع وجود تلال ناشزة تنبثق منه، هل رأيتَ أي شيء مميز في ذلك؟

ـ سيكون مكانًا نادرًا للعدو بالأحصنة.

ـ ربما كنتَ تفكر طبيعيًا بهذه الصورة، والفكرة كلفت بعضَ الناس حياتهم قبل هذا. أترى هذه البقع الخضر الكثيفة اللامعة مبعثرة عليه.

ـ نعم، إنها تبدو أكثر خصبًا من البقية.

فضحك ستابلتون!

ـ ذلك هو مستنقع غرمبين الموحل الكبير، أي خطوة هنالك بغير انتباه تعني الموت للإنسان والحيوان! حتى يوم أمس، رأيت واحدًا من الأحصنة الصغيرة يسير عليه، ولم يخرج أبدًا! بقيتُ لوقت طويل أراه، يحاول أن يمد عنقه، ليرفع رأسه خارج حفرة المستنقع، لكنها في النهاية امتصته إلى الأسفل! حتى في مواسم الجفاف يبقى خطرًا عند العبور عليه،

وهو يتحول إلى مكان فظيع بعد أمطار الخريف. مع ذلك أستطيع إيجاد طريقي إلى مركزه تماما والعودة حيًا. يا ربي!! هنالك واحد آخر من تلك الأحصنة الصغيرة التعيسة.

جسم ذو لون بني، كان يتدحرج ويندفع بين كثافة القصب الأخضر، ثم كان هنالك عنق طويل يتلوى ويتعذب، بعد ذلك أطلق نحو الأعلى صيحة مريعة تردد صداها فوق المستنقع. أصابني ذلك بالقشعريرة والفزع! لكن أعصاب صاحبي بدت أقوى وأكثر ثباتًا مني!

ـ لقد ذهبت! ابتلعها المستنقع، ضحيتان في يومين! وكثير كثير، ربما لأنهم ذهبوا في الطريق إلى هناك في وقت الجفاف، ولم يعرفوا قط الفرقَ حتى أمسك بهم المستنقع بمخالبه. إنه مكان سيء: مستنقع غرمبين الكبير.

ـ وتزعم أنك تستطيع المرورَ عليه واختراقه في سلام؟

ـ نعم، هنالك مسلك أو اثنان، يمكن لرجل نشيط جدًا أن يستعملهما، لقد اكتشفتهما.

ـ لكن لماذا يجب عليك أن تذهب داخل مكان فظيع كهذا؟

ـ حسنٌ، أترى تلك التلال الخلفية البعيدة؟ إنها حقًا جزرٌ معزولة من كل الجهات بالمستنقع صعب العبور، الذي زحف حولها بمرور السنوات. هنالك حيث يمكنك أن تجد النباتات والفراشات النادرة، إن كانت لديك الفطنة والذكاء للوصول إليها...

ـ سوف أجرب حظي يومًا ما.

فنظر إلي بوجه الدهشة!

ـ بحق الرب! أخرج مثل هذه الفكرة من رأسك! معنى ذلك أنك ستحمّلني مسؤولية دمك. أنا أؤكد لك أنه لن تكون هنالك فرصة أخيرة للعودة حيًا، إلا إذا تذكرتَ فقط بعض العلامات الأرضية المعقدة، وذلك ما أنا قادر على فعله.

فصحت:

ـ عجبًا... وما تلك العلامات؟

سمعتُ عواءً طويلًا، وبصوت منخفض وحزين بشكل لا يوصف، مرّ على المستنقع! لقد ملأ ذلك الصوت الفضاء كله، لكن من المتعذر الجزم بمصدره. ثم ازدادت قوة الصوت من غمغمة مكتومة إلى زمجرة عميقة، ثم عاد الصوت يغرق إلى ما يشبه الحزن والكآبة، ثم صوت متردد مرة أخرى! نظر ستابلتون نحوي بوجه يعلوه تعبير الفضول والاهتمام:

ـ هذا المستنقع مكان غريب حقًا!

ـ ولكن ما هذا الذي سمعناه؟

ـ يزعم الفلاحون إن هذا هو صوت كلب عائلة باسكرفيل يعوي طلبا لفريسته! لقد سمعتُ هذا الصوت من قبل مرةً أو مرتين، لكنه لم يكن تمامًا بهذا العلو الشديد.

نظرت حولي ـ وفي قلبي ارتجاف خوف ـ نحو السهل الضخم المتسع، المبقّع بحزم خضر من القصب. لم يتحرك شيء على هذا الامتداد الرحب، إلا زوج من الغربان تنعب من هضبة وراءنا. قلت:

ـ أنت رجل متعلم ومثقف، ولا أظن أنك تصدق مثل هذا الهراء، صحيح؟

ـ ما الذي تعتقد أنه يكون السبب وراء هذا الصوت؟

ـ الحشرات تصدر أصواتًا غريبة أحيانًا، أو تحركات طبقات الطين، أو ارتفاع المياه، أو شيء آخر...

ـ لا، لا، كان ذلك صوت كائنٍ حي!

ـ حسنٌ، ربما يكون كذلك، هل سمعت دوي طائر البترن[٢٦] من قبل؟

ـ لا، لم أسمعه.

ـ إنه طير نادر جدًا ـ عمليًا هو منقرض ـ الآن في إنكلترا، ولكن كل الأشياء ممكنة على أرض المستنقع. نعم، يجب أن لا أكون متفاجئًا إذا علمتُ أن ما سمعناه هو صياح آخر طيور البترن.

ـ إنه الشيء الأغرب والأعجب الذي سمعته في حياتي!

ـ نعم، إنه نوعًا ما مكان غريب وخارق للطبيعة تمامًا. حدّق نحو جانب التل هنالك، ما الذي تراه وتميزه فيه؟

رأيت هنالك منحدرًا حادًا ومغطى بالكامل بحلقات دائرية رمادية من الحجر، عددها عشرون في الأقل.

ـ وما تكون؟ أهي حظائر أغنام؟

---

[٢٦] (bittern) طير قصير من أنواع البلشون، مغطى بريش بني وشرائط داكنة. يصعب رصده ورؤيته، يتحرك في صمت بين أجمات القصب على حافات المياه بحثًا عن الأسماك، وتصدر الذكور صوتًا في الربيع.

ـ لا، إنها بيوت أسلافنا العظام. لقد عاش رجل ما قبل التاريخ بصورة متماسكة وطويلة على المستنقع، ولا أحد تحديدًا عاش هناك منذ ذلك الوقت، وجدنا كل ترتيباته الصغيرة بالضبط كما خلّفها. هذه هي أكواخهم ذات الشكل المستدير وبلا سقوف، ويمكنك أن ترى مواضع المواقد والأرائك، إن كان لديك الفضول للدخول فيها.

ـ لكنها مدينة كاملة! فمتى تم استيطانها؟

ـ رجل العصر الحجري الحديث[٢٧]... لا تاريخ.

ـ وما الذي فعله؟

ـ لقد رعى ماشيته على هذه المنحدرات، وتعلّم كيف يحفر من أجل استخراج القصدير، عندما بدأ السيف النحاسي يحل محل الفأس الحجري. انظر إلى الخندق الكبير في التل المقابل، تلك علامته، نعم، ستجد بعض الأمور الرائعة خاصة بالمستنقع، يا دكتور واتسن! اعذرني للحظة فهذه بالتأكيد فراشة السايكلوبيدس.[٢٨]

---

[٢٧] (Neolithic) العصر الحجري الحديث الذي يشير إلى تطور تقني في حياة الإنسان، بدأ منذ ١٥٢٠٠ سنة قبل الميلاد في بعض مناطق الشرق الأوسط ثم في بقية العالم. ويمتاز بالاستقرار والاستيطان وصناعة الفخار والنسيج.

[٢٨] (Cyclopides) نوع من الفراشات التي يطلق عليها اسم عام هو (Skippers).

رفرفت عبر طريقنا حشرة صغيرة، أو فراشة من نوع ما، وفي لحظة كان ستابلتون يندفع، في طاقة غير اعتيادية ليسرع في مطاردتها. أفزعني أن المخلوق الصغير قد انطلق مباشرة نحو المستنقع الكبير، ولم يتوقف فضولي للحظة واحدة، كان يركض وراءها من أجمة إلى أجمة يلوّح بشبكته الخضراء في الهواء، وكان بملابسه الرمادية واندفاعه المرتبك تقدمًا وتأخرًا ومتعرجًا بصورة غير منتظمة، قد صار هو يشبه فراشة كبيرة! كنت واقفًا أراقب مطاردته تلك، بمزيج من الإعجاب لنشاطه غير المعتاد، والخوف خشية أن تزل أقدامه فيقع في المستنقع الغادر... ثم سمعت صوت خطوات، واستدرت حولي لأجد امرأة قربي على الطريق! كانت قد جاءت من اتجاه عمود الدخان، الذي يشير إلى موقع فيلا ستابلتون، لكن منخفض المستنقع كان قد أخفى مجيئها حتى اقتربت جدًا.



كانت المرأة التي اقتربت مني بهيةَ الطلعة.

لم أشك في أن هذه هي الآنسة ستابلتون، التي أُخبرت عنها، لأن عدد السيدات من أي نوع، لا بد أن يكون قليلًا في هذه المنطقة، ولأنني تذكرتُ أنني سمعتُ أحدهم يصفها بأنها جميلة. فعلًا، كانت المرأة التي اقتربت مني بهيةَ الطلعة، بل كانت من النوع النادر! ولا يمكن أن يكون هنالك تباين بينها وبين أخيها أعظم من هذا، لأن ستابلتون كان ذا لون بشرة

اعتيادي، مع شعر خفيف وعيون رمادية، بينما كانت هي أكثر سمرة من أي واحدة أخرى رأيتها في إنكلترا: رشيقة، وأنيقة، وطويلة. ولها حدود وجه راقية في حسن وكبرياء! يبدو وجهها اعتياديًا جدًا، ربما لأنه بدا هادئ المشاعر، لكنه ليس كذلك للفم الحساس، والعيون السود الجميلة المتلهفة. فعلا لقد كانت بقوامها المتكامل، وردائها الأنيق، غريبةً في ظهورها وحيدةً على ممر أرض المستنقع هذا! كانت عيونها على أخيها عندما استدرتُ ناحيتها، وبعد ذلك أسرعتْ هي نحوي، فرفعتُ قبعتي لها، وكنت على وشك أن أقول تعليقًا يشرح ما يحصل، لكن تأثير كلماتها حوّل كل أفكاري نحو مسار جديد! إذ قالت:

ـ ارجع... ارجع الآن إلى لندن، فورًا!

لم أستطع إلا أن أحدق فيها بدهشة غبية! كانت عيونها تقدح بلهب نحوي، وتضرب الأرض بقدميها في جزع!

ـ لماذا يجب عليّ أن أعود؟

فأجابت بصوت واطئ حريص مع لثغة في منطقها:

ـ لا أستطيع أن أشرح لك... بحق الرب! افعل ما أطلبه منك. عد الآن وإياك أن تخطو بقدميك على المستنقع مرةً أخرى!

ـ لكنني جئت للتو...!

فصاحت:

ـ يا رجل! ألا يمكنك أن تدرك متى يتعلق التحذيرُ بمصلحتك الشخصية؟ أقول لك ارجع إلى لندن. سافر هذه الليلة! وابتعد عن هذا المكان مهما كلف الأمر! صه! فأخي قادم، ولا تقل كلمة مما قلته لك الآن!

وقالت:

ـ هل يمكنك أن تقطف زهرةَ السحلبية تلك من أجلي... تلك التي وراءك من بين أزهار ذيول الأفراس؟ لدينا في منطقة المستنقع ثراء بزهور الأوركيد، ورغم ذلك طبعًا أنت متأخر عن رؤية مشاهد الجمال في هذا المكان.

توقف ستابلتون عن مطاردة الفراشة، وعاد وهو يتنفس في صعوبة ووجهه محتقن بسبب الإجهاد. قال:

ـ أهلًا! بيرل.

بدا لي أن نغمةَ صوته في هذه التحية، لم تكن وديةً من أعماق قلبه بالكامل!

ـ حسنٌ، يا جاك أنت متحمس جدًا!

ـ نعم، لقد كنتُ أطارد فراشة السايكلوبيدس. إنه نوع نادر جدًا، ومن القليل رؤيته في أواخر الخريف. أسفي على فقدان هذه الفرصة!

قال ذلك بلا انقطاع، لكن عيونه الصغيرة الخفيفة تحولت بالنظر من الفتاة نحوي!

ـ أستطيع أن أرى أنكما تعارفتما.

ـ نعم، لقد كنتُ أخبر السير هنري، أنه متأخر عن رؤية مناظر الجمال هنا على المستنقع.

ـ لماذا؟ ومَن تظنين أن هذا يكون؟

ـ لقد تصورتُ أن هذا يجب أن يكون السير هنري باسكرفيل!

ـ لا، لا، أنا إنسان متواضع من العامة، أنا صديقه، اسمي دكتور واتسن.

ومرّت سورةٌ من الغيظ على وجهها المعبّر، وقالت:

ـ لقد كنا نتكلم على أمور عابرة.

فعلّق أخوها بعيونه المتسائلة نفسها:

ـ لماذا؟ فأنتِ لم يكن لديكِ كثيرًا من الوقت للكلام.

ـ لقد تكلمتُ كما لو كان دكتور واتسن مقيمًا بدلا من كونه مجرد زائر. لم يكن يهمه كثيرًا سواء أكان مبكرا أم متأخرًا على وقت زهور الأوركيدات! ولكن ستأتي معنا، أليس كذلك، وسترى فيلا ميريبيت؟

سرنا لمسافة قصيرة فوصلنا إلى الفيلا، كانت مسكنًا منعزلًا وكئيبًا، في ما مضى من أيام بهيجة كانت بيت حقلٍ لبعض مربي الماشية، وهي الآن تحت الإصلاح، وقد تحولت إلى مأوى مجدد يحيط به بستان، كانت الأشجار كالمعتادة الموجودة في أرض المستنقع، قزمة وواهية ومقصوصة. وكان التأثير الكلي والانطباع من هذا المكان هو الرداءة والكآبة.

استقبلنا خادم غريب ذابل الهيئة، ويرتدي معطفًا بلون الصدأ، وبدا لي أنه هو المعني بأمور الفيلا. في الداخل، كانت هنالك غرف كبيرة ومؤثثة، ظهر لي أنها بفعل ذوق سيدة. عندما تطلعتُ من نوافذ الفيلا، باتجاه المستنقع المبقع بالغرانيت الممتد إلى ما لا نهاية، متدحرجًا بلا انكسار إلى الأفق الأبعد، لم أستطع إلا التعجب، مما جعل هذا الرجل عالي التعليم وزوجته الجميلة يعيشان في مكان كهذا!

قال هو وكأنما يردّ على أفكاري:

ـ بقعة غريبة اخترناها، أليس كذلك؟ مع ذلك نحن ندبر أمورنا لنجعل أنفسنا سعداء بشكل مرضٍ، ألسنا كذلك يا بيرل؟

ـ سعادة كاملة!

ولكن لم تكن في كلماتها نغمة الاقتناع!

قال ستابلتون:

ـ أنشأنا ذات مرة مدرسة، وكانت في الريف الشمالي، وكان العمل بالنسبة إلى رجلٍ مثلي، بهذا الطبع الحساس والمزاج، آليًا لا توجد فيه إثارة، لكن امتياز العيش مع الشباب، والمساعدة على تكوين عقولهم الغضة، والتأثير فيهم بشخصية الفرد وأفكاره، كل ذلك كان عزيزًا عليّ. في أي حال، كانت الأقدار ضدنا، إذا أصاب المدرسةَ وباء خطر، ومات ثلاثة من الأولاد! ولم تتعاف المدرسةُ من هذه الضربة، وضاع قسم كبير من رأسمالي إلى غير رجعة. ولذلك، إذا لم يكن الأمر متعلقًا بخسارة سحر الرفقة مع الأولاد، فأنا استطعت الابتهاج على ما لدي من حظ سيء، بما أملكه من توجهات واهتمامات قوية في علمي النبات والحيوان. وجدت ميدانا عمليًا غير محدود هنا، وزوجتي مكرسة للطبيعة مثلي تمامًا. كل هذا يا دكتور واتسن، جيء به على ذهنك، بعد انطباعك عندما تأملتَ منظر المستنقع خارج نوافذنا.

ـ من المؤكد أن ذلك مرّ على ذهني، وهو ممل قليلًا، بشكل أقل لك ربما من الذي لدى أختك.

فقالت في سرعة:

ـ لا، لا، أنا لا أشعر بالملل أبدًا... فلدينا كتب، ولدينا دراساتنا، ولدينا جيران مثيرون للاهتمام: يُعد دكتور مورتمر الأكثر براعة وتخصصًا في مجاله، والمرحوم السير تشارلز كان أيضًا رفيقًا مميزًا، لقد كنا على معرفة جيدة بهم، وأنا أفتقدهم أكثر مما يمكنني التعبير عنه. أتظن أنه سيكون من التطفّل إذا اتصلتُ بالسير هنري بعد الظهر للتعرف إليه؟

ـ أنا واثق أن هذا سيسرّه.

ـ إذن ربما ستذكر له أنني أعدّ لذلك الأمر. ونحن بطريقتنا المتواضعة نفعل شيئًا لجعل الأمور أسهل له، حتى يصبح منسجمًا ومتلائمًا مع محيطه الجديد. هل لك يا دكتور واتسن، أن تصعد معي إلى الأعلى، لتطلع على مجموعتي من الحشرات ذات الحراشف؟ فأنا أزعم أنها المجموعة الأكمل في جنوب غرب إنكلترا. وللمناسبة، فبينما تشاهدها سيكون الغداء جاهزًا تقريبًا.

لكنني كنتُ حريصًا على العودة إلى مسؤوليتي، فإن كآبة المستنقع، وموت المهر التعيس، والصوت الغريب المرتبط بأسطورة عائلة باسكرفيل النحسة، كل هذه الأمور صبغت أفكاري بالحزن. ثم على رأس هذه الأمور، أو ربما الأقل فيها، الانطباع الملتبس

الغامض الذي حدث، وهو التحذير المحدد والواضح من الآنسة ستابلتون، التي نبأت به مع تركيز شديد الجدية، جعلني لا أشك في وجود سبب مهم وعميق يكمن تحته.

قاومتُ كل ضغط دعوتهم لي، إذ رفضت البقاء من أجل الغداء، وانطلقت حالًا في رحلة عودتي، واتخذت طريق العشب النامي الذي أتينا منه. وفي أي حال، يبدو أن هنالك طريقًا مختصرًا لمن يعرفونه، لأنني قبل أن أصل إلى الطريق، كنتُ متفاجئًا لرؤية الآنسة ستابلتون تجلس على صخرة على جانب الطريق!! كان وجهها جميلًا مشرقًا بالحمرة بسبب الإجهاد، وقد جعلت يدها على جانبها. وقالت:

ـ لقد ركضتُ طول الطريق لأعترض مسيرك يا دكتور واتسن، حتى إنني لم يكن لدي وقت لأضع قبعتي، يجب أن لا أتوقف، وإلا فسيفتقدني أخي! لقد أردتُ أن أخبرك عن شديد أسفي، بسبب خطئي الغبي الذي ارتكبتُه، عندما ظننت أنك السيرَ هنري. أرجوك سامحني، وانسَ تلك الكلمات التي لا صلة لها بك مهما كنت.

ـ ولكن لا يمكنني نسيانها! أنا صديق السير هنري، ورعايته شأن يخصني جدًا. أخبريني لماذا كنتِ حريصةً جدًا على وجوب عودة السير هنري إلى لندن؟

ـ نزوة المرأة وطبعها! يا دكتور واتسن! عندما تعرفني أكثر، ستفهم أنني دائما لا أستطيع تقديمَ الأسباب لما أقول أو أفعل!

ـ لا، لا، أنا أتذكر الإثارة في صوتكِ، والنظرةَ في عينيكِ! أرجوكِ، أرجوكِ، كوني صريحة معي، يا آنسة ستابلتون، لأنني منذ حللتُ هنا وأنا أشعر بالقلق من الظلال والأشباح حولي! وكأن الحياة كلها صارت عبارة عن مستنقع غرمبين المميت الكبير، بالبقع الخضر الصغيرة في كل مكان، والتي يمكن أن تُغرق واحدة منها المرءَ، وما من دليل ليهديه إلى طريق النجاة. أخبريني إذن، ماذا كنتِ تقصدين، وأنا أعدكِ بتبليغ تحذيركِ هذا إلى السير هنري.

للحظة واحدة ظهر على وجهها تعبير التردد والحيرة، لكن عيونها عادت لتقسو من جديد، عندما أجابتني:

ـ أنتَ تبالغ كثيرًا في هذه المسألة يا دكتور واتسن. أنا وأخي كنا في صدمةٍ كبيرة بسبب وفاة السير تشارلز. لقد عرفناه بصورة حميمة، لأنه كان يفضّل زيارته إيانا في بيتنا على كثير من مناطق المستنقع. كان متأثرًا بصورة عميقة بتلك اللعنة التي حلّت على العائلة، وعندما حصلت المأساة، شعرتُ طبيعيًا بأن هنالك بعض الأسس والحقائق لهذه المخاوف التي عبّر عنها. لذلك كنتُ متوترة عندما سمعتُ بمقدم فرد آخر من العائلة ليعيش هنا، وشعرتُ بوجوب تحذيره من الخطر المحدق به! وهذا كان كل ما قصدتُ أن أبلغه.

ـ ولكن ما يكون ذلك الخطر؟

ـ أنت تعرف قصة ذلك الكلب، صحيح؟

ـ أنا لا أؤمن بمثل هذا الهراء.

ـ لكنني أؤمن! إذا كان لديك أي تأثير على السير هنري، فأبعده عن هذا المكان الذي طالما كان مميتًا لعائلته. والعالم كبير، فلماذا يرغب هو بالعيش في مكان خطر؟

ـ هو يرغب في ذلك، لأنه مكان خطر أصلًا! فهذه هي طبيعة شخصية السير هنري. أظن أن ما لم تقومي بإعطائي معلوماتٍ محددة، أكثر من هذا الذي قلته، فسيكون من المستحيل زحزحته من هذا المكان.

ـ لا أستطيع أن أقول أي شيء محدد، لأنني لا أملك أي معلومات!

ـ اسمحيلي يا آنسة ستابلتون بسؤال آخر: إن لم تكوني تقصدين معنى أكثر مما قلتِ في المرة الأولى عندما تكلمتِ معي، فلماذا لم تكوني راغبة في أن يسمع أخوكِ ذلك الكلام؟ إذ ليس فيه أي شيء، يمكن أن يُعترض عليه منه أو أي شخص آخر.

ـ أخي مهتم جدًا أن تُستوطن تلك الفيلا، لأنه يفكر أن هذا في صالح الناس البسطاء في المستنقع، إنه سيغضب جدًا إذا عرف أنني قلتُ لك أي شيء، يحث على مغادرة السير

هنري. بهذا أكون قد أنجزتُ مهمتي الآن، ولن أقول شيئًا آخر. يجب أن أعود، وإلا فإنه سيفتقدني وسيظن أنني قابلتك، وداعًا.

استدارت ومضت لتختفي بعد دقائق بين الصخور المتناثرة. أما أنا، بروحي الممتلئة بالمخاوف الغامضة! فقد تابعت طريقي إلى فيلا باسكرفيل.

٨ – التقرير الأول من الدكتور واتسن

بدءًا من هذه النقطة فصاعدًا، سوف أتبع مسار الأحداث من خلال رسائلي الوصفية إلى شارلوك هولمز. ها هي مطروحة أمامي على المنضدة، صفحة واحدة مفقودة، لكن بخلاف ذلك، المجموعة كما كُتبت بالضبط، وتظهر مشاعري وشكوكي في لحظتها، واضحةً كأنها في صميم الأحداث المأساوية! بدقة أفضل مما تفعله ذاكرتي.

فيلا باسكرفيل

١٣/ تشرين الأول

عزيزي هولمز

لقد تمكنتُ عبر رسائلي وبرقياتي السابقة، من أن أطلعك بصورة جيدة وكافية على كل ما يحدث أولًا بأول، في هذه الزاوية الضائعة البائسة من العالم! كلما أطال الفرد بقاءه هنا، استحوذت عليه روح المستنقع واستقرت في أعماقه. إنها منطقة مفتوحة ورحبة لكن سحرها كالح! حالما تكون في الخارج في أحضان الطبيعة، فإنك ستترك كل آثار الحضارة الإنكليزية خلفك، لكن من جانب آخر، ستكون واعيًا ومدركًا لوجود بيوت وأعمال تعود لناس في ما

قبل التاريخ... وسترى في كل جانب حيثما سرتَ بيوتًا لأولئك الناس المنسيين، وقبورهم، وأحجار المُنُليث الضخمة([29])، التي يُفترض أن تكون علامات على معابدهم.

عندما تشاهد أكواخهم من الحجارة الرمادية المحفورة في جوانب التلال، فإنك ستنسى كل شيء وتترك عمرك وراءك. وإذا كنتَ هنا لترى الرجل ذا الشعر والملبس الجلدي، يزحف خارجًا من الباب المنخفض، يهيئ سهمه ذا الرأس من حجر الصوان على وتر قوسه، إذن لشعرت آنذاك أن وجوده هنالك كان أكثر طبيعية مما لدينا. الأمر الغريب هو أنه كان عليهم أن يعيشوا في ثبات واستقرار، على ما قد قدّر أن يكون التربة الأقل خصبًا وفوائد وثمارًا. لستُ مختصًا بالآثار، لكن يمكنني أن أتخيل أنهم كانوا نوعا ما غير مولعين بالحروب، وأنهم جنس مغزو ومهتضم! أُجبروا على الوجود هنا، وذلك ما لا يرغب في سكنه أحد.

كل هذا ـ في أي حال ـ غريب عن المهمة التي أرسلتني فيها، وسيكون في الأرجح غير مثير لعقلك العملي النشيط. إنني ما أزال أتذكر لامبالاتك سواء أكانت الشمس تدور حول الأرض، أم الأرض تدور حول الشمس! لذلك، لندع هذا جانبًا، ونركز في الوقائع والتفاصيل المتعلقة بالسير هنري باسكرفيل. لم أرسلْ أي تقرير إليك في الأيام القليلة

[29] (monolith) كتل حجرية عمودية منفردة تكون عمودًا أو نصبًا.

الماضية، بسبب عدم وجود أي شيء مهم يرتبط بالقضية حتى اليوم. ثم حدث أمر مفاجئ جدًا، سوف أخبرك عنه في الوقت المناسب، لكن قبل كل شيء، ينبغي لي أن أبقيك مطلعًا على بعض العوامل الأخرى في الموقف.

واحد من هذه العوامل ـ وهو يتعلق قليلًا بالذي ذكرتُه ـ هو الهارب المدان المختبئ في المستنقع. هنالك سبب قوي الآن، لكي نصدّق أنه قد نجح في الفرار والابتعاد تمامًا، وهذا ما يعد راحةً كبيرة لسكنة البيوت الوحيدين في هذه المنطقة. لقد انقضى أسبوعان منذ هروبه، وخلالها لم يُر له أثر، ولم يُسمع عنه أي شيء. من المؤكد أنه لا يُتصور أنه قُبض عليه في منطقة المستنقع خلال كل ذلك الوقت. بالطبع، ليس صعبًا كليًا أن يختفي هنالك حتى هذا الوقت، فأي واحدة من هذه المساكن الحجرية ستوفر له مخبأ جيدًا، ولكن لا شيء ليأكله، إلا بأن يسعى لسرقة واحد من أغنام المستنقع وذبحه. لذلك، نحن نعتقد أنه قد رحل عن هنا، ولذلك أيضًا ينام المزارعون المنعزلون في الأطراف البعيدة في هناء.

نحن أربعة رجال قادرون جسديًا في هذه الفيلا، لذا نستطيع أن نعتني بأنفسنا جيدًا، ولكن عليّ أن أعترف، أنني قد مرّت علي لحظات مقلقة عندما فكرت بآل ستابلتون، إنهم يعيشون بعيدًا عن أي إمكانية لمساعدتهم وقت الحاجة. هنالك خادمة واحدة، ومدبر المنزل العجوز، والأخت، والأخ، أما هذا الأخير فليس رجلًا قويًا جدًا! بهذا سيكونون

عاجزين أمام أي شخص دنيء مثل هذا المجرم، في حال تمكن من الدخول إليهم. كلانا أنا وهنري كنا قلقين على موقفهم، واقتُرح أن يذهب بيركنز السائس، ويقطع المسافة على المستنقع هنالك ليبيت عندهم، لكن ستابلتون رفض ذلك قطعيًا!

الحقيقة أن صديقنا البارون، بدأ يُظهر اهتمامًا ملحوظًا نحو جارتنا الجميلة! وهذا أمر لا يمكن أن نستغربه منه، لأن الوقت هنا يمر في ثقل وبطء، بالنسبة لرجل نشيط مثله في هذه البقعة المعزولة، ومن جهة أخرى، تلك الآنسة فاتنة وجميلة جدًا. هنالك شيء ساخن وغريب فيها! مما يكوّن فارقا مميزًا عن أخيها البارد متبلد الحس. ومع ذلك، فهو يعطي فكرة عن النيران الخفية، فلديه بكل تأكيد تأثير واضح فيها، لأنني رأيتها تراقبه في استمرار عندما تتكلم، خشية أن يكون عنده اعتراضٌ على ما تقول. أنا واثق أنه عطوف عليها، هنالك بريق جاف في عينيه، وصلابة وعزم في شفتيه، ذلك الذي ينسجم مع الطبيعة الإيجابية وربما القاسية، أظن أنه قد يكون موضوعًا دراسيًا مثيرًا لك!

في اليوم الأول جاء لمقابلة باسكرفيل، وفي الصباح التالي، أخذنا كلينا مبكرين ليرينا البقعة حيث بداية أصل أسطورة هوغو الشرير. كانت رحلةً قصيرة لبعض الأميال عبر المستنقع، إلى مكان يقبض الصدر، حيث يفترض أن القصة بدأت. وجدنا واديًا قصيرًا بين تلال وعرة، يقود إلى فضاء مفتوح ومعشب، ومرقط بنباتات القطن الأبيض. في الوسط

ينهض حجران عظيمان، بنهاية عليا متآكلة وحادة، حتى يبدوان كأنهما نابان ضخمان متآكلان ينتميان لأحد الحيوانات المتوحشة. بكل الطرق كان كل شيء متوافقًا مع مشهد المأساة القديمة.

كان السير هنري مهتمًا وشغوفًا جدًا، وسأل ستابلتون أكثر من مرة، عن إيمانه بإمكانية التدخل الخارق للطبيعة في شؤون البشر. تكلم الأخير بنبرة عدم الاكتراث، لكن كان من الواضح عليه أنه جديٌّ جدًا. كان ستابلتون متحرزًا في إجاباته، ومع ذلك كان من السهل أن ترى أنه قال أقلّ مما يعتقد، ولذلك لم يعبر عن رأيه كله، انطلاقًا من مراعاة مشاعر البارون. أخبرنا بقضايا مشابهة، حيث عانت العائلات من بعض التأثير الشرير، وتركنا مع انطباع ووقْع، بأنه يشارك الرأي العام في وجهة نظره نحو هذا الأمر.

في طريق عودتنا، ذهبنا إلى فيلا ميريبت للغداء، وهنالك جرى التعارف بين السير هنري والآنسة ستابلتون. من اللحظة الأولى التي رآها فيها، ظهر عليه الانجذاب الشديد نحوها، ولن أكون مخطئًا إذا قلتُ إن شعورها نحوه كان بالمستوى نفسه. في طريق عودتنا مشيًا نحو فيلا باسكرفيل، تطرق لذكرها مرةً بعد أخرى! ومنذ ذلك الحين، من النادر أن يمرّ يوم لا نرى فيه الأخ والأخت بعض الوقت. لقد تناولوا العشاء هنا هذه الليلة، وهنالك حديث حول دعوتنا للذهاب لهم في الأسبوع القادم.

ربما يتصور المرء أن كثيرًا من التقارب بينهما سيكون موضع ترحيب من ستابلتون، لكنني لمحت أكثر من مرة نظرةً من الاستنكار الشديد في وجهه! عندما كان السير هنري يبدي بعض المودة لأخته، فستابلتون شديد التعلق بأخته، وبلا شك، فإنه من دونها سيمضي حياته وحيدًا، لكنه سيكون في قمة الأنانية إذا اعترض طريق أخته نحو هذا الزواج الرائع، لأنني متأكد أنه لا يرغب في تقاربهما الحميم، لكي لا يتحول إلى حب. وفي بعض المرات رأيتُ أنه كان يعاني ويتألم، من أجل أن يمنع أي حديث خاص مع بعضهما. للمناسبة، فإن تعليماتك لي، تلك الخاصة بعدم السماح للسير هنري بالخروج وحده، ستمسي مرهقةً وشاقة جدًا ـ إذا تدخل الحبُ عاملًا إضافيًا إلى مصاعبنا ـ وستتراجع حظوتي وشيكًا جدًا، إذا كنتُ سأنفذ أوامرك بالحرف الواحد.

في اليوم الآخر ـ وهو الخميس كي أكون دقيقًا ـ تناول دكتور مورتمر الغداءَ معنا. كان قد قضى وقتًا في الحفر الآثاري في رابية في لونغ داون، وعثر على جمجمة تعود لما قبل التاريخ، جعلته في أجمل فرح وسعادة! ولم يكن هنالك عقل منفرد ومتحمس مثله! بعدئذ أتى آل ستابلتون، وأخذنا الطبيبُ كلنا إلى الممر الشجري تلبيةً لطلب السير هنري، ليرينا بالضبط كيفية ما حدث في تلك الليلة القاتلة. كان الممر ممشى طويلًا وكئيبًا، يقع بين جدارين شجريين عاليين وكثيفين، مع شريط ضيق من العشب على كل جهة، وعند النهاية البعيدة يقع هنالك بيت صيفي متهدم. وفي منتصف المجاز هنالك باب نحو المستنقع،

حيث أسقط الجنتلمان العجوز رماد سيجاره، كان بابًا خشبيًا أبيض ذا مزلاج، وخلف ذلك الباب كان تمتد أرض المستنقع...

لقد تذكرتُ نظريتك في هذا الشأن، وحاولت تصوّر كل ما حدث: عندما كان الرجل العجوز واقفًا هنالك، رأى شيئًا ما قادمًا من المستنقع، شيئًا أفزعه فأفقده صوابه! فركض وركض حتى سقط ميتًا بسبب الرعب الهائل والإجهاد! هنالك كان مكان هروبه في النفق الطويل المظلم. هرب من أي شيء؟ أمن أحد كلاب الرعاة؟ أم من كلب شبحيٍ أسود صامت وضخم كالوحش؟ هل كانت هنالك قوة بشرية في الأمر؟ هل يعرف باريمور ذو الهيئة الشاحبة المطلع تمامًا أكثرَ مما رغب في قوله؟ كان كل شيء معتمًا وملتبسًا، دائمًا يكون هنالك الظل القاتم خلف الجريمة...

التقيت بالجار الآخر منذ كتبتُ آخر مرة، وهو السيد فرانكلاند، صاحب فيلا لافتر. إنه يعيش على مسافة أربعة أميال تقريبًا إلى الجنوب من مسكننا، إنه رجل طاعن في السن، وسيء المزاج! وجهه أحمر، وشعره أبيض. لديه شغف بالقانون البريطاني، إذ أنفق ثروةً كبيرة في النزاعات القانونية، وقاتل من أجل لذة القتال المجردة، وهو مستعد بشكل متساو للاصطفاف مع أي جانب من جوانب القضية! لذلك لا عجب أن وجدها تسليةً مكلفة! في بعض الأحيان يغلق طريقًا لأمر ما، ثم يعود ليتحدى الرعية من أجل فتحه! بالنسبة

للآخرين، سيقوم بيديه بهدم بوابة أي رجل، ويعلن أن هنالك ممرًا موجودًا منذ الأزل، وفي الوقت نفسه يتحدى المالك على أن يقاضيه بسبب الاقتحام والتعدي!

إنه مطلعٌ على الحقوق الإقطاعية والعمومية، ويطبّق معرفته أحيانا لصالح القرويين من فيرنورثي وأحيانًا ضدهم، ولذلك فإنه بشكل دوري: إما أن يُحمل على الأكتاف في شارع القرية ابتهاجًا بالنصر، أو أن تحرق دميته الرمزية! ذلك وفاقًا لمأثرته الأخيرة. يقال إنه متورط في سبعة قضايا قانونية في الوقت الحالي، ويُحتمل أن هذا سيبتلع بقية ثروته، ويؤدي إلى نزع شوكته، ويجعله مسالمًا غير مؤذٍ في المستقبل.

بعيدًا عن أجواء القانون يبدو فرانكلاند عطوفًا وشخصًا حسن المحيا، وأنا لم أذكره بهذا التفصيل، إلا التزامًا بتوجيهاتك الخاصة بوصف الناس المحيطين بنا. إنه الآن منشغل في فضول من أجل أن يكون فلكيًا هاويًا، فلديه تلسكوب ممتاز، نصبه على سطح منزله، وبه يتفحص أرضَ المستنقع طول اليوم لعله يرى المجرم الهارب.

إذا اقتصرت جهوده على هذه النشاطات فسيكون هذا حسنًا، لكن هناك إشاعات حول أنه سيقاضي دكتور مورتمر، لنبشه قبرًا بلا رخصة من أسلاف الميت، لأن دكتور مورتمر حفر واستخرج جمجمة العصر الحجري الحديث، من رابية في لونغ داون. إنه يساعد على

الحفاظ علينا متجددين بعيدًا عن الرتابة، ويمنح قليلًا من الغوث بمشاكساته حين نكون بأمس الحاجة لها!

والآن، بعد أن أخبرتكَ بآخر المستجدات حول المجرم الهارب، وآل ستابلتون، ودكتور مورتمر، وفرانكلاند من فيلا لافتر، دعني الآن أنهِ لكَ ما هو الأهم، وهو أن أخبرك بالمزيد حول آل باريمور، وحول التطور المفاجئ في الليلة الماضية خاصة.

قبل كل شيء، سأخبرك عن برقية الاختبار، التي أرسلتَها من لندن لكي تتأكدَ من وجود باريمور الفعلي. لقد وضّحتُ قبل ذلك أن شهادة مدير البريد، تظهر أن الاختبار لم يكن فعالًا، وليس لدينا دليل بطريق أو بآخر. لقد أخبرتُ السير هنري كيف يجري الأمر، وهو ـ من فوره وبصراحته المباشرة المعهودة ـ نادى باريمور، وسأله عن تلقي البرقية بنفسه، فقال باريمور إنه تسلمها، فسأله السير هنري:

ـ هل سلّمها الصبيُ إليك بيديك؟

فبهت باريمور، وأخذ يفكر لوقت قصير.

ـ لا، لقد كنتُ في العلية، وزوجتي هي التي صعدت وأعطتها لي.

ـ وهل أجبت عن البرقية بنفسك؟

ـ لا، لقد أخبرتُ زوجتي بجوابي، وهي نزلت لتكتبه.

عند المساء، أثار باريمور ذكر الأمر الخاص بالتأكد:

ـ لم أستطع تمامًا أن أفهم الهدفَ من أسئلتك هذا الصباح، يا سير هنري. أنا واثق أنهم لا يقصدون أنني فعلتُ أي شيء يفقدك الثقةَ بي، أليس كذلك؟

فكان على السير هنري أن يؤكد له بأن الأمر ليس على هذا النحو، وهدّأه وأرضاه بإعطائه قسمًا جيدًا من محتويات خزانة ثيابه القديمة، لأن الملابس قد وصلتْ كلها من لندن الآن.

السيدة باريمور مهمةٌ بالنسبة لي، إنها ضخمة، ذات شخصية صلبة، وغير منفتحة، ومحترمة بصورة كاملة، وتميل إلى أن تكون متطهرة متزمتة([30])، ولا يمكنك إلا بصعوبة أن تحدد أقل ملمح عاطفي، لأنني أخبرتكَ كيف ـ في الليلة الأولى هنا ـ سمعتُ بكاءها في مرارة! ومنذ ذلك الحين رأيت أكثر من مرة آثارَ البكاء في وجهها. هنالك حزن عميق ينخر في قلبها باستمرار. وأحيانًا أتساءل: ألديها ذكرى ذنبٍ ما تسكن روحها؟ وأحيانًا أظن أن

---

[30] (puritanical) شخص صارم جدًا في المسائل الأخلاقية أو الدينية. نسبةً إلى المذهب البيورتاني البروتستانتي في الدين المسيحي. ازدهر في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

باريمور له هيئة متسلطٍ على العائلة. لطالما شعرتُ بأن هنالك شيئًا مميزًا ومثيرًا للتساؤل في شخصية هذا الرجل، لكن مغامرة الليلة الماضية جعلت شكي يقينًا، وربما يكون أمرًا بسيطا ويسيرًا في نفسه.

أنت مطلع وتعلم جيدًا أنني لستُ من ذوي النوم العميق، ومنذ كوني حارسًا في هذه الفيلا، فإن غفواتي أمست أخف من قبل. في الليلة الماضية، وعند الساعة الثانية صباحًا، كنتُ قد انتبهتُ لسماع خطوات خفية تمر خلسة أمام باب غرفتي! فنهضت، وفتحت باب غرفتي واسترقت النظر. كان هنالك ظل أسود طويل ينسحب على طول الممر! كان ظلًا لرجل يسير في نعومة وخفة ويحمل شمعة، كان حافيًا ويرتدي قميصًا وبنطلونًا. لم أستطع إلا أن أرى هيكل جسده، لكنني عرفتُ من طوله أنه باريمور! مشى في بطء شديد وحذر، وكان هنالك شيء من ارتكاب الذنب والمكر في مظهره الكلي! أخبرتك من قبل، أن ذلك الممر معترض بوجود الشرفة التي تلتف حول داخل الفيلا، لكنه يستمر في الجانب البعيد. انتظرتُ حتى أصبح خارج النظر ثم تبعته، عندما سرتُ حول الشرفة كان قد وصل إلى نهاية الممر البعيد، فاستطعت أن أرى من وميض النور خلال باب مفتوح، أنه دخل منه إلى إحدى الغرف.

والآن، كل هذه الغرف غير مؤثثة وغير مسكونة، لذلك صارت مهمته أكثر غموضًا من قبل! سطع الضوء في ثبات كما لو كان يقف هو بلا حراك، فسرتُ في حذر على الممر بلا إحداث أي ضجة قدر المستطاع، واختلست النظر من زاوية الباب:

كان باريمور منحنيًا على النافذة، وممسكًا بالشمعة أمام الزجاج، وكان نصفٌ من جسمه باتجاهي، وبدا وجهه صارمًا مع ملامح توقعِ شيء، عندما كان يحدق في الخارج في ظلام المستنقع. ظل يراقب في تركيز واهتمام لمدة دقائق، ثم أصدر صوت تأوهٍ عميقٍ، وبحركة جزع بجسده أطفأ النور. عدت فورًا إلى غرفتي، ولم يمضِ إلا وقت قصير حتى مرّ عائدًا أمام غرفتي بالخطوات الخفية نفسها. بعد ذلك بوقت طويل، عندما أخذتني سنةٌ نوم خفيفة، سمعتُ صوت مفتاح يدار في قفل بمكان ما، لكنني لم أستطع تحديد مصدر الصوت.

لم أستطع أن أحزر معنى ما جرى، لكن هنالك أمرًا سريًا يجري في هذه الفيلا المظلمة الكئيبة، وعاجلًا أو آجلًا سنكشف عن ذلك السر. لا أريد إرباكك بنظرياتي، لأنك طلبتَ مني تزويدك بالوقائع فقط. لقد أجريتُ حديثًا مطولًا مع السير هنري هذا الصباح، وأعددنا خطةً لحملة مستندة إلى ملاحظاتي من الليلة الماضية. لن أتكلم عليها الآن، فهي ستكون الموضوع الشائق للقراءة في تقريري الثاني.

٩ – التقرير الثاني من الدكتور واتسن

ضوء على المستنقع

فيلا باسكرفيل

تشرين الأول/ ١٥

عزيزي هولمز

إذا كنتُ مُجبراً على تركك بلا معلومات في الأيام الأولى من مهمتي، فيجب أن تعرف وتقدّر أنني في سبيل التعويض عن ذلك الوقت الضائع، وأن تلك الأحداث الآن تزدحم في كثافة وسرعة علينا! في تقريري الأخير، أنهيتُ كلامي عند ذكرٍ مهم حول باريمور عندما كان قرب النافذة، وأما الآن فلدي كمية كافية أصلًا، والتي سوف ـ ما لم أكن مخطئًا كثيرًا ـ تفاجئك بشكل جيد. لقد أخذت الأمورُ منعطفًا لم أكن أتوقعه! ففي بعض الاتجاهات، وفي ظرف الثماني والأربعين ساعة الماضية أصبحت أكثر وضوحًا، وفي بعض الاتجاهات الأخرى أكثر تعقيدًا! لكنني سأخبرك بكل شيء وسوف تحكم على الأمور بنفسك.

في الصباح الذي تلا مغامرتي الليلية، سرتُ في الممر قبل تناول الفطور، وتفحصتُ الغرفة التي كان فيها باريمور الليلة الماضية. لقد لاحظت أن للنافذة الغربية ـ التي من خلالها

حدق باريمور بشكل مقصود جدًا ـ خصوصيةً من بين كل النوافذ الأخرى في الفيلا، فهي تقدم الإطلالة الخارجية الأقرب على المستنقع، وهنالك فتحة بين شجرتين، تمكّن الشخص من هذه النقطة من النظر نحو الأسفل تمامًا، بينما تكون من بقية النوافذ مجرد نظرة خاطفة، وهو أقصى ما يمكن الحصول عليه. لذلك فإن هذا يقودنا إلى أن باريمور ـ بما أنها هي النافذة الوحيدة التي كانت تخدمه في تحقيق غرضه ـ يجب أن يتطلع منها نحو شيء ما أو شخص ما على المستنقع. كانت تلك الليلة مظلمة جدًا، لذلك لم أتخيل كيف يكون بإمكانه أن يتوقع رؤية أي شخص. لقد صدمني أن من الممكن وجود شيء من مكيدة الحب يسري في هذا الأمر! وربما يكون للأمر صلة بذلك، بسبب حركاته التسللية وعدم الراحة التي تشعر بها زوجته. فباريمور رجل ذو هيئة بشخصية قوية، وله من الخصائص ما يجعله يستحوذ على قلب فتاة ريفية، لذلك فإن هذه النظرية تبدو كأن لها ما يدعمها من قرائن. إنّ فتحَ ذلك الباب الذي سمعتُ صوته بعد عودتي إلى غرفتي، يعني أنه كان قد ذهب إلى الخارج لأجل متابعة موعد سري. لذلك فكرتُ في هذا عند الصباح، وأنا أخبرك باتجاه شكوكي، مهما كانت النتيجة التي قد تُظهر أنه لا أساس لتلك الشكوك.

مهما يكن التفسير الحقيقي لتحركات باريمور، فإنني أشعر أن مسؤولية الاحتفاظ بها لنفسي ـ حتى أستطيع تبيّنها ـ أكثر مما في طاقتي! قابلت البارون في مكتبه بعد الفطور، وأخبرته بكل ما رأيته، لكنه كان أقل دهشة مما توقعت!

ـ لقد عرفتُ أن باريمور مشى في بضع ليالٍ، وكنتُ قد قررتُ أن أكلمه على هذا الشأن. سمعت خطواته مرتين أو ثلاثًا جيئة وذهابًا، عند هذا الوقت الذي أخبرتني عنه.

فاقترحتُ:

ـ إذن، ربما هو يزور تلك النافذة المحددة كل ليلة.

ـ ربما يفعل ذلك. وإذا كان الأمر على هذا النحو، فعلينا أن نكون قادرين على متابعته، ونرى الأمر الذي يشغله. أنا أتساءل ما الذي كان سيفعله صديقك هولمز لو كان هنا؟

ـ أنا متيقن أنه سيفعل بالضبط ما اقترحتَه أنت الآن: سيتبع باريمور ويرى ما يفعل.

ـ إذن علينا أن ننجز الأمر معًا.

ـ لكن من المؤكد أنه سيسمعنا.

ـ الرجل أصم قليلًا، وفي أي حال علينا أن نجازف بذلك. سنجلس في غرفتي منتظرين باريمور حتى يمر.

قال السير هنري ذلك وهو يفرك يديه سرورًا، كان واضحًا أنه رحب بهذه المغامرة، نوعًا من التغيير المثير لكسر رتابة الحياة الهادئة في المستنقع.

منذ وصولنا، كان البارون على صلة مع المعماري الذي حضّر المخططات للسير تشارلز، ومع المقاول من لندن، لذلك فنحن نتوقع تغييرات عظيمة تحدث هنا قريبًا. سيكون هنالك فنيو الديكور والأثاث من بلايموث، ومن الواضح أن لدى صديقنا أفكارًا كبيرة، ويقصد إلى عدم توفير أي جهد أو مصروفات في سبيل استعادة فخامة عائلته. عندما يُستكمل تجديد البيت وتأثيثه، فإن الزوجة هي كل ما يحتاج إليه بعد ذلك لتجعله متكاملًا. دعني أقل لك إن هنالك إشارات واضحة بصورة جيدة، بأن ذلك لن يكون ناقصًا، إذا كانت السيدة راغبة، لأنني نادرًا ما رأيت رجلًا مفتونًا بامرأة، أكثر مما كان هو مع جارتنا الجميلة الآنسة ستابلتون.

إن مسار الحب الحقيقي لا يسير في سهولة تمامًا، كما يرغب الفرد وتحت الظروف التي يتوقع. اليوم على سبيل المثال، تعكر سطحه بموجه غير متوقعة، جعلت صديقنا في حيرة وإزعاج كبيرين! بعد محاورتنا حول باريمور التي ذكرتها لك قبل قليل، وضع السير هنري قبعته على رأسه واستعد للخروج، وهذا بالطبع جعلني أفعل المثل، فنظر إلي في دهشة وفضول:

ـ ماذا! هل ستأتي أنت أيضًا يا واتسن؟

ـ يعتمد هذا على احتمال ذهابك إلى المستنقع.

ـ نعم بالفعل.

ـ حسنٌ، أنت تدري بماهية تعليماتي. أنا آسف لأنني أتدخل في شؤونك، لكنك سمعتَ بملء أذنيك كيف ألح هولمز عليّ بأن لا أتركك، لا سيما أن لا أدعك تذهب وحدك إلى المستنقع.

فوضع السير هنري يده على كتفي مع ابتسامة لطيفة:

ـ يا صاحبي العزيز. إن هولمز ـ بكل حكمته ـ لم يتوقع بعض الأمور التي حدثتْ منذ أن كنتُ هنا في المستنقع. أتفهمني؟ أنا متيقن أنك الرجل الأخير في العالم، الذي يتمنى أن يفسد عليّ بهجتي! يجب أن أذهب وحدي.

وضعني قوله في الموقف الأغرب والأكثر حيرة! كنتُ ضائعًا لا أدري ما أقول أو ما أفعل! لكن قبل أن أحسم أمري، التقط عصاه ومضى! عندما عدتُ للتفكير في الأمر عاتبني ضميري في قسوة، لأنني بأي ذريعة سمحتُ له بالخروج بعيدًا عن نظري؟ تخيلتُ ما الذي ستكون عليه مشاعري، إذا عدتُ إليك لأعترف، بأن قليلًا من سوء الحظ قد حدث خلال إهمال تعليماتك، أؤكد لك أن وجهي قد احمرّ بسبب تخيلي هذا. حتى الآن لم يكن متأخرًا جدًا على اللحاق به، لذا انطلقتُ فورًا في اتجاه فيلا ميريبيت، وأسرعت على طول الطريق بأقصى ما لدي من سرعة، من دون أن ألمح أي شيء من السير هنري، حتى وصلتُ إلى

النقطة حيث يتشعب عندها ممر المستنقع. هنالك ـ حيث خشيتُ أنني ربما أتيتُ في الاتجاه الخطأ، بعد كل هذا الجهد المضني ـ تسلقتُ تلةً استطعت منها أن أحظى برؤية، كان التل نفسه الذي يُقطع إلى حجارة سوداء، ومن ذلك المكان رأيته حالًا! كان على ممر المستنقع على بعد ربع ميل عني تقريبًا، وإلى جانبه كانت هنالك سيدة، لا يمكن إلا أن تكون الآنسة ستابلتون. من الواضح أنه كان هنالك تفاهم سابق بينهما، وأنهما التقيا عبر موعد مدبر.

كانا يمشيان في بطء، ومستغرقين في محاورة عميقة، ورأيتها تفعل حركات صغيرة وسريعة بيديها، كما لو كانت متلهفة جدًا في كلامها، بينما كان هو ينصت في اهتمام، لمرة أو مرتين هز رأيه تعبيرًا عن مخالفة قوية! وقفتُ بين الصخور أراقبهما، متحيرا ومشوشًا لا أدري ما خطوتي التالية! إن متابعتهم وخرقَ محاورتهم العاطفية الحميمة، تبدو إساءة وانتهاك خصوصية، لكن وظيفتي المحددة هي أن لا يغيب عن ناظري لحظة واحدة. التجسس على صديق كان مهمة بغيضة، فبقيتُ كما أنا، لم يكن أفضل من أن أراقبه من التل، لكي أرضي ضميري في ما بعد بالاعتراف له بما فعلت.

في الواقع، إذا حصل أي خطر مفاجئ يهدده، فإنني كنتُ بعيدًا لا فائدة مني، لكنني متأكد من أنك تتفق معي على أن وضعي ذاك كان صعبًا، ولم يكن في وسعي أي شيء آخر لأفعله. توقف صديقنا السير هنري والآنسة على الطريق، وكان منجذبين إلى عمق

محاورتهما، عندما اكتشفتُ فجأة أنني لم أكن الوحيد الذي أراقب مقابلتهما! استولت على ناظريّ حزمة من شيء أخضر يطفو في الهواء، وبلمحة أخرى أظهرت لي أنها محمولة على عصا، من رجل كان يتحرك على التربة المتكسرة. لقد كان ستابلتون مع شبكة فراشاته! كان قريبًا إلى الرفيقين أكثر مني، وكان يبدو أنه يتحرك في اتجاههما. في هذه اللحظة، وفي صورة مفاجئة، جذب السير هنري الآنسة ستابلتون إليه، لكن بدا لي أنها كانت تتلوى للابتعاد عنه، مع وجهها بالاتجاه المعكوس، فانحنى برأسه على رأسها، ورفعت هي يدًا واحدة كما لو أنها تحتج! وفي اللحظة التالية رأيتهما يفترقان ويستديران في سرعة!

كان ستابلتون سببَ مقاطعتهما، إذ كان يركض بهيئة فظة نحوهما، وشبكته السخيفة متدلية خلفه! كان يومئ بحركاته، بل كأنه يرقص منفعلًا أمام العاشقين! لم أستطع تخيّل معنى المشهد، بدا لي أن ستابلتون كان يستغل الموقفَ ليسيء للسير هنري، الذي حاول أن يقدم توضيحات عن موقفه، لكن ذلك تسبب بغضب أكثر لستابلتون الذي رفض قبولها، أما السيدة فقد وقفت في صمت متكبّر. أخيرًا استدار ستابلتون على عقبيه، وأشار بطريقة آمرة وحاسمة نحو أخته، التي ـ بعد أن ألقت نظرةً مترددة على السير هنري ـ سارتْ إلى جانب أخيها مبتعدةً.

أظهرت حركات غضب عالم الطبيعة، أن السيدةَ كانت من أسباب عدم سروره! وقف البارون دقيقة يحدق فيهما، ثم مشى في بطء على الطريق الذي أتى منه، ورأسه متدلٍ، وهي صورة الكآبة... لم أتمكن من تصور معنى كل ذلك، لكنني كنتُ خجلًا جدًا من رؤية مشهد عاطفيٍ من دون علم صديقي. نزلتُ راكضًا، لذلك لقيت البارون عند أسفل التل، كان وجهه محتقنًا بالغضب وحاجباه معقودين، مثل شخص يائس لم تنفعه محاولاته وذكاؤه:

ـ مرحى يا واتسن! من أين نزلت؟ لا أظنك ستقول إنك جئتَ خلفي على رغم كل شيء، صحيح؟

فسّرتُ له كل شي: كيف رأيتُ من المستحيل أن أبقى هناك، وكيف تبعته، وكيف شهدتُ كل ما حدث. للحظة قدحت عيونه شررًا نحوي، لكن صراحتي جرّدته من نار غضبه، وفي النهاية انفجر بما يشبه الضحك والبكاء معًا:

ـ ربما تفكر في وسط تلك البراري، أنها مكان آمن وجيد للرجل ليكون في وضع شخصي، ولكن يا ربي! كأن الريف كله قد خرج ليراني أتقرب وأتغزل! وأي غزل مسكين ذلك! أين حصلتَ على مكان لتجلس فيه؟

ـ كنتُ على ذلك التل.

ـ ها! تماما في الصف الخلفي.... لكن أخاها كان بارعًا بالمجيء إلى الأمام! هل رأيته كيف بزغ علينا فجأة؟

ـ نعم.

ـ هل ظهر لك من أخيها موقفٌ منه كجنونه هذا؟

ـ لا يمكنني القول إنه لم يحصل.

ـ أنا أجرؤ على القول لا! لطالما فكرتُ أنه قديس متكامل حتى اليوم، ولكن خذها مني: إما أنا أو هو، سيكون واحد منا في سترة المجانين! وفي أي حال، ماذا في شخصيتي أنا؟ لقد عشتَ قريبًا مني لأسابيع يا واتسن، فأخبرني بصراحة، الآن: أيظهر أي شيء منّي يمنع من أن أكون زوجًا جيدًا لامرأة أحببتُها؟

ـ يجب أن أقول لا.

ـ إنه لا يستطيع الاعتراض على مستواي المعيشي، فلا شك في أن لديه اعتراضًا على شخصيتي وذلك جعله لا يودّني! ولكن ما الذي لديه ضدي؟ أعرفُ جيدًا أنني لم أؤذِ رجلًا أو امرأة في حياتي، لذلك ما كان عليه أن يمنعني حتى من لمس أطراف أصابعها!

ـ هل قال ذلك؟

ـ نعم، وأكثر. أخبرك يا واتسن، إنا لم أعرفها إلا في هذه الأسابيع القليلة، ولكن منذ المرة الأولى شعرتُ أنها خُلقت من أجلي، وهي أيضًا كانت سعيدةً معي. وعلى ذلك أنا أقسم: هنالك نور في عيون المرأة يتكلم بصوت أعلى من الكلمات، ولكنه لم يتركنا معًا أبدًا، ولم يحصل إلا اليوم، حيث المرة الأولى التي حظيتُ بفرصة لتبادل كلماتٍ قليلة معها وحدها. كانت مسرورة للقائي، لكن عندما فعلتْ ذلك، لم يكن الحب هو ما أرادت أن تتكلم عليه، بل ولم ترد مني أيضًا أن أتكلم على ذلك، لو استطاعت إلى ذلك سبيلا! لقد استمرت بالعودة إلى كلامها نفسه، بتحذيري من خطورة هذا المكان! وأنها لن تكون سعيدة حتى أغادر.

أخبرتها أنني منذ رأيتها، لم أكن في عجلة من أمري للمغادرة، وإذا أرادت مني فعلًا أن أغادر، فإن السبيل الوحيد لذلك هو أن ترتب أوضاعها للرحيل معي. ومع ذلك، عرضتُ عليها وبإلحاح شديد الزواجَ مني، ولكن قبل أن تتمكن من الإجابة نزل علينا أخوها، يركض ووجهه كوجوه المجانين! كان وجهه غاضبًا وخاليًا من الدم! وكانت عيناه تقدحان بالضراوة والحنق. وأمطرني بالأسئلة: ما الذي كنتُ أفعله مع السيدة؟ وكيف تجرأتُ أن أعرض لها اهتماماتٍ كانت كريهة بالنسبة لها؟ وهل كنتُ أظن أنني إذا كنتُ بارونًا فإن هذا سيمكنني من فعل أي شيء أرغب فيه؟ لو لم يكن أخاها فأنا أعرف بشكل أفضل كيف أردّ

عليه، وقد أخبرته بأنني لم أكن خجلًا من إظهار مشاعري تجاه أخته، وبذلك كنتُ أرجو أن تشرفني هي بأن تصبح زوجتي.

بدا ذلك كأنه لن يجعل الأمر أفضل، ففقدتُ أعصابي أيضًا، وأجبته في غضب ربما بأكثر مما يجب، ذلك بالنظر إلى أنها كانت تقف قربنا. ثم انتهى الأمر بذهابه معها كما رأيتَ، وها أنا أمامك متحير، وفي وضع سيء كأي فرد في هذا الريف! أخبرني فقط ماذا يعني كل هذا؟ وسأكون مدينًا لك، أكثر من أي وقت مضى آمل فيه بأن أجازيك.

حاولتُ تقديمَ توضيح أو توضيحين، لكنني كنتُ أنا نفسي متحيرًا! فلقب صديقنا، وثروته، وعمره، وشخصيته، ومظهره كلها في صالحه وتؤهله، وأنا لا أعلم شيئًا يشينه إلا ما قد يكون من القدر المظلم الذي يسير في سلالته. كانت محاولاته للتقدم تُرفض بقسوة، بلا أي تقدير لرغبات السيدة الخاصة، وكان عجيبًا جدًا قبول السيدة هذا الوضع بلا احتجاج! في أي حال، كانت زيارة ستابلتون لنا في المساء نفسه قد أراحت شكوكنا وتساؤلاتنا، جاء ليقدم اعتذاراته وأسفه على سلوكه الفظ في الصباح. بعد مقابلة خاصة ومطولة مع السير هنري في مكتبه، كانت نتيجة اللقاء أن تم رأب الصدع تمامًا، ووجّه لنا الدعوةَ لتناول العشاء في فيلا ميريبيت الجمعة القادمة من أجل الصلح وإظهار حسن النوايا.

قال السير هنري:

ـ أنا لا أقول الآن إنه ليس رجلًا مجنونًا، فلا أستطيع نسيانَ النظرة في عينيه عندما ركض نحوي هذا الصباح، ولكن سأسمح لنفسي بالقول: لا رجل يمكنه أن يقدم اعتذارًا راقيًا أكثر منه حين فعل الآن.

ـ وهل قدّم أي توضيح يفسر سلوكه؟

ـ أخته هي كل شيء في حياته، وهذا أمر طبيعي بما فيه الكفاية، وأنا سعيد لأنه يجب أن يفهم ويقدر قيمتها. كانوا وما زالوا معًا، ووفاقا لما رواه، فإنه مرّ بوحدة كبيرة لم يكن له فيها من صاحب إلا هي. لذلك فإن فكرة فقدانها وابتعادها عنه فظيعة جدًا بالنسبة له. لكنه قال إنه لم يفهم أنني كنتُ أتقرب منها، ولكن عندما رأى بعينيه أن ذلك حق وواقع، وأنها ربما تُؤخذ منه بعيدًا، أصابه هذا بصدمة لبعض الوقت! ولم يكن في تمام وعيه ومسؤوليته عما قال أو فعل. كان متأسفًا على كل ما جرى، واعترف بأنه كان أحمقَ وأنانيًا، عندما تخيّل أنه يستطيع أن يمنع امرأةً جميلة مثل أخته، ويبقيها عنده طول حياته، وإذا وجب عليها أن تغادر من حياته، فالأولى أن تكون عند جيرانٍ مثلي أنا، أكثر من أي شخص آخر. لكن في أي حال، إنها صدمة له، ويتطلب إعداد نفسه لذلك بعض الوقت، وهو مستعد أن يسحب كل معارضته، إذا وعدتُه أن أتركَ الموضوع ثلاثة أشهر لتستقر الأمور، ويكون راضيًا

بتوطين الصداقة مع السيدة، لا أن أسميه حبًا خلال تلك المدة، فوعدتُ بالالتزام بهذا واستقر الأمر...

إذن، هنالك واحد من ألغازنا الصغيرة قد تم حله، هنالك شيء سيستقر في القاع في أي مكان من هذا المستنقع حيث نتخبط. نحن نعرف الآن لماذا نظر ستابلتون في كره وازدراء نحو خاطبِ أخته، حتى عندما كان ذلك الخاطب جديرًا جدًا مثل السير هنري. والآن أنا قد مررتُ نحو خيط آخر، حررته من خصلة خيوط متشابكة لأدرسه: لغز البكاءات الليلية وآثارها في وجه السيدة باريمور المبقع بالدمع، ولغز رحلة باريمور السرية إلى النافذة الغربية المضلعة.

هنئني يا عزيزي هولمز! وأخبرني بأنني لم أخيّب ظنك، عندما جعلتني وكيلًا، وأنك لا تندم على الثقة التي جعلتها فيّ عندما أرسلتني لأقيم هنا، فكل هذه الأمور قد حُلت بعمل ليلة واحدة. قد قلتُ: «بعمل ليلة واحدة»، لكن في الحقيقة، كان عمل ليلتين، ففي الأولى عدنا خاليي الوفاض، إذ سهرتُ مع السير هنري في غرفته، حتى ما يقارب الثالثة صباحًا، لكننا لم نسمع أي صوت باستثناء الساعة الدقاقة على السلّم. لقد كانت السهرة الأكثر مرارة وإزعاجًا، وانتهت بسقوطنا نائمينِ في كرسيينا. لحسن الحظ لم نشعر بالإحباط، وعزمنا على المحاولة مرة أخرى. في الليلة التالية خفضنا نور المصباح، وجلسنا ندخن السيجار بلا

إحداث أي نأمة، وكانت الساعات تمر في بطء شديد لا يُصدق، ومع ذلك، ساعدَنا خلال ذلك شعورُ الصابر المهتم، الذي لا بد أن يشعر به الصياد عندما يراقب الفخ، الذي يأمل أن تسير عليه الطريدة. ضربة واحدة، ثم اثنتان، وكدنا أن نصاب بالاستسلام لليأس مرة ثانية، عندما انتصبنا كلانا للحظة كالخشب في كرسيينا! وانتبهنا في حذر بكل حواسنا المنهكة لأي صوت آخر، لقد سمعنا صوت صرير خطوات في الممر! سمعنا الصوت الذي يمر على طول الممر في هدوء وتسلل، حتى اختفى في مسافة بعيدة، ثم فتح البارون باب غرفته وانطلقنا في المطاردة.

كان رجلنا قد اختفى مستديرًا حول المعرض، وكان كل الممر غارقًا في الظلام. تسللنا بخفة على طول الممر، حتى وصلنا إلى داخل الجناح الآخر، كنا في الوقت المناسب للحصول على نظرة خاطفة، إلى الشكل الطويل ذي اللحية السوداء والأكتاف المستديرة، عندما كان يخطو بأطراف أصابعه على أسفل الممر. مثل المرة السابقة اجتاز الباب نفسه، وأطّر ضوءُ الشمعة شكله في الظلام، وأرسل عمودًا من الضوء الأصفر عبر عتمة الممر. اندفعنا حذرين نحوه، وسرنا نجر أقدامنا في احتراس نحوه، نجرب كل لوح خشبي تحتنا قبل أن نجرؤ على وضع كل أوزاننا عليه!

كنا قد أخذنا احتياطاتنا بنزع أحذيتنا وتركها وراءنا، ولكن مع ذلك، كان للألواح صرير تحت خطواتنا. بدا في بعض الأحيان أن من المستحيل أنه لم يسمعنا نتقدم نحوه! وفي أي حال، فمن حسن الحظ أن الرجل أصم قليلًا، وكان منشغلًا بالكامل في ذلك الشأن الذي يفعله! أخيرًا، عندما وصلنا إلى الباب واختلسنا النظر خلاله، وجدناه منحنيًا على النافذة، والشمعة في يده، ووجهه الأبيض الحازم منضغط على اللوح الزجاجي، كما رأيتُه بالضبط قبل ليلتين.

لم نهيّئ خطة للمباغتة، لكن البارون رجل له أسلوبه المباشر دائمًا وهو الأكثر تلقائية! مشى داخل الغرفة، وعندما فعل ذلك قفز باريمور عن النافذة، مع صفير حاد من تنفسه، ووقف شاحبًا ومرتعدًا أمامنا! وعيناه الداكنتان تحدقان من خارج قناع وجهه الأبيض! وهما ممتلئتان بالفزع والدهشة، عندما حدق ناقلًا بصره بيني وبين السير هنري! قال السير هنري:

ـ ما الذي تفعله هنا يا باريمور؟

ـ لا شيء يا سيدي!

كانت إثارته عظيمة ولم يقدر على الكلام إلا بجهد، وكانت الظلال تتقافز إلى الأعلى والأسفل من شمعته المهتزة! وأكمل:

ـ إنها النافذة يا سيدي، أنا أطوف في الليل لأتأكد من إغلاق النوافذ بإحكام.

ـ في الطابق الثاني؟

ـ نعم سيدي، كل النوافذ.

فقال السير هنري في حزم:

ـ اسمعني جيدًا يا باريمور! لقد قررنا أن ننتزع الحقيقةَ منك، فسيجنبك المشاكلَ أن تخبرنا عاجلًا غير آجل. هيا الآن، وكفّ عن الأكاذيب! ما الذي كنتَ تفعله عند النافذة؟

نظر إلينا صاحبنا بنظرة العاجزين اليائسين، ولوى يديه معًا مثل شخص في أقصى الشك والتعاسة.

ـ لم أكن أفعل شيئًا مؤذيًا يا سيدي. كنت أمسك الشمعةَ أمامَ النافذة.

ـ ولماذا كنتَ تمسك الشمعة أمام النافذة؟

ـ لا تسألني، يا سير هنري، لا تسألني! أقسم لك يا سيدي، إنه ليس سري، ولذلك لا أستطيع إخبارك! لو كان الأمر متعلقًا بي ما كنت لأخفيه عنك.

فخطرت لي فكرةٌ مفاجئة، فأخذت الشمعة من يد باريمور المرتجفة:

ـ لا شك في أنه كان يمسك الشمعةَ مثل الإشارة! دعنا نرَ إن كانت هنالك أي استجابة.

أمسكتها مثلما كان يفعل هو، وحدقتُ في الخارج حيث ظلام الليل. بغير وضوح استطعتُ تمييز مجموعات الأشجار السود، والامتداد الأخف للمستنقع، لأن القمر كان وراء السحاب. بعد ذلك صحتُ صيحة الابتهاج، بسبب انبعاث ضوء أصفر صغير بحجم رأس الدبوس، خرق حجاب الظلام فجأة! وبرق في ثبات في مركز المربع المؤطر بالنافذة، فصحت:

ـ ذلك هو!

لكن باريمور تدخل وصاح:

ـ لا، لا، يا سيدي، إنه لا شيء، لا شيء في الإطلاق! أنا أؤكد لك يا سيدي...

فصاح البارون:

ـ حرّك ضوءك أمام النافذة يا واتسن. أترى؟ الآخر يتحرك أيضًا! والآن أيها الوغد! هل تنكر أنها إشارة؟ هيا، قل ما عندك! من المتحالفُ معك هنالك في الجهة البعيدة؟ وما هذه المؤامرة التي تحدث؟

فصار وجه الرجل جريئًا في قوة وانفتاح:

ـ إنه شأني الخاص، ولا علاقة لك به! لن أخبرك شيئًا!

ـ إذن، ينتهي الآن عملك عندي.

ـ جيد جدًا، يا سيدي. إن قررتُ أفعل!

ـ وأنت في المقابل تذهب في خزيك وعارك! يا للرب، ألا تخجل من نفسك؟ عاشت عائلتك معنا أكثر من مائة عام تحت هذا السقف، وها أنا الآن أجدك متعمقًا في مؤامرة مظلمة شريرة ضدي!

ـ لا، لا يا سيدي، ليست ضدك!!

كان صوتَ امرأة!! فإذا بالسيدة باريمور! وهي أكثر شحوبًا وفزعًا من زوجها، تقف عند الباب! ولولا حدة مشاعرها الظاهرة على وجهها، لكان شكلها الهائل في الشال والتنورة هزليًا ومضحكًا!

قال باريمور:

ـ علينا أن نغادر يا أليزا، هذه هي النهاية! يمكنكِ أن تحزمي أغراضكِ.



سير هنري، الأمر كله من فعلي وبسببي. زوجي لم يفعل شيئًا.

ـ آه يا جون، يا جون، هل ورطتكَ في هذا؟ يا سير هنري، الأمر كله من فعلي وبسببي.

إنه لم يفعل شيئًا إلا إرضاءً لخاطري، ولأنني طلبتُ منه ذلك.

ـ إذن قولي ما عندكِ... ماذا يعني كل هذا؟

ـ هنالك يختبئ أخي التعيس، وهو يتضور جوعًا على أرض المستنقع. لا يمكننا أن نتركه يهلك وهو قريب جدًا من بوابات الفيلا. هذا الضوء إشارة له بأن الطعام جاهز له، وضوؤه البعيد هنالك من أجل أن يُظهر البقعة، التي يكمن فيها ونرسل إليه بالطعام.

ـ إذن، أخوكِ هو...

ـ المدان الهارب، يا سيدي، هو سيلدن المجرم!

فقال باريمور:

ـ إنها الحقيقة يا سيدي. أنا قلتُ إنه لم يكن سري، ولذلك لم أستطع أن أخبرك به. لكنك الآن سمعته، والآن سوف تعرف إذا كانت هنالك أي مؤامرة فهي ليست ضدك، وهذا إذن كان تفسير ما يجري من حملات في الليل، وسر النور عند النافذة.

فحدقنا أنا والسير هنري مندهشين نحو المرأة! أمن الممكن أن هذا الشخص المحترم وهادئ الطبع، يكون من الدم نفسه مع واحد من أكثر المجرمين سيئي السمعة في البلاد!؟

ـ نعم، سيدي. لقب عائلتي كان سيلدن، وهو أخي الأصغر! لقد دلّلناه كثيرًا عندما كان يافعًا، وتركنا له حريةَ الحياة كما يشاء! حتى بلغ مرحلة ظن فيها أن العالم قد صُنع من أجل سعادته، وأن ذلك يسمح له بأن يفعل كل ما يريد. ثم عندما كبر ونضج تعرف إلى أصدقاء

السوء، ودخل الشيطان في روحه، حتى فطر قلب أمي وجعل سمعتنا في الوحل! من جريمة إلى جريمة، وهو يغرق ويتسافل أعمق فأعمق، وحدها الرحمة الإلهية التي أنقذته من أعواد المشنقة! لكن بالنسبة لي، يا سيدي، بقي ذلك الصبيَ الصغير بشعره المجعد الذي ربيته، واعتنيتُ به ولعبت معه، كما تفعل كل أخت كبيرة.

وهذا كان سبب هروبه من السجن، يا سيدي. لقد عرف أنني كنتُ هنا، ولم نستطع رفض تقديم العون له. عندما توغل إلى هنا في إحدى الليالي، منهكًا وجائعًا، وكانت الشرطة تطارده، فما الذي يمكننا فعله؟ أدخلناه، وأطعمناه واعتنينا به. ثم عدتَ أنت، فظن أخي أنه سيكون في أمان في المستنقع أكثر من أي مكان آخر، حتى تنتهي كل هذه الضجة. لذلك قبع في مخبئه هنالك.

في كل ليلة نتأكد من وجوده هناك بإشارة الضوء من النافذة، وإذا عرفنا بوجوده عبر جوابه بالضوء، فإن زوجي يذهب إليه ببعض الخبز واللحم. كل يوم كنا نأمل أن يرحل، لكنه طالما بقي هنالك فنحن لا نستطيع إهماله. هذه هي الحقيقة الكاملة أقولها وأنا امرأة مسيحية نزيهة، وستفهم أنه إذا كان هنالك أي لوم في المسألة، فإنه لا يقع على زوجي بل عليّ أنا، لأنه فعل كل ذلك من أجلي.

جاءت كلمات المرأة في جدية كبيرة فأدت إلى اقتناعنا بها!

ـ يا باريمور، هل هذا الكلام صحيح؟

ـ نعم يا سير هنري. كل كلمةٍ منه.

ـ حسنٌ، أنا لا أقدر على لومكَ لوقوفك إلى جانب زوجتك، فانسَ ما قلتُه قبل قليل. اذهبا إلى غرفتكما، وسوف نتكلم مزيدًا على هذا الموضوع عند الصباح.

عندما غادرا نظرنا خارج النافذة مرة أخرى، دفعها السير هنري وفتحها، فضربت رياحُ الليل البارد وجوهنا... بعيدًا في المسافة المظلمة، كانت نقطة صغيرة من الضوء الأصفر ما تزال تومض.

قال السير هنري:

ـ العجيب أنه يجرؤ على فعل ذلك!

ـ ربما يكون مختبئًا بشكل محصن جدًا فيكون مرئيًا فقط من هنا.

ـ محتمل جدًا. برأيك كم يبعد؟

ـ خارجًا عند هضبة كليفت حسبما أظن.

ـ ليس أكثر من ميل أو ميلين.

ـ وهذه أقصى المسافة.

ـ لا يمكن أن يكون بعيدًا ما دام على باريمور أن يخرج ويذهب إليه بالطعام. والوغد الجلف ينتظر قرب تلك الشمعة! يا للرب، يا واتسن، أنا سأخرج الآن لأقبض عليه!

كانت الفكرة نفسها قد مرت على عقلي. ليس الأمر كما لو أن آل باريمور قد وثقوا بنا، بل إن سرهم قد انتُزِع منهم إجبارًا. إن الرجل خطر على المجتمع، إنه وغد شرير! لذا لن تكون هنالك شفقة ولا عذر، لم نكن نفعل غير واجبنا في اغتنام الفرصة لإعادته إلى حيث لا يمكنه أن يؤذي. إن وحشيته وطبيعته القاسية ستجعل الآخرين يدفعون الثمن، إذا أمسكنا أيادينا عنه، ومن الممكن في أي ليلة على سبيل المثال، أن يهاجم جيراننا آل ستابلتون، وربما كانت هي الفكرة/ الدافع التي جعلت السير هنري متحمسًا جدًا في هذه المغامرة. قلت:

ـ سأذهب معك.

ـ إذن، خذ مسدسك، وارتدِ حذاءك الطويل. كلما أسرعنا كان أفضل، فصاحبنا قد يطفئ ضوءه ويهرب.

في ظرف خمس دقائق، كنا في الخارج على أرض المستنقع مبتدئين حملتنا. أسرعنا خلال الشجيرات المظلمة، وسط العواء الثقيل من الرياح الخريفية وخشخشة الأوراق المتساقطة. كان الهواء الليلي ثقيلًا ومشبعًا برائحة الرطوبة والعفونة، وبين الحين والآخر يبزغ القمر للحظة، لكنّ الغيوم كانت تمر على وجه السماء، وعند خروجنا على المستنقع بدأ مطر خفيف بالهطول، وأمامنا ما يزال الضوء الرفيع متقدًا في ثبات.

سألتُه:

ـ هل أنت مسلّح؟

ـ لدي السوط القصير.[٣١]

ـ يجب علينا أن نسرع في الاقتراب منه، لأنه كما قيل رجل بقلب ميت، فعلينا أن نفاجئه ويكون تحت رحمتنا قبل أن يفكر في المقاومة. أقول يا واتسن: ماذا قد يكون رأي هولمز في هذا؟ ماذا عن تلك الساعة من الظلام التي تستيقظ فيها القوة الشريرة؟

---

[٣١] (crop ـ hunting) سوط قصير صلب ذو مقبض، له طرف بزاوية قائمة وشريط جلدي رفيع يستعمل في ركوب الخيول وعند الصيد خاصة.

ومثل الجواب عن كلماته انبثقت فجأة من عتمة المستنقع الكبيرة، تلك الصرخة الغريبة التي سمعتها من قبل، على حافات مستنقع غرمبين الكبير!! لقد جاءت مع الرياح عبر سكون الليل. صوت دمدمة طويلة وعميقة، ثم عواء يرتفع، ثم الأنين الحزين الذي يتلاشى بعد ذلك، ثم يظهر الصوت مرة بعد أخرى، ويرتجّ الهواء كله به، حادًا وعاليًا، بريًا ومتوحشًا، ومهددًا! فأمسكَ البارون بكمي! وكان وجهه أبيض من الفزع خلال الظلام:

ـ يا إلهي! ما ذلك الصوت يا واتسن؟

ـ لا أعرف! إنه صوت لديهم هنا في المستنقع، سمعته مرة قبل هذا.

ثم اختفى الصوت، وحل علينا سكونٌ مطبق، فوقفنا وأرهفنا أسماعنا، ولكن لم يأتِ صوت آخر. فقال البارون:

ـ واتسن، لقد كانت صرخة كلب!

فجمد الدم في عروقي، لأن انكسارًا كان في صوته، يخبر عن حدوث فزع مفاجئ وهو الذي جمّده في مكانه. سألني:

ـ ماذا يدعون هذا الصوت؟

ـ من هم؟

ـ سكّان الريف.

ـ أوه! إنهم جهلاء! لماذا عليك أن تهتم لما يدعونه؟

ـ أخبرني يا واتسن، ما الذي يقولونه عنه؟

ترددتُ لكنني لم أستطع الفرار من سؤاله.

ـ إنهم يقولون إنه عواء كلب عائلة باسكرفيل!

فتأوه ثم سكن لبضع لحظات، ثم قال أخيرًا:

ـ كان كلبًا، لكنني أعتقد أنه يأتي من مسافة أميال بعيدة.

ـ من المستحيل أن نحدد من أين جاء.

ـ لقد ظهر مع الرياح ثم خمد معها. أليس ذلك هو اتجاه مستنقع غرمبين الكبير؟

ـ بلى.

ـ حسن، لقد كان هنالك. تعال الآن، واتسن. ألم تكن تظن أنه كان عواء كلب؟ أنا لست طفلًا. ولا تثريب عليك إن قلتَ الحقيقة.

ـ كان ستابلتون معي حين سمعته آخر مرة، قال لي إنه قد يكون صوت طائر غريب!

ـ لا، لا، لقد كان عواء كلب. يا إلهي، أهنالك بعض الحقيقة في هذه القصص؟ أهنالك احتمال أنني أكون في خطر حقيقي من سبب غامض فعلًا؟ أنت لا تؤمن بذلك، أليس كذلك يا واتسن؟

ـ لا، لا.

ـ كان أمرًا نضحك منه في لندن، لكنه أمر آخر أن نقف في الخارج هنا في ظلمة المستنقع، ونسمع مثل هذا الصراخ. وماذا عن عمّي! كانت هنالك آثار أقدام كلب قرب مكان جثته! كل هذا ينسجم مع بعض. أنا لا أعتقد أنني جبان، يا واتسن، لكن هذا الأمر بدا كأنه يجمد الدم في عروقي جدًا... إليك يدي تحسسها.

حقًا، كانت باردةً كقطعة من الرخام:

ـ ستكون على ما يرام غدًا.

ـ لا أظن أنني سوف أخرجُ ذلك الصوت من رأسي. ما الذي تنصحنا به الآن في موقفنا هذا؟

ـ ألا عدنا؟

ـ كلا! بحق الرب. لقد خرجنا لنمسك برجلنا، وسوف نفعل ذلك. نحن نطارد المدان الهارب، والكلب الجهنمي ـ ربما يكون أو لا يكون ـ يطاردنا. هيا بنا! سنراه نحن خلال ذلك، إذا كانت كل شياطين هذه الحفرة أُطلقت!

مشينا في بطء واضطراب على طول طريق العتمة، مع المظهر الأسود للتلال شديدة الانحدار حولنا، وما تزال بقعة الضوء الصفراء تومض باستمرار نحو الأمام. لن تجد هنالك أمرًا مضللًا جدًا، مثل مسافة عن النور في ليلة شديدة الظلمة كالقير الأسود. في بعض الأحيان بدا الوميض بعيدًا على الأفق، وأحيانًا أخرى يبدو ضمن مسافة ياردات قريبة منا. في النهاية استطعنا معرفة مكمن الضوء، وعندئذ عرفنا أننا كنا فعلًا قريبين جدًا. كانت هنالك شمعة مرتعشة وملصقة بين تجاويف الصخور، التي أحاطت بها من كل جانب، لكي تحفظها من هبوب الرياح، وكذلك تمنعها من أن تكون مرئية، باستثناء الاتجاه المباشر نحو فيلا باسكرفيل.

أخفى جلمود من الغرانيت تقربنا، وانحنينا ملتصقين به ونحن ننعم النظر في الإشارة الضوئية. لقد كان غريبًا أن ترى هذه الشمعةَ الوحيدة تحترق هنالك في وسط المستنقع، بلا أي إشارة على حياة قربها، إلا باللهب الأصفر المستقيم ولمعان الصخر على جوانبها.

همس السير هنري:

ـ ماذا علينا أن نفعل الآن؟

ـ ننتظر هنا. لا بد أن يكون قريبا من هذا الضوء. دعنا نر إن كان في إمكاننا أن نظفر برؤيته بنظرة خاطفة.

كانت الكلمات تخرج من فمي بشق الأنفس، عندما رأيناه أخيرًا فوق الصخور! في الشقوق حيث تحترق الشمعة، كان هنالك وجهٌ أصفر شرير يندفع خارجًا، كوجه حيوان فظيع! كان وجهه ممتلئًا بخدوش الأفعال المؤذية، وملوثًا بالوحل، وبلحية خشنة، ورأسه مضطرب بشعر أشعث متلبد، كأنه واحد من أولئك المتوحشين القدامى، الذين سكنوا في الأكواخ الحجرية على جوانب التلال. كان الضوء تحته ينعكس في عيونه الصغيرة الماكرة، التي تنظر في شراسة يمينًا وشمالًا خلال الظلام، مثل حيوان نشيط ومتوحش سمع خطوات الصيادين.

يتضح أن شيئًا ما قد أثار شكوكه! ربما كانت لباريمور إشارة خاصة معه قد فاتنا أن نعرفها منه، أو أن صاحبنا هذا كانت لديه أسباب أخرى، تجعله يعتقد أن الأمور ليست في خير، لكنني استطعت أن أقرأ مخاوفه في وجهه الوقح، وفي أي لحظة يمكن أن يطفئ الضوء ويختفي في الظلام. لذلك، قفزت نحو الأمام، وكذلك فعل معي السير هنري! في الوقت نفسه صرخ المجرم بأعلى صوته لاعنًا إيانا! ورشقنا بصخرة اصطدمت بالجلمود الذي كنا

نحتمي به فتكسرت إلى شظايا، ولمحت بنيته البدنية القوية المتينة القصيرة، عندما قفز على قدميه واتجه نحونا.

لحسن الحظ، بزغ القمر في تلك اللحظة نفسها من بين الغيوم، فاندفعنا على حافة التل، وكان هنالك رجلنا يركض بأقصى سرعته نازلًا نحو الجهة الأخرى. يقفز فوق الأحجار في طريقه، نشيطًا متحركًا كأنه ماعز جبلي! ربما أصيبه بإطلاقة محظوظة ذات مدى بعيد من مسدسي، لكنني قررتُ أن أجعل ذلك في حال الدفاع عن نفسي إذا هاجمني، ولا أطلق النار على رجل غير مسلح يركض هاربًا.

وكنا كلانا راكضين سريعين ومحافظين على لياقة وتدريب جيد، لكننا سرعان ما اكتشفنا أنه لم تكن هنالك فرصة للقبض عليه! بقينا نراه لمدة طويلة في ضوء القمر، حتى تحول إلى نقطة صغيرة، تتحرك في خفة وسرعة بين جلاميد الغرانيت على جانب تل بعيد. ركضنا وركضنا حتى أعيانا الركض السريع، لكن المسافة بيننا كانت تزيد وتزيد... عند النهاية توقفنا وجلسنا لاهثين على صخرتين، فيما راقبناه وهو يختفي في الظلام البعيد.

في تلك اللحظة، حدث الأمر الأغرب وغير المتوقع البتة! كنا قد نهضنا عن صخرتينا واستدرنا للرجوع إلى البيت، هاجرين المطاردةَ اليائسة. كان القمر منخفضًا على اليمين،

والقمم المسننة من الغرانيت في التل، تنهض في مواجهة قوس قرصه الفضي المنخفض. كان هنالك هيكل مظلم كتمثال أسود ووراءه خلفية مضيئة! رأيت شكل رجلٍ على القمة.

لا تظننّ أن ذلك كان وهمًا يا هولمز، أؤكد لك أنني لم أر في حياتي أي شيء في وضوح أكثر من ذلك. بقدر أقصى ما استطعت أن أميز، كان الشكل لرجل طويل ونحيف، وقف ورجلاه منفرجتان قليلًا، ويداه مطويتان، ورأسه منحنٍ، كأنه كان يتفكّر في هذه البرية الشاسعة من الأعشاب والغرانيت التي تمتد أمامه. لعله يملك الروحية الخاصة بذلك المكان المريع! لم يكن المجرمَ، إذ كان هذا الرجل بعيدًا عن جهة ذلك المجرم الذي اختفى. إلى جانب ذلك، كان رجلا أطول. أطلقتُ صرخة دهشة! وأشرت لينتبه إليه السير هنري، لكن في اللحظة التي استدرت فيها لأمسك ذراع السير هنري، كان الرجل قد اختفى!!

كانت هنالك قمة حادة من الغرانيت، ما تزال تقطع الحافة المنخفضة من القمر، ولكن القمة لم تكن تحمل أي أثر من ذلك الشكل الصامت الساكن. رغبت في الذهاب نحو ذلك الاتجاه والبحث في التل، لكنها كانت على مسافة بعيدة تقريبًا. كانت أعصاب البارون ما تزال ترتعش لحد الآن! بسبب صرختي التي أعادت إليه القصةَ المظلمة الخاصة بتاريخ عائلته، ولم يكن في مزاج جيد لمغامرة جديدة أخرى. إنه لم يلمح ذلك الرجل على التل،

ولم يمكنه أن يشعر بالانفعال الذي حلّ عليّ، بسبب حضوره الغريب ومظهره الآمر. قال السير هنري:

ـ لا شك في أنه كان أحد رجال الشرطة، فالمستنقع ممتلئ بهم منذ أن هرب رفيقنا هذا.

ذلك جيد، إذ ربما يكون تعليله هو الصحيح، لكن عليّ أن أمتلك مزيدًا من الإثبات. نريد اليوم أن نتواصل مع الناس في برنستاون، حيث يجب أن يبحثوا عن رجلهم المفقود، لكن من الصعب جدًا، أننا فعلًا لم نحرز النصر بإمساكه وجلبه معنا.

هذه هي مغامراتنا في الليلة الماضية، وعليك أن تقدّر يا عزيزي هولمز، أنني أنجزتُ لك مقدارًا جيدًا في ما يخص أمرَ التقرير. فكثير مما أخبرتك به لا شك في أنه وثيق الصلة بقضيتنا، لكنني ما أزال أشعر، أن من الأفضل أن أدعك تعرف كل الوقائع، وأدع لك حرية الانتقاء منها بنفسك، بهذا سيكون أكثر تسهيلًا لأمرك في مسار الاستنتاجات.

نحن بكل تأكيد نحرز تقدمًا، وحتى الآن كما يحصل مع آل باريمور، فإننا اكتشفنا الدافع وراء تصرفاتهم، وذلك قد وضّح الموقف كثيرًا جدًا. لكن المستنقع بألغازه وساكنيه غريبي الأطوار، يبقون كلهم غامضين إلى الأبد! ربما في خطوتي القادمة سأتمكن من تسليط بعض الضوء على هذا الأمر أيضًا، والأفضل ضمن هذا كله، أن تقدر على المجيء إلينا هنا. وفي أي حال، سوف تسمع مني مرةً أخرى في مسار الأيام القليلة القادمة.

١٠ – استخلاص من مفكرة الدكتور واتسن

حتى الآن ما زلتُ قادرًا على الاقتباس من التقريرات، التي قدمتها إلى شارلوك هولمز في الأيام المبكرة. الآن، وصلتُ عند نقطة في سردي، حيث أكون ملزمًا بترك هذا المنهج، والاعتماد مرة أخرى على ذكرياتي، مستعينًا بالمفكرة التي احتفظتُ بها في ذلك الوقت.

بضعة استنتاجات وخلاصات من الحدث الأخير، سوف تنقلني إلى تلك المشاهد المثبتة بإحكام، ولا تمحى في كل تفصيل في ذاكرتي. شرعتُ بالاستمرار والإكمال من الصباح الذي تلا مطاردةَ المجرم الفاشلة، وتجربتنا وحوادثنا الغريبة الأخرى على المستنقع.

السادس عشر من تشرين الأول.

يوم غائم وثقيل وضبابي مع تساقط رذاذ المطر، كانت الغيوم المتدحرجة تحاصر الفيلا، وغيوم تنقشع بين الحين والآخر، لتكشف عن منحنيات المستنقع الكئيبة، مع شقوق نحيفة وفضية على جوانب التلال، وكتل الصخر البعيدة تلمع، حيث يضرب الضوء على وجوهها المبللة. كان الجو حزينًا في الداخل والخارج، وكان البارون في رد فعل مثبط بعد إثارات الليلة الماضية. أنا أشعر بوجود ثقل على قلبي، وأحس بخطرٍ قريب الحدوث! خطر حاضر دائمًا، وهو أكثر رعبًا لأنني غير قادر على تحديده! ألم يكن لي سبب يُحدث مثل

هذا الشعور؟ ذلك بالنظر إلى التتابع الطويل للأحداث، التي رسمت كلها بعض التأثير المشؤوم الذي يكمن في العمل من حولنا. هنالك موت آخر ساكن في الفيلا، يُنجز بشكل مضبوط ضمن كل ما يرسم أسطورة العائلة. وهنالك التقارير المتكررة من الفلاحين، حول ظهور مخلوق غريب على أرض المستنقع! وسمعتُ بأذني مرتين الصوتَ الذي يشبه نباح كلبٍ بعيد! من المستحيل أن يكون خارج القوانين الطبيعية المألوفة، من المؤكد أن أي كلب شبحي يخلف وراءه آثارًا مادية من الأقدام، ويملأ الفضاء بالعواء! لن يكون مجرد فكرة.

ربما يقع ستابلتون في مثل هذا المعتقد الخرافي، ومورتمور أيضًا، لكن لو أن لدي طبيعةً واحدة على الأرض فإنها ستكون المنطقَ السليم، ولا شيء سيقنعني بأن أؤمن بمثل هذا الأمر. إذا آمنا به، فإن ذلك تنازل إلى مستوى أولئك الفلاحين البسطاء! الذين لا يرغبون في مجرد كلب شيطاني، بل هم في حاجة ماسة إلى أن تصفه لهم، بأنه يطلق نارًا جهنمية من فكه وعينيه! ما كان هولمز ليصغي إلى مثل هذه الخيالات، وأنا وكيله. لكن الحقائق حقائق، وأنا سمعتُ مرتين هذا الصوت في المستنقع. فعلًا أفترضُ أن هنالك نوعًا ما من الكلاب الضخمة السائبة هنا، وهذا سينجح في توضيح كل شيء. ولكن أين يمكن أن يرقد مختفيًا مثلُ هذا الكلب؟ ومن أين يحصل على طعامه؟ ومن أين أتى؟ وكيف يحدث أن لم يره أحد في النهار؟

يجب أن يُعترف بأن التفسير الطبيعي، يقدم تقريبًا كثيرًا من الصعوبات كالتفسيرات الأخرى. ودائمًا، بعيدًا عن الكلب، هنالك حقيقة القوة البشرية في لندن، والرجل في عربة الأجرة، والرسالة التي أنذرت السير هنري من المستنقع. في الأقل كان هذا حقيقيًا، لكن ربما يكون العمل لحماية صديق سهلًا كسهولة حماية عدو! فأين ذلك الصديق والعدو الآن؟ أما زال في لندن؟ أم تبعنا إلى هنا؟ أيمكن أن يكون هو الغريب الذي رأيتُه على التل؟ صحيح أنني لم ألمحه إلا بنظرة واحدة فقط، ومع ذلك هنالك بعض الأشياء أنا مستعدٌ فيها للقَسم. إنه لم يكن واحدًا ممن رأيتُهم منذ حلولي هنا، وأنا حتى الآن قد التقيتُ بكل الجيران. أما الشكل، فقد كان أطول من شكل ستابلتون، وأنحف من فرانكلاند، ربما يكون باريمور، لكننا خلفناه وراءنا، وأنا متيقن من أنه لم يستطع أن يتبعنا. إذن هنالك مجهول ما يزال يقتفي أثرنا، كما تبعنا في لندن. نحن لم نرتجف خوفًا منه قط، لو أنني استطعت أن أضع يدي على ذلك الرجل، لوجدنا أنفسنا عند النهاية لوضع خاتمة كل مصاعبنا. ولهذا الغرض وحده يجب عليّ الآن أن أكرّس كل طاقاتي.

كان اندفاعي الأول هو إخبار السير هنري بكل خططي، وثانية الخطوات ـ وهي الأكثر حكمة ـ أن ألعب لعبتي الخاصة، وأن أتكلم بأقل مقدار ممكن مع أي شخص. السير هنري ساكن وشارد الذهن، لقد اهتزت أعصابه بشكل غريب بسبب ذلك الصوت في المستنقع.

لن أقول شيئًا خشية أن أضيف مزيدًا إلى مخاوفه، لكنني سأباشر خطواتي الخاصة لإنجاز النهاية بحسب تصوري.

في هذا الصباح حدثت سَورة غضب صغيرة بعد الفطور، إذ طلب باريمور أن يكلّم السير هنري، ثم انفردا في مكتبه لبعض الوقت. كنتُ في قاعة البليارد، وقد وصلت إلى مسامعي أصواتهم وهي تعلو، وتكونت لدي فكرة عن موضوع الحوار الذي كانا يتناقشان فيه. بعد مرور وقت، فتح البارون بابه وطلبني:

ـ يزعم باريمور أن لديه شكوى! إنه يعتقد أننا لم نكن عادلين من جانبنا، إذ حاولنا القبض على أخ زوجته هنالك، بعدما أخبرنا بملء إرادته عن السر.

كان باريمور يقف شاحبًا جدًا، لكنه رابط الجأش:

ـ ربما أكون قد تكلمتُ في انفعال زائد، يا سيدي. وإذا كان ذلك، فأنا أؤكد أسفي واعتذاري. وفي الوقت نفسه، كنتُ مندهشًا جدًا عندما سمعتكما أنتما الجنتلمانين الاثنين تعودان هذا الصباح! وعلمتُ أنكما كنتما تطاردان سيلدن! ذلك الرفيق المسكين لديه ما يكفي ليقاتل من أجله، من دون أن أحمّله المزيد على كاهله!

فقال البارون:

ـ إذا كنتَ قد أخبرتنا انطلاقًا من حرية إرادتك الخاصة فهذا أمرٌ مختلفٌ. أنت أخبرتنا فقط، أو بالأحرى كانت زوجتك وحدها هي التي أخبرتنا، عندما وجب أن تكشف أنت عن الأمر لكنك لم تساعدك نفسك!

ـ حقًا لم أعتقد أنك ستحصل على فائدة، أو تتصرف حيال ذلك يا سير هنري، حقا لم أظن.

ـ ذلك الرجل خطر على الشعب كله. هنالك بيوت منفردة ومتناثرة على أرض المستنقع، وهو مجرم لا يردعه شيء، يكفي أن تلقي نظرةً واحدة على وجهه لتعرف ذلك، على سبيل المثال انظر لبيت السيد ستابلتون، فلا أحد معه ليدافع عن بيته. لا أحد في أمان حتى يكون ذلك المجرم وراء القضبان.

ـ لك كلمتي الرسمية يا سيدي، أنه لن يقتحم أي بيت، ولن يزعج ويسبب المشاكل لأي شخص في هذا البلد مجددًا. أؤكد لك يا سير هنري، أن هنالك ترتيبات خاصةً سيتم إعدادها في أيام قليلة، وسيكون سيلدن في طريقه نحو أمريكا الجنوبية. أقسم عليك بحق الرب، يا سيدي، وأتوسل إليك أن لا تجعل الشرطةَ تعرف أنه ما يزال هنا على أرض المستنقع، لقد يئسوا وتوقفوا عن مطاردته هنا. يمكن له أن يستقر بمخبئه في هدوء حتى

تكون السفينة جاهزة لرحيله. أما إبلاغك عنه فسيجعلني أنا وزوجتي متورطين في الأمر. أتسول إليك أن لا تخبر الشرطة عن أي شيء.

ـ ما رأيك في هذا الكلام، يا واتسن؟

فهززت كتفيّ استهجانًا:

ـ إذا كان في أمان خارج البلاد، فذلك سيزيح العبء عن دافعي الضرائب ويريحهم.

ـ ولكن ماذا عن احتمال أن يؤذي أحدًا ما قبل رحيله؟

ـ لن يفعل أي شيء جنوني يا سيدي، لقد زوّدناه بكل ما يحتاج. إن تنفيذ جريمة سيكون بمثابة كشف مكان مخبئه.

ـ هذا صحيح. حسنٌ، يا باريمور...

ـ يباركك الرب يا سيدي، وشكرًا لك من كل قلبي. إن قُبض عليه مرة أخرى فسيقضي ذلك على زوجتي المسكينة.

ـ ألا تظن يا واتسن، أننا نساعد ونحرّض على جريمة؟ لكن بعد الذي سمعناه لا أشعر أنني أستطيع أن أسلّم الرجل، إذن هذه نهاية الأمر! حسنٌ، يا باريمور، يمكنك الذهاب.

استدار الرجل مع كلمات ثناء قليلة خجولة، لكنه تردد وتلبث ثم عاد:

ـ كنتَ وما زلت كريمًا وعطوفًا معنا يا سير هنري، ولذلك أرغب في فعل أفضل ما بوسعي لك في المقابل. أنا أدري بأمرٍ يا سير هنري، وربما كان عليّ أن أقوله من قبل! لكنني اكتشفته بعد مدة طويلة من إجراء التحقيق، ولم أنبس ببنت شفة حول الموضوع لأي شخص، إنه يخص موت السير تشارلز المسكين!

فنهضنا كلانا في اندفاع...

ـ هل تعرف كيف مات؟

ـ لا، يا سيدي، أنا لا أعرف ذلك.

ـ ماذا إذن؟

ـ أنا أعرف لماذا كان عند الباب في تلك الساعة! لقد كان هنالك من أجل أن يلتقي بامرأة!

ـ ليلتقي بامرأة؟ هو!

ـ نعم، سيدي.

ـ وما اسم تلك المرأة؟

ـ لا أعرف الاسمَ، يا سيدي، لكن يمكنني أن أخبرك بالأحرف الأولى، وهي: (L. L.).

ـ أنّى لك أن تعرف هذا يا باريمور؟

ـ حسنٌ، يا سير هنري، تسلّم عمك رسالةً في ذلك الصباح. وكان من عادته أن يتلقى رسائل كثيرة، لأنه كان وجيهًا اجتماعيًا ومعروفًا بكرمه وطيب أخلاقه. لذلك، أي شخص يقع في مشكلة ما، كان يلجأ إليه في كل ثقة وسرور. ولكن في ذلك الصباح ـ الذي صادف يوم الحادث ـ لم تكن هنالك إلا هذه الرسالة! لذلك استحوذت على اهتمامي أكثر. كانت مُرسلةً من امرأة في كومب تريسي.

ـ جيد.

ـ نعم، سيدي، لم أهتم كثيرًا بالأمر، وما كنتُ في الأصل لأفعل ذلك، لكن الأمر حصل عبر زوجتي. منذ أسابيع قليلة ماضية كانت تنظف مكتبَ السير تشارلز، ولم يكن قد لُمس منذ وفاته... ووجدت رمادَ رسالة محروقة وراء حاجز الموقد، كان الجزء الأعظم منها قد تحول إلى قطع محترقة، لكن بقي جزء متماسك من نهاية الصفحة، وكان في الإمكان قراءة

ما مكتوب، مع أنها كانت رمادية على خلفية سوداء. بدت لنا أنها كالحاشية عند نهاية الرسالة، وكان فيها: «أرجوكَ، أرجوك، أنت رجل جنتلمان، أرجوك أحرق هذه الرسالة! وكن عند الباب الساعة العاشرة»! وتحتها كان هنالك توقيع بالأحرف الأولى التي ذكرتها لكم آنفًا.

ـ هل احتفظتَ بتلك القصاصة؟

ـ لا يا سيدي، لقد تهشمتْ إلى قطع صغيرة بعد أن حرّكناها.

ـ وهل تسلم السير تشارلز أي رسائل أخرى بالكتابة نفسها؟

ـ يا سيدي، أنا لم أهتم كثيرًا بهذه الرسائل، ولم يجبْ عليّ أن أنتبه لهذه الرسالة، لكن ما حدث كان بسبب أنها وصلت وحدها.

ـ لا فكرة لديك عمن تكون هذه (ل.ل)؟

ـ لا يا سيدي، ليس أكثر مما تعرف أنت، لكنني أتوقع أننا إذا استطعنا أن نجد تلك المرأة، فسنعرف كثيرًا عن موت السير تشارلز.

ـ لا يمكنني أن أفهم يا باريمور، كيف لك أن تخفي هذه المعلومات المهمة!؟

ـ حسنٌ، يا سيدي، حصل ذلك مباشرة بعد وقوع المصيبة. ثم مرة أخرى: كنا كلانا محبوبين وأثيرين عند السير تشارلز، وما زلنا نضع بعين الاعتبار كل ما فعله من أجلنا. إن إثارة هذا الأمر لا تساعد سيدنا المسكين، ومن الأفضل أن يمضي الأمر في هدوء وحذر عندما تكون هنالك سيدة في القضية! حتى أن الأسلم...

ـ أتظن أن ذلك ربما يشوّه سمعته؟

ـ اعتقدتُ أن لا خير سيحصل إذا كشفتُ عن الأمر، لكنك الآن ما زلت رحيمًا بنا، وأنا أشعر كما لو أننا لن نعاملك بعدالة إذا لم نطلعك على الأمر جليًا.

ـ جيد جدًا، يا باريمور، يمكنك أن تذهب.

عندما غادر باريمور التفت إليّ السير هنري:

ـ حسن يا واتسن، ما رأيك في هذا الضوء الجديد؟

ـ يبدو أنه سيخلف ظلمةً نوعًا ما أكثر من السابق!

ـ وكذلك أعتقدُ. إذا تمكنا من تعقب أثر السيدة (ل.ل)، فذلك سيوضح القضية كلها، ونكسب من ذلك كثيرًا. نحن نعرف أن هنالك شخصًا ما لديه الحقائق، ليتنا نعثر عليها. برأيك ماذا علينا أن نفعل الآن؟

ـ دع هولمز يعرف كل مجريات الأحداث حالًا، وسوف يقدم له هذا دليلًا لما يبحث فيه. سأكون مخطئًا كثيرًا إن لم يحضه هذا الأمر على المجيء إلى هنا!

ذهبت من فوري إلى غرفتي، ودونت تقريري عن حوار هذا الصباح لهولمز. من الواضح بالنسبة لي أن هولمز كان مشغولًا جدًا مؤخرًا، لأن التقارير التي تصل إلي من شارع بيكر كانت قليلة ومختصرة، وخالية من التعليقات على البيانات التي زوّدته بها، وتكاد تخلو من أي إشارة إلى مهمتي! لا شك في أن قضية الابتزاز تستحوذ على كل قدراته، ومع ذلك فإن هذا العامل الجديد، لا بد أن يشغله جدًا ويجدد اهتمامه، كنت أرجو حضوره.

السابع عشر من أكتوبر.

صُب علينا المطر المنهمر نهار اليوم كله، كان يتساقط بصوت يتكسر على اللبلاب ويقطر من الأفاريز. فكرت في المدان القابع هنالك، على المستنقع المنعزل البارد بلا مأوى. الشيطان المسكين! مهما كانت جرائمه فقد عانى من شيء يكفّر عنها. بعد ذلك فكرت في ذلك الشخص الآخر: الوجهِ الذي رأيناه في عربة الأجرة، والشكل الواقف تجاه القمر، أيكون ذلك المراقب الخفي ورجل الظلام الآن، في الخارج أيضًا حيث المطر الغزير؟ في المساء، ارتديت معطفي الواقي من المطر، وسرتُ مبتعدا على المستنقع المغمور، وخيالي ممتلئ بالصور المظلمة، يضرب المطر وجهي، والريح تصفر حول أذني. ليكن الرب في

عون أولئك الذين يسيرون على بقعة المستنقع الكبيرة الآن، حتى الأرض الصلبة المرتفعة في هذا الطقس تتحول إلى مستنقع وشرك.

وجدت الرابيةَ السوداء حيث كنتُ رأيت ذلك المراقبَ المنعزل واقفًا عليها، ومن على قمتها المنحدرة نظرتُ على امتداد المنخفضات الحزينة: اجتاحت العواصفُ المطرية وجهها الخمري، وتعلقت الغيوم الرمادية الثقيلة منخفضةً على الأرض العشبية، متتابعة في إكاليل رمادية على جوانب التلال المذهلة، وفي الفراغ البعيد على اليسار، المختفي نصفه بالضباب، بدا برجا فيلا باسكرفيل النحيفان مرتفعين فوق الأشجار. كانا العلامة الوحيدة الدالة على وجود حياة إنسانية حيث رأيت، باستثناء تلك الأكواخ مما قبل التاريخ، التي تستقر بثبات على منحدرات التلال. لم يكن هنالك أي أثر من ذلك الرجل الوحيد، الذي رأيته على البقعة نفسها قبل ليلتين.

عندما سرتُ راجعًا فوجئت بدكتور مورتمر، يقود عربته الصغيرة على مسار وعر من أرض المستنقع، آتيًا من بيت فيلمور الريفي النائي. لقد كان مهتمًا ومجاملًا لنا منذ وصولنا، وما مر يوم تقريبًا إلا وكان قد زارنا، ليرى كيف كانت أمورنا تتقدم. أصرّ على أن أصعد معه في عربته، وقدم لي توصيلة باتجاه البيت. رأيتُ أنه كان مضطربًا كثيرًا بسبب اختفاء كلبه الصغير! قال إنه سار على أرض المستنقع، ولم يعد قط! فقدمت له مواساتي المخلصة كما

أظن، لكنني فكرت في الحصان الصغير على مستنقع غرمبين، أظن أنه لن يرى كلبه الصغير مرة أخرى!

قلت ونحن نهتز على طول الطريق الوعر:

ـ للمناسبة يا مورتمر، أنا أفترض أن هنالك قليلًا من الناس الذين لا تعرفهم، يعيشون ضمن مسافة قيادتك العربةَ، صحيح؟

ـ نادرًا جدًا على ما أعتقد.

ـ إذن، هل يمكنك أن تخبرني عن أي امراة يبدأ اسمها بأحرف (ل.ل)؟

فاستغرق في التفكير لدقائق...

ـ لا، هنالك بعض الغجر والعمال الذين لا أعرفهم، ولكن من بين المزارعين والطبقة العليا لا يوجد فردٌ يبدأ اسمه بهذين الحرفين.

ولكنه أضاف بعد هنيهة:

ـ ولكن انتظر قليلًا! هنالك لورا لايونز! فحروفها الأولى (ل.ل). لكنها تعيش في كومب تريسي!

ـ ومن تكون؟

ـ إنها ابنة فرانكلاند.

ـ ماذا؟ فرانكلاند العجوز النزق المهووس!؟

ـ أجل، لقد تزوجتْ رسامًا يدعى لايونز، جاء إلى المستنقع ليرسم تخطيطاته ولوحاته. وثبت أنه حقّرها وهجرها! وبحسب ما سمعتُ، ربما أن الخطأ لم يكن من جانب واحد بالكامل، إذ رفض والدها أن يتصرف معها بأي شيء بخصوص زوجها، لأنها تزوجت بلا موافقة منه. وربما لسبب آخر أو سببين أيضًا. وهكذا، بين عجوز وشاب خاطئين، مرت الفتاة بظرف رديء تمامًا.

ـ وكيف تعيش وتدبر أمورها؟

ـ أنا أتصور أن فرانكلاند العجوز يمنحها مبلغًا بائسًا، ولكن لم يكن أكثر من ذلك، لأنه متورط في شؤونه الشخصية كثيرًا. مهما يكن، ربما أنها استحقت راتبًا لا يسمح لها بأن تمضي يائسة نحو الانهيار. انتشرت قصتها، وبعض الناس فعلوا أشياء لتمكينها من كسب الحياة الشريفة. ستابلتون قدم شيئًا، والسير تشارلز كذلك، وأنا قدمت مبلغًا بسيطًا جدًا. كان ذلك من أجل أن تنطلق في مشروع عمل الكتابة الطباعية.

أراد مورتمر أن يعرف المغزى من تساؤلاتي، لكنني تدبرت أمري بأن أرضي فضوله من دون إخباره بكثير من المعطيات، والسبب لأنه لا يوجد ما يوجب أن نحمل أي شخص على محمل الثقة! عند صباح الغد، عليّ أن اتجه نحو كومب تريسي، وإذا تمكنتُ من رؤية السيدة لورا لايونز هذه، ذات السمعة الملتبسة، فإننا في صدد التقدم بخطوة طويلة، نحو توضيح حادث واحد من سلسلة الألغاز هذه. أنا أعمل بالتأكيد على تنمية حكمة الشيطان! إذ عندما ألح مورتمر بأسئلته إلى حدٍ مزعج، سألته عرضًا عن أي الأنواع التي تنتمي لها جمجمة فرانكلاند! وهكذا لم أعد أسمع سوى بيانات علم الجماجم حتى نهاية طريقنا! لم تكن ملازمتي شارلوك هولمز لسنوات خاليةً من الفائدة!

بقي لدي حادث واحد، أسجله في هذا اليوم الهائج الكئيب، وهو حواري مع باريمور الآن، الذي يعطيني ورقة قوية واحدة، أستطيع اللعب بها في الوقت المناسب. بقي مورتمر لتناول العشاء، ولعب مع البارون بالبطاقات(٣٢)، بعدئذٍ جلب لي باريمور قهوتي في المكتبة، فاغتنمتُ الفرصة لألقي عليه بعض الأسئلة:

ـ أغادرَ قريبُ زوجتك العزيز، أم أنه ما يزال يتسكع بعيدًا هنالك؟

---

[٣٢] (écarté) لعبة بطاقات عددها ٣٢، بين لاعبين اثنين، كانت بالأصل منتشرة في فرنسا في القرن التاسع عشر.

ـ لا أدري يا سيدي، أنا أرجو من السماء أن يكون قد رحل، لأنه لم يجلب لنا إلا المتاعب. لم أسمع عنه شيئًا منذ أن تركتُ له الطعام آخر مرة. وكان ذلك منذ ثلاثة أيام مضت.

ـ إذن، هل رأيته؟

ـ لا، يا سيدي. لكن الطعام اختفى عندما ذهبتُ إلى هناك في المرة التالية.

ـ إذن، وجوده هنالك مؤكد؟

ـ لك أن تعتقد بهذا يا سيدي، إلا في حال أن يكون الرجل الآخر قد أخذ الطعام!

جلستُ وكوب القهوة في منتصف المسافة إلى شفتي وحدقت في باريمور!

ـ إذن أنت تعلم بوجود رجل آخر هنالك؟

ـ نعم سيدي، هنالك رجل آخر في المستنقع.

ـ وهل رأيته قط؟

ـ لا، يا سيدي.

ـ إذن، كيف عرفته؟

ـ أخبرني سيلدن عنه يا سيدي، قبل أسبوع أو أكثر. وهو في مخبأ أيضًا! لكنه ليس مدانًا كما أظن... أنا لا أرغب في الأمر، يا دكتور واتسن! أخبرك في صراحة يا سيدي، بأنني لا أرغب في الأمر.

كان كلامه مفاجئًا في مشاعر جادة.

ـ والآن، أصغِ إلي يا باريمور. ليس لدي اهتمام بهذا الأمر إلا ما يخص سيدك، فلم يكن الهدف من مجيئي إلى هنا إلا لمساعدته. أخبرني بصراحة، ما ذلك الذي لا تحبه؟

تردد باريمور لدقيقة، وكأنه ندم على عجالته، أو واجه صعوبةً في التعبير عن مشاعره الداخلية بالكلمات. لكنه صاح أخيرًا، وملوّحا بيده نحو النافذة المطلة على المستنقع، وكان يضربها المطر الغزير:

ـ إنه كل ما يجري يا سيدي. هنالك لعبةٌ خاطئة في مكان ما، وهنالك جريمة يجري الإعداد لها! وعلى ذلك أقسم! سأكون مسرورًا جدا يا سيدي، لرؤية السير هنري وهو على طريق العودة إلى لندن.

ـ ولكن ما ذلك الشي الذي يقلقك؟

ـ انظر إلى وفاة السير تشارلز! فذلك كافٍ جدًا، بسبب كل ذلك الذي قاله الطبيب الشرعي. استمع إلى الأصوات في المستنقع في الليل. ما كان لأي رجل أن يجتاز المستنقع بعد غروب الشمس، حتى لو دُفع له من أجل ذلك. انظر إلى ذلك الغريب الذي يختبئ بعيدًا هنالك، وهو يراقب وينتظر! ما الذي ينتظره؟ وماذا يعني ذلك؟ إنه لا يعني شيئًا جيدًا لأي فرد يحمل لقب باسكرفيل! وأنا سأكون مسرورًا جدًا عند الاستقالة وترك هذا كله، في اليوم الذي يكون فيه خدم السير هنري الجدد حاضرين لتولي العمل في الفيلا!

ـ لكن بخصوص هذا الغريب، هل يمكنك أن تخبرني بأي شيء عنه؟ ماذا قال سيلدن؟ هل اكتشف أين يختبئ، أو ماذا كان يعمل؟

ـ لقد رآه مرةً أو مرتين، لكنه شخص غامض، لا يصرّح بشيء. في البداية كان يظن أنه من الشرطة، ولكنه عرف سريعًا أن لديه ما يخصه في نفسه. كان جنتلمانًا نوعا ما، بنحو ما استطاع أن يرى منه ذلك، لكنه لم يحزر ما كان يفعل.

ـ أقال أين يختبئ؟

ـ بين البيوت القديمة على جانب التل... حيث الأكواخ الحجرية التي اعتاد الشعب القديم أن يعيش فيها.

ـ وماذا عن طعامه؟

ـ اكتشف سيلدن أن لديه صبيًا يعمل من أجله، ويجلب له كل احتياجاته. أنا أجرؤ على القول إنه يذهب إلى كومب تريسي لتلبية احتياجاته.

ـ جيد جدًا يا باريمور، ربما نتكلم أكثر على هذا في وقت آخر.

عندما انصرف مشيتُ نحو النافذة السوداء، ونظرتُ من خلال اللوح المضبب إلى الغيوم السائرة، وإلى هياكل الأشجار المهتزة والمتقلبة بالريح. إنها ليلة برية في الداخل، وكذلك يجب أن يكون أيضًا في الكوخ الحجري في المستنقع. أي شعور بالحقد أو الضغينة، يمكن أن يقود رجلًا إلى أن يندسّ في مكان كهذا ووقت كهذا! وأي حاجة عميقة وجادة عنده، التي تستدعي مثل هذه المحنة؟ هنالك، في ذلك الكوخ الحجري على المستنقع، يكمن المحور الحقيقي لتلك المعضلة، التي كدّرتني طويلًا في عنف ومرارة! أقسمُ على أن لا يمر يوم آخر، قبل أن أنجز كل ما يمكن أن ينجزه الرجل للوصول إلى قلب اللغز.

١١ - الرجل على التل

أدى الاستخلاص من مفكرتي اليومية - وهو الفصل السابق - إلى الوصول بسردي إلى الثامن عشر من تشرين الأول، وهو الوقت الذي فيه بدأت الأحداث الغريبة بالتحرك بيسر نحو نهاياتها الفظيعة. أحداث الأيام القليلة القادمة محفورة بثبات في ذاكرتي، ويمكنني أن أرويها بلا إحالة إلى مذكراتي وملحوظاتي المكتوبة في ذلك الوقت.

إذن، أنا أبدأ من اليوم الذي نجحتُ فيه بربط واقعتين على قدر عظيم من الأهمية، الأولى أن السيدة لورا لايونز في كومب تريسي، قد كتبت إلى السير تشارلز باسكرفيل، وحددت موعدًا معه في ذلك المكان والساعة بالضبط، التي حصل عندها حادث وفاته. والثانية: أن ذلك الرجل المختبئ في المستنقع، كان بين الأكواخ الحجرية على جانب التل. بامتلاكي هاتين الحقيقتين، شعرتُ بأن النقص سيكون إما في ذكائي أو شجاعتي! إن لم أستطع إلقاء المزيد من الضوء على هذه الألغاز المظلمة.

لم أحظَ بفرصة لأخبر البارون عما عرفته حول السيدة لايونز في المساء الماضي، لأن دكتور مورتمر بقي معه في لعبة البطاقات حتى وقت متأخر. ولكن عند الفطور أعلمته باكتشافي، وسألته إذا كان مهتمًا بمصاحبتي للذهاب إلى كومب تريسي. في البدء كان متلهفًا للمجيء معي، لكن بعد أفكار أخرى راودته، بدا لكلينا أنه إذا ذهبتُ وحيدًا فإن النتائج

ستكون أفضل، فكلما جعلنا الزيارةَ رسمية ربما حصلنا على معلومات أقل. لذلك، تركت السير هنري، طبعًا ليس من دون عذاب الضمير! وانطلقتُ خارجًا في مهمتي الجديدة.

عندما وصلت إلى كومب تريسي، أخبرت بيركنز أن يربط الأحصنة، وباشرت بالسؤال عن السيدة التي جئتُ للتحقيق في شأنها. لم أواجه صعوبة في إيجاد غرفها، التي كانت في المركز ومجهزة جيدًا. رحبتْ بي خادمةٌ وأدخلتني بلا رسميات، وعندما دخلتُ إلى غرفة الجلوس قفزت سيدة ـ كانت تجلس أمام آلة طباعة من نوع ريمنغتون ـ مع ابتسامة ترحيبية لطيفة! لكن مع ذلك، تراجعت مشاعرها عندما عرفت أنني كنتُ غريبًا، وعادت لتجلس مرة أخرى، وسألتني عن سبب زيارتي.

كان انطباعي الأول عنها أنها كانت ذات جمال طاغٍ! كانت عيناها وشعرها باللون نفسه وهو اللون الكستنائي المزدهر، وكانت وجنتاها ـ على رغم من كثرة النمش فيهما ـ متوردتين بازدهار رائع من السمرة، باللون الوردي الرقيق الذي ينبض في قلب الوردة ذات اللون الكبريتي الأحمر! كان الإعجاب ـ وأكرر ذلك ـ هو التأثير الأول، لكن الثاني كان النقد والتفحص، إذ كان هنالك شيء من العيب الدقيق في الوجه: خشونة التعبير، وبعض الجمود ربما في العيون، وبعض الارتخاء في الشفة الذي شاب جمالها المثالي. ولكنها كلها بالطبع، أفكار لاحقة، لأنني عندئذٍ كنت في بساطة واعيًا بأنني في حضرة امرأة جميلة جدًا، وأنها

كانت تسألني عن سبب زيارتي. لم أفهم تمامًا حتى تلك اللحظة كم كانت مهمتي دقيقة وحساسة. قلت:

ـ لي الشرف أنني أعرف والدكِ.

كان هذا تقديمًا أخرق وغير متقن! لأن السيدة جعلتني أشعر بذلك!

ـ لا يوجد شيء مشترك بيني وبين أبي! ولا أدين له بشيء، وأصدقاؤه ليسوا بأصدقاء لي! لولا المرحوم السير تشارلز باسكرفيل وبعض القلوب الرحيمة الأخرى، لكنتُ قاسيتُ الجوع والحرمان بسبب كل ما يشغل أبي.

ـ لقد جئتُ لرؤيتكِ من أجل موضوع خاص بالمرحوم السير تشارلز باسكرفيل.

فبدأ النمش على وجه السيدة بالانتشار! وسألتني وأصابعها تضرب بعصبية على مفاتيح الطابعة:

ـ ماذا يمكنني أن أخبرك عنه؟

ـ لقد كنتِ تعرفينه، أليس كذلك؟

ـ قلتُ قبل قليل إنني مدينة له كثيرًا بسبب عطفه عليّ. أن أكون قادرةً على دعم نفسي، فهذا في جزء كبير منه يعود إلى الاهتمام الذي أبداه لي في ظرفي الحزين.

ـ هل قمتِ بمراسلته؟

فتطلعت السيدة سريعًا مع بريق الغضب في عينيها الكستنائيتين، وسألت في حدة:

ـ ما الهدف من هذه الأسئلة؟

ـ الهدف هو تجنب فضيحة عامة! فمن الأفضل أن يكون عليّ أن أسأل أسئلتي هنا، بدلًا من انتشار الأمر خارج سيطرتنا.

كانت ما تزال صامتة وظل وجهها شاحبًا، وأخيرًا تطلعت مع شيء من الجرأة والطيش وعدم الاهتمام في أسلوبها:

ـ حسنٌ، سأجيب! ما أسئلتك؟

ـ هل قمتِ بمراسلة السير تشارلز؟

ـ بالتأكيد، أنا كتبتُ له مرة أو مرتين للاعتراف بكياسته وكرمه معي.

ـ هل لديكِ تواريخ تلك الرسائل؟

ـ لا.

ـ هل التقيتِ به قط؟

ـ نعم، مرة أو مرتين، عندما جاء إلى كومب تريسي. لقد كان رجلًا خجولًا جدًا، وقد فضّل أن يفعل عمل الخير سرًا.

ـ ولكن إذا كنتِ قد رأيته قليلًا وكتبتِ له قليلًا، فكيف عرف عن شؤونكِ ما يكفي ليكون قادرًا على مساعدتكِ، كما تزعمين أنه فعل؟

فقابلتِ السؤالَ الحرج والصعب بالاستعداد الأقصى:

ـ كان هنالك بعض الرجال الأخيار الذي عرفوا تاريخي الحزين وتعاونوا على مساعدتي. كان السيد ستابلتون واحدًا منهم، وهو جار وصديق مقرب من بيت السير تشارلز. كان عطوفًا، وبوساطته علم السير تشارلز بظروفي.

كنتُ أعرف أن السير تشارلز باسكرفيل جعل ستابلتون وكيلًا لتوزيع المعونات عنه في بعض المناسبات، لذا فإن تصريح السيدة حمل توكيدًا لتلك الحقيقة. وواصلتُ الأسئلة:

ـ وهل كتبتِ قط إلى السير تشارلز تطلبين منه اللقاء؟

فاحتقن وجه السيدة لايونز بالغضب مرة أخرى!

ـ يا سيدي، فعلًا أن هذا السؤال غريب وغير معتاد!

ـ أنا آسف سيدتي، ولكنني يجب أن أكرره.

ـ إذن أجيب... بالتأكيد لا.

ـ ولم يحدث ذلك حتى في يوم وفاته تحديدًا؟

وفي لحظة خفت الاحتقان، وتحول وجهها إلى ما يشبه وجه الأموات أمامي! ولم تستطع شفتاها أن تنطقا كلمة (لا) التي خيّل إلي أنني سمعتها:

ـ من المؤكد أن ذاكرتكِ تخونكِ، يمكنني حتى أن أقتبس مقطعًا من رسالتكِ. وهي هكذا: «أرجوكَ، أرجوك، أنت رجل جنتلمان، أرجوك أحرق هذه الرسالة! وكن عند الباب الساعة العاشرة»

ظننتُ أنها قد أغمي عليها، لكنها استعادت عافيتها بجهد خارق، وقالت لاهثةً:

ـ ألا يوجد رجل جنتلمان حقيقي؟

ـ أنتِ تظلمين السير تشارلز، لقد أحرق الرسالة فعلًا، لكن في بعض المرات تبقى مقروءة حتى بعد إحراقها. أنتِ الآن تعترفين أنكِ كتبتها، صحيح؟

فصاحت وهي تصب روحها في سيل من جارف من الكلمات:

ـ نعم لقد كتبتُها! ولماذا عليّ أن أنكر ذلك؟ ولا سبب يجبرني لأكون خجلة منها. لقد رجوته أن يساعدني، لقد تيقنتُ أنني إذا حصلتُ على مقابلة معه فإنني سأنال مساعدته، لذا فإنني طلبت منه موعدًا للقاء.

ـ ولكن لماذا في هذه الساعة؟

ـ لأنني كنتُ قد عرفت أنه سيذهب إلى لندن في اليوم التالي، وسيظل بعيدًا عني لأشهر. كانت هنالك أسباب منعتني من الوصول إلى هنالك في وقت مبكر.

ـ لماذا كان الموعد في الحديقة بدلًا من زيارة رسمية إلى الفيلا؟

ـ هل تعتقد أن امرأة يمكنها أن تذهب وحيدة في تلك الساعة إلى بيت رجل عازب؟

ـ حسنٌ، وماذا حدث عندما ذهبتِ إلى هناك؟

ـ أنا لم أذهب قط!

ـ سيدة لايونز!!!

ـ لا، أقسم لك بكل معتقدي المقدس، أنني لم أذهب قط، شيء طارئ اعترض ذهابي.

ـ وما كان ذلك؟

ـ ذلك أمر شخصي، لا يمكنني أن أخبرك به.

ـ إذن، أنتِ تعترفين بأنك حددتِ موعدًا مع السير تشارلز عند الساعة والمكان حيث واجه حتفه، ولكنك تنكرين أنك ذهبتِ إلى الموعد!

ـ هذه هي الحقيقة.

ومرة بعد أخرى سألتها أسئلةً تفصيلية دقيقة، ولكن لم أتمكن من اجتياز تلك النقطة. قلت لها وقد نهضتُ لأنهيَ هذه المقابلة الطويلة غير الحاسمة:

ـ سيدة لايونز، أنتِ تتحملين مسؤولية عظيمة، وتضعين نفسكِ في موقع خاطئ، بعدم إبراء ذمتكِ بقول الحقيقة التي تعرفينها. إن اتصلتُ بالشرطة طلبًا للمساعدة، فسترين بصورة جدية مدى فضيحتكِ وانكشاف أمرك. إذا كنت بريئة، فلم أنكرتِ عند البداية كتابتك الرسالةَ إلى السير تشارلز في ذلك التاريخ؟

ـ لأنني كنت أخشى أن يحدثَ بعض سوء الفهم والاستنتاج الخاطئ من ذلك، وربما أجد نفسي متورطةً في فضيحة!

ـ ولماذا كنتِ تلحّين على السير تشارلز بوجوب إحراق الرسالة؟

ـ لو قرأتَ الرسالة لعرفت ذلك.

ـ أنا لم أقل إنني قرأتُ كل الرسالة.

ـ لقد اقتبستَ منها.

ـ أنا اقتبستُ الحاشية فقط. كما قلت لكِ: كانت الرسالة قد أحرقت ولم تكن صالحة للقراءة. وأسألكِ مرة أخرى: لماذا كنتِ تلحين على السير تشارلز، بوجوب إحراق هذه الرسالة التي تسلمها في يوم وفاته؟

ـ الأمر شخصيٌ جدًا.

ـ السبب الأكبر هو أنكِ تتجنبين التحقيق العام العلني.

ـ إذن، سأخبرك. إذا كنتَ سمعتَ أي شيء عن تاريخي غير السعيد، فسوف تعرف أنني دخلت في زواج متهور وكان سببًا للندم عليه.

ـ سمعتُ كثيرًا.

ـ كانت حياتي عبارة عن اضطهاد مستمر من زوج أبغضُه، وكان القانون إلى جانبه، وفي كل يوم أُواجه بإمكانية أنه ربما يجبرني على البقاء معه. في ذلك الوقت الذي كتبتُ فيه الرسالة إلى السير تشارلز، كنتُ قد علمتُ أن هنالك أفقًا واحتمالًا لاستعادة حريتي، إذا تمت تهيئةُ بعض النفقات. كان ذلك يعني لي كل شيء: سلامة عقلي، وسعادتي، واحترام

الذات... كل شيء. عرفت عن كرم السير تشارلز، ففكرتُ أنه إذا سمع قصتي مني شخصيًا فلن يقصّر في مساعدتي.

ـ إذن، كيف جرى عدم ذهابكِ؟

ـ بسبب حصولي على مساعدةٍ في ذلك الوقت من مصدر آخر.

ـ فلماذا لم تكتبي للسير تشارلز كي توضّحي له هذا الأمر؟

ـ كان عليّ أن أفعل، لو لم أر خبرَ وفاته في الجريدة في الصباح التالي.

بدت قصة المرأة متماسكة، وكل أسئلتي لم تكن قادرة على التشكيك فيها. استطعتُ فقط التأكدَ منها بالكشف عما إذا كانت ـ فعلًا ـ قامت بإجراءات الطلاق من زوجها، عند وقت حصول المأساة أو قريبًا منها. لم يكن من المحتمل أنها ستجرؤ على الزعم بأنها لم تذهب لفيلا باسكرفيل، إذا كانت قد ذهبت حقًا، لأن ذهابها إلى هنالك لا بد أن يكون بالعربة، ولم تستطع العودة إلى كومب تريسي حتى ساعات الصباح المبكرة، مثل هذه الرحلة القصيرة لا يمكن أن تبقى سرًا. لذلك، فالاحتمال أنها كانت تقول الحقيقة، أو في الأقل جزءًا منها.

خرجتُ متحيرًا ومثبط العزيمة، ها أنا مرة أخرى أواجه ذلك الجدارَ الخانق، الذي بدا كأنه بني ليسدّ كل ممر حاولتُ من خلاله الوصول إلى هدف مهمتي! ومع ذلك، فكلما فكرتُ أكثر في وجه السيدة وطريقتها في الكلام، شعرتُ أكثر بأن هنالك شيئًا موجودًا يُمنع مني. لماذا كان عليها أن تُصاب بالشحوب الشديد؟ ولماذا كان عليها أن تقاتل ضد أي اعترافٍ إلى أن تُجبر على الكشف عنه؟ ولماذا كان عليها أن تكون متكتمةً عند وقت حصول المأساة؟ من المؤكد أن تفسير كل ذلك لم يكن بريئًا، كما أرادت مني أن أصدق. في هذه اللحظة لم أستطع أن أتقدم أبعد في ذلك الاتجاه، لكن تجب العودة إلى الدليل الآخر، الذي كان يجب أن يُبحث عنه بين الأكواخ الحجرية على المستنقع، وذلك كان الاتجاه الأكثر التباسًا.

اكتشفتُ ذلك عندما كنتُ في طريق عودتي، وقد رأيتُ كيف أن تلًا بعد يُظهر آثار الناس القدماء. كان توضيح باريمور الوحيد حول الغريب، بأنه يعيش في واحد من هذه الأكواخ الحجرية المهجورة، وهنا المئات منها متناثرة على طول أرض المستنقع وعرضها. لكن لي خبرتي الخاصة بالاستدلال، منذ أن أراني الرجل نفسه واقفًا على قمة التل الأسود، ذلك إذن يجب أن يكون هو مركز الانطلاق في البحث، ومن هنالك يجب عليّ أن أتفحص كل كوخ حجري على المستنقع حتى أجد المطلوب.

إذا كان هذا الرجل في إحداها، فعليّ أن أعرف منه مباشرة ما أريد، بل وباستعمال مسدسي إذا اقتضى الأمر! أريد أن أعرف من هو؟ ولماذا كان يراقبنا؟ ربما نجح في الفرار منا عبر الضياع في الحشود في شارع ريجينت، لكن محاولة تكرار الفرار هنا في المستنقع ستجعله متحيرًا وعاجزًا.

من جانب آخر، إذا عثرتُ على الكوخ الحجري، ولم يكن النزيل فيه، فعليّ أن أبقى هناك منتظرًا عودته، مهما تطلب الأمر من اليقظة والانتباه. لقد فقد هولمز أثره في لندن، وحقًا سيكون ذلك نصرًا لي لو استطعتُ أن أطارده إلى ذلك المكان، حيث أخفق أستاذي في الإمساك به. مرةً بعد أخرى ـ ومنذ بدأنا في هذا التحقيق ـ لم يكن الحظ حليفنا، ولكن أخيرًا جاء لمساعدتي، ولم يكن رسول الحظ الجيد إلا السيد فرانكلاند، بوجهه الأحمر وشاربه الأبيض الكث. كان واقفًا خارج باب حديقته المفتوحة على طول الطريق العالي حيث كنت أسافر، صاح وهو في مزاج طيب غير معتاد!

ـ يومًا طيبًا، دكتور واتسن. يجب عليك أن تريح أحصنتك، وأنا أدعوك لتناول كأس من الشراب، ولكي تقدم لي التهاني!

كانت مشاعري تجاهه بعيدة جدًا عن المودّة، بعد الذي سمعتُ عن معاملته ابنته، لكنني كنت تواقًا لإرسال بيركنز والعربة إلى البيت، والفرصة كانت سانحة. ترجلت

ووجهتُ رسالة إلى السير هنري، مفادها أنني سأعود ماشيًا عند وقت العشاء، ثم تبعت فرانكلاند إلى غرفة الطعام.

صاح بعد ضحكات مكتومة:

ـ إنه يوم عظيم لي، يا سير...، إنه واحد من أيامي المشهودة الخالدة في حياتي، لقد حسمتُ أمرًا مزدوجًا، أنا أنوي تعليمهم في هذه الأنحاء أن القانون هو القانون، وأنه يوجد رجل هنا لا يخشى تنفيذه. لقد أنشأتُ وقمت بتثبيت حقٍ لي في طريقٍ خلال حديقة ميدلتون القديمة، ممر يخترقها يا سيدي، ضمن حدود مائة ياردة من بابه الأمامي الخاص. ما رأيك في ذلك؟ نحن سنعلمهم أولئك الأثرياء المتغطرسين، أنه لا يمكنهم أن يتطاولوا على حقوق العامة، نذهلهم ونحيّرهم! وأيضًا قد قمتُ بإغلاق الغابة حيث اعتاد سكان فيرنورثي أن يتنزهوا، فهؤلاء الناس الأشرار يظنون عدم وجود حقوق ملكية، وأنهم يمكنهم أن يتجمهروا حيث يشاؤون مع ورقهم وزجاجاتهم... كلتا القضيتين حسمت يا دكتور واتسن، وكلاهما لصالحي. لم أحظَ بمثل هذا اليوم منذ أن كسبتُ القضية ضد السير جون مورلاند بسبب تعدّيه، لأنه أطلق النار في أرضه وملكيته.

ـ بحق السماء! كيف تمكنتَ من فعل ذلك؟

ـ ابحث عن ذلك في الكتب يا سيدي، فهي ستغنيك: فرانكلاند ضد مورلاند، محكمة بينج كوين. كلفتني ٢٠٠ باوند، ولكنني كسبتها.

ـ وهل عادت إليك بفائدة؟

ـ لا، يا سيدي، بلا أي فائدة! أنا أفتخر بأنني لم أحصل على فائدة من الأمر. أنا أتحرك انطلاقًا من الشعور بالواجب العام. ولا شك لدي، على سبيل المثال، أن سكان فيرنورثي سيحرقون دميتي[٣٣] الليلة. في المرة الأخيرة أخبرتُ الشرطة بما فعلوا، وأن عليهم أن يوقفوا هذه الاستعراضات المشينة. مركز شرطة المقاطعة في حالة مخزية يا سيدي، ولم يقدم لي الحمايةَ التي أستحق. ستجلب قضية فرانكلاند ضد ريجينا الأمرَ علنًا أمام اهتمام الرأي العام، لقد أخبرتهم لأنه كانت لديهم الفرصة للاعتذار عن معاملتي بتلك الطريقة، وأصلًا قد تحققت كلماتي فعلًا.

ـ وكيف ذلك؟

فأجابني الرجل العجوز بتعبير مألوف جدًا!

---

٣٣ (effigy) دمية رمزية تُصنع من أي مادة تشبه شخصيةً ما يكرهها الناس ويحرقونها احتجاجًا.

ـ لأنه يمكنني أن أخبرهم بما يموتون شوقًا من أجل معرفته، ولكن لا شيء يحفزني على مساعدة الأوغاد بأي شكل من الأشكال.

كنتُ وما زلت أتجول هنا وهناك، من أجل بعض العذر الذي بوساطته استطعتُ أن أبتعد عن ثرثرته، لكنني الآن بدأت أرغب في أن أسمع المزيد منه. لقد عرفتُ ما يكفي من طبيعة هذا العجوز الآثم المتناقضة، وذلك ما يجعلني أفهم أن أي إشارة قوية من الاهتمام تصدر منّي، ستكون الطريق المؤكد جدًا لتوقف كشف أسراره.

فقلت بأسلوب اللامبالاة:

ـ لا شك في أنها قضية صيد غير مشروع، أليس كذلك؟

ـ ها ها ها... يا ولدي، إنها قضية أهم من ذلك بكثير! فماذا عن قضية المجرم المدان في المستنقع؟

فبدأتُ:

ـ أنت لا تعني أنك تعرف مكانه، صحيح؟

ـ ربما لا أعرف بالضبط أين يكون، لكنني متأكد تمامًا أنني من الممكن أن أساعد الشرطة على وضع أيديهم عليه. ألم يخطر لك بأن طريقةَ الإمساك بذلك الرجل، كانت باكتشاف مصدر حصوله على الطعام؟ وهكذا يوصلك ذلك إليه.

بدا لي بالتأكيد أنه سيقترب بأسلوب غير مريح من الحقيقة.

ـ بلا شك، ولكن كيف تعرف أنه في مكان ما من المستنقع؟

ـ عرفتُ ذلك لأنني رأيت بعيني الرسولَ الذي يأخذ الطعام له!

فخفق قلبي بشدة خوفًا على باريمور! إنه أمرٌ جاد وخطر أن يكون في طاقة هذا الرجل العجوز الفضولي الحقود، لكن كلامه التالي أزاح ثقلًا عن عقلي:

ـ وستُفاجأ عندما تسمع أن طفلًا يوصل طعامه إليه! أنا أراقبه في كل يوم بتلسكوبي من على السطح، يمر على طول المسلك نفسه عند الساعة نفسها، ولمن يجب أن يكون هذا إن لم يكن لمجرمٍ مدان؟

هنا يكون الحظ حقًا! ومع ذلك كتمتُ كل مظهر للاهتمام بهذا الخبر. طفل! قال باريمور إن الرجل المجهول يتم توصيل تجهيزاته من قبل ولد! كان على مساره، وليس

على مسار المجرم، لقد أخطأ فرانكلاند! لو أنني استطعتُ أن أحصل على هذه المعلومة لكفتني شأنَ مطاردة طويلة ومتعثرة. كانت اللامصداقية واللامبالاة بطاقتيّ الأقوى:

ـ يجب أن أقول إنه كان من المحتمل جدًا، أن يكون واحدًا من أبناء رعاة المستنقع يوصل العشاء لأبيه.

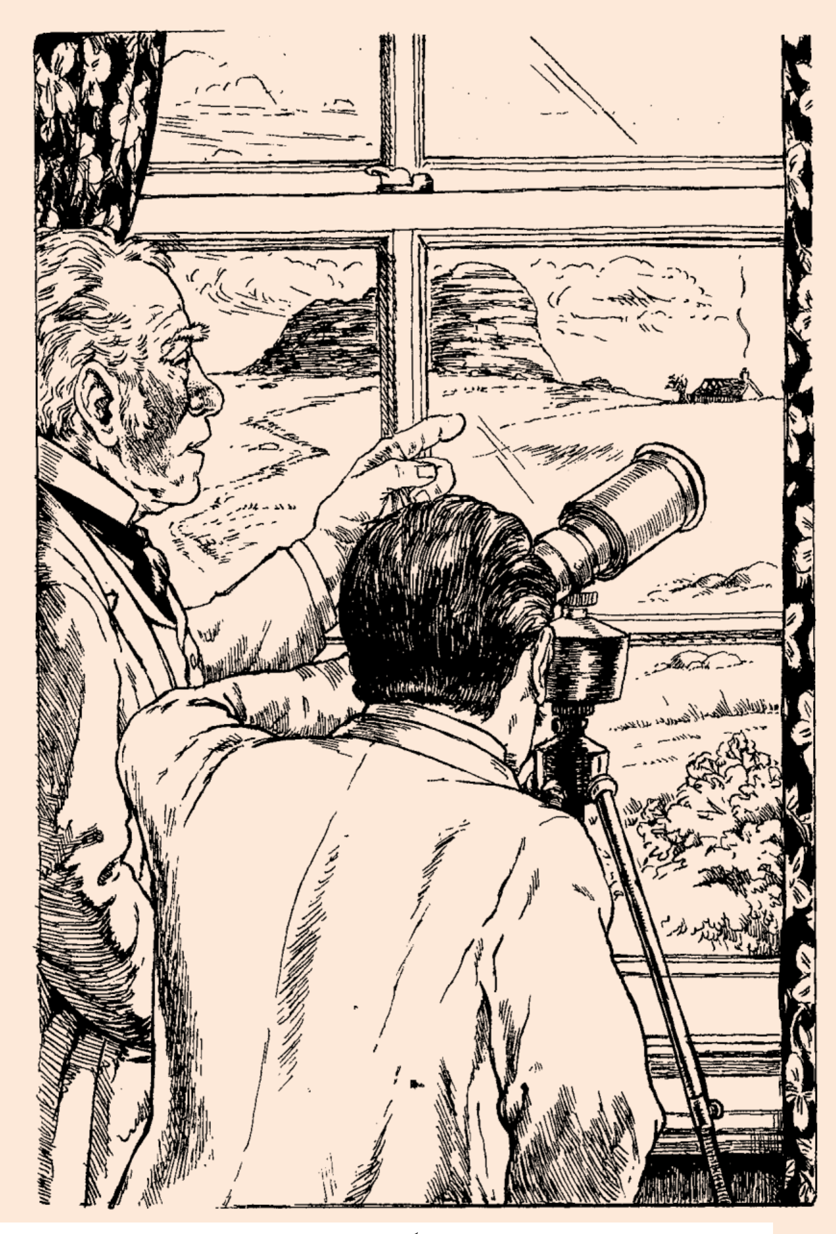
أشعل تظاهري الأخير بقليل من معارضة قوله آنفًا النار في هذا المستبد العجوز! فحدقت عيونه فيّ بخبث وكراهية، وانتفض شاربه الأبيض مثل شارب أي قط غاضب! وقال وهو يشير نحو المستنقع العريض الممتد:

ـ حقًا، سيدي!! أترى تلك الهضبة السوداء بعيدًا هنالك؟ حسنٌ، أترى التل المنخفض وراءها مع الشجر الشوكي عليها؟ ذلك هو الجزء الأكثر تحجرًا وصلادة في كل المستنقع، أيكون من المحتمل أن راعيًا يختار ذلك المكان؟ اقتراحك يا سيدي هو الأسخف والأكثر لا معقولية!

فأجبت في تواضع أنني تكلمت بلا معرفة كل الحقائق، فأرضاه تسليمي وخضوعي هذا، وقاده إلى الكشف عن مزيد من الاعترافات:

ـ لتكن متأكدًا يا سيدي، من أنني أثبّت أسسًا جيدة قبل تكوين رأيي، إنني رأيت الصبي مرارًا وتكرارًا مع لفافته. كل يوم، وفي بعض الأحيان مرتين في اليوم، وكنتُ قادرًا... ولكن انتظر لحظة، يا دكتور واتسن، أتخدعني عيناي، أم أن شيئًا هنالك يتحرك الآن على جانب التل ذاك؟

كان المنظر يبعد عنا بعض الأميال، لكنني تمكنت من تحديد رؤية نقطة سوداء صغيرة، بارزة على اللونين الأخضر والرمادي الداكنين. صاح فرانكلاند وهو يندفع مسرعًا نحو أعلى السلم:



كان التلسكوب مثبتًا على حامل ثلاثي القوائم.

ـ تعال يا سيدي! تعال. سترى بعينيك وتحكم بنفسك.

كان التلسكوب أداة هائلة مثبتة على حامل ثلاثي القوائم، ومنصوب على ألواح مسطحة من البيت. وضع فرانكلاند عينه فيه ثم أطلق صيحة الرضا!

ـ أسرع، يا دكتور واتسن، أسرع! قبل أن يعبر فوق التل.

فعلًا كان هنالك، بما يكفي من التأكيد، ولد صغير يحمل لفافة صغيرة على كتفه، يسير في كد وبطء نحو أعلى التل، وعندما وصل إلى رأس التل، رأيتُ الهيكل الأشعث غير المألوف للحظة قبالة السماء الزرقاء الباردة، نظر حوله بهيئة الماكر المتسلل السري، مثل شخص مرعوب من المطاردة، ثم اختفى فوق التل.

ـ حسنٌ، هل أنا على حق؟

ـ بكل تأكيد، هنالك ولد يبدو أن لديه مهمة سرية قصيرة.

ـ مهمة يمكن حتى لشرطي مقاطعة أن يحزرها، لكنهم لن يحظوا بكلمة مني، وأن أحثك أيضًا على إخفاء الأمر أيضًا يا دكتور واتسن، ولا كلمة! أتفهم؟

ـ كما ترغب يا سيدي.

ـ لقد عاملوني بصورة مخجلة... مخزية. عندما ظهرت النتائج في قضية فرانكلاند ضد ريجينا، غامرت بالتفكير بأن هزة من الغضب والنقمة ستسري خلال الريف. لا شيء يمكن أن يجبرني على مساعدة الشرطة وبأي طريقة، بسبب كل ما عملوه ضدي، ربما أنا أُحرق

بدلًا من دميتي التي أشعلها الأوغاد على الوتد. من المؤكد أنك لن تذهب! ستساعدني على إنهاء هذا الشراب كله احتفالًا في هذه المناسبة العظيمة.

لكنني قاومتُ كل التماساته، ونجحت في ثنيه عن عزمه، إذ أراد أن يمشي معي إلى البيت. بقيت على الطريق طالما كانت عينه تراقبني، ثم انحرفت عبر المستنقع، واتخذت طريقي نحو التل الحجري الذي اختفى عنده الفتى. كل شيء كان يسير في صالحي، وقد أقسمتُ أنني لن أفقد الفرصة ـ بسبب قلة الطاقة أو المثابرة ـ التي رماها الحظ في طريقي.

كانت الشمس قبل ذلك قد نزلت عندما وصلتُ إلى قمة التل، وكانت كل المنحدرات في الأسفل بخضرة ذهبية على جانب، وبظل رمادي على جانب آخر، وكان هنالك على الأفق الأبعد سديم من ضباب منخفض، بعيدًا حيث تمتد الأشكال البارزة والرائعة من هضبة بيليفر وفيكسين. فوق الامتداد العريض، لم يكن هنالك صوت ولا حركة، طائر واحد رمادي كبير، ربما يكون نورسًا أو كروانًا ارتفع عاليًا في السماء الزرقاء، أنا وذلك الطائر كنا الشيئين الحيين الوحيدين فقط، بين قوس السماء الهائل والأرض القاحلة تحته.

المنظر المجدب، والإحساس بالوحدة، وغموض مهمتي وضرورتها الملحة، كل ذلك أصابني بالقشعريرة في صميم قلبي! لم أظفر برؤية الفتى إذ لم يكن في أي مكان، ولكن في الأسفل في شق من التل، كانت هنالك مجموعة من الكهوف الحجرية القديمة، وفي

وسطها هنالك واحد احتفظ بسقف كاف ليعمل مثل حاجز ضد الطقس، قفز قلبي في داخلي عندما رأيته! لا بد أن يكون هذا هو الكوخ الذي يندس فيه الغريب. وأخيرًا! قدماي كانتا عند عتبة هذا المخبأ... وبهذا، فإن سرّه في متناول يديّ.

عندما اقتربت من الكوخ ماشيًا في حذر واعتناء ـ كما يفعل ستابلتون مع شبكته المهيئة بتقرّبه من فراشةٍ واقفة ـ أحسست بالرضا أن المكان فعلًا كان وما يزال يُستعمل مسكنًا. ممر غامض بين الجلاميد، قاد إلى فتحة متهدمة تمثّل الباب، وكل شيء كان في سكون. ربما يكون ذلك الشخص المجهول مختبئًا هنالك، أو ربما يكون يجوس في المستنقع. ارتعشت أعصابي بشعور المغامرة! رميت عقب سيجاري جانبًا، وأحكمت قبضتي على مسدسي، ومشيت في هدوء نحو الباب، نظرت هناك، كان المكان خاليًا! لكن كانت هنالك آثار وعلامات وافية، تدل على أنني لم آتِ إلى المكان الخطأ، فمن المؤكد أنه يعيش هنا.

بعض البطانيات الملفوفة في وضع مضاد للماء، على تلك البلاطة الحجرية التي هجع عليها رجل العصر الحجري مرة، ورماد النيران كان في أكوام على موقد خشن، وإلى جانبه بعض أواني الطهي، ودلو ممتلئ ماءً إلى النصف، وقمامة من العلب الفارغة، أظهرت أن المكان كان مشغولًا لبعض الوقت، ورأيتُ ـ عندما أمست عيوني متآلفة مع الضوء المتقطع ـ قدحًا معدنيًا وزجاجة مشروب ممتلئة إلى النصف موضوعة في الزاوية.

في الوسط هنالك حجر مسطح يُستعمل كالمائدة، وعليه وضعت لفافة صغيرة من القماش، هي نفسها، لا شك التي رأيتها عبر التلسكوب محمولة على كتف الفتى. كانت تحتوي رغيفًا من الخبز، ولحمًا معلبًا، وعلبتين من الخوخ المحفوظ. عندما جلست مرة أخرى لفحصها، قفز قلبي لأنني رأيت هنالك تحتها قطعةً من ورق وعليها كتابة! رفعتها، وهذا كان مكتوبًا عليها بخط غير متناسق:

«دكتور واتسن ذهب إلى كومب تريسي».

لدقيقةٍ وقفتُ هنالك، والورقة بين يديّ أفكر وأحاول استنتاج معنى من هذه الرسالة المقتضبة! إذن أنا المراقب من قبل الرجل السري وليس السير هنري! لم يتبعني بنفسه، لكنه أرسل وكيلًا ـ ربما يكون الفتى ـ على أثري، وهذا كان تقريره! من المحتمل أنني لم أقم بخطوة منذ كنت في المستنقع، إلا وكنتُ فيها تحت المراقبة وإرسال التقارير عني. دائمًا يوجد هنالك هذا الإحساس بقوة غير مرئية، أو شبكة رفيعة تلتف حولنا بمهارة ودهاء وإتقان، تحتجزنا برفق، وفقط عند لحظة الذروة يدرك الفرد أنه فعلًا عالق في شراكها!

وجود تقرير واحد، يعني أن هنالك تقارير أخرى، لذا قمت بالتفتيش في أرجاء الكوخ بحثًا عنها، ولكن لم يكن هنالك أثر لأي شيء من ذلك النوع. لم أستطع اكتشاف أي علامةٍ ربما تشير إلى شخصية الرجل، الذي يعيش في مكان منعزل كهذا أو مقاصده، إلا أن يكون

من ذوي العادات المتقشفة الخشنة، الذين لا يهتمون إلا للقليل من الراحة ومباهج الحياة. عندما فكرت في المطر الغزير، وتطلعت إلى السقف ذي الفتحات، فهمت مدى القوة والثبات، اللتين يجب أن تكونا في الهدف الذي يبقيه في مثل هذا المسكن القاسي. أيكون هو عدونا الخبيث أم ـ بالمصادفة ـ يكون ملاكنا الحارس؟ أقسمتُ على أنني لن أغادر الكوخ الحجري حتى أعرف!

في الخارج كانت الشمس تنزل أكثر فأكثر، وكان الغرب ملتهبًا باللون القرمزي والذهب. كان انعكاسه مرتدًا في بقع البرك الحمر البعيدة، التي تقع وسط مستنقع غرمبين الكبير. كان هنالك برجا باسكرفيل، وضباب دخاني بعيد يشير إلى وجود قرية غرمبين. وبين الاثنين، خلف التل، يقع بيت آل ستابلتون. كل شيء كان لطيفًا ومتكاملًا ومسالمًا في نور المساء الذهبي، ومع ذلك، عندما نظرتُ إلى كل ذلك لم تشارك روحي أيّ قطعةٍ من سلام الطبيعة، بل ارتجفتُ من غموض تلك المقابلة وفزعها، المقابلة التي كان يقترب حينها في كل لحظة. جلستُ ـ وأعصابي مشدودة تؤلمني، ولكن بحزم وإصرار على الموضوع ـ في الفراغ المظلم من الكوخ منتظرًا في صبر ممض مقدمَ المقيم.

وأخيرًا، بعد مرور وقت... سمعته! أتى من بعيد صوتُ نقرات حذاء حادة تضرب الحجر. ثم أخرى، ثم أخرى... تقترب وتقترب... فتقلصتُ راجعًا في الزاوية الأكثر

ظلامًا، وسحبت زناد مسدسي في جيبي، مصممًا على أن لا أكشف عن وجودي، حتى أحصل على الفرصة المناسبة لرؤية شيء من الغريب. كان هنالك توقف دلّ على أن المجهول قد لبث قليلا عند المدخل! ثم مرة أخرى اقتربت خطواتُ الأقدام، وسقط ظل عبر فتحة الكوخ. ثم قال صوتٌ مألوف جدًا:

ـ إنه مساء لطيف، يا عزيزي واتسن! حقًا أعتقد أنك سوف تكون مرتاحًا أكثر في الخارج من جلوسك هنا!!!

١٢ – موت على أرض المستنقع

للحظة أو لحظتين وقفت منقطعَ الأنفاس، لا يمكنني أن أصدق أذني! ثم عادت إلي حواسي وصوتي، بينما ارتفع عن روحي وزن باهظ وساحق من المسؤولية في لحظة واحدة. لا يمكن أن يُنسب ذلك الصوت البارد الحاد الفولاذي إلا لشخص واحد في العالم، فصحتُ:

ـ هولمز! هولمز!

فقال:

ـ أخرجْ! ولكن رجاءً انتبه للمسدس!

انحنيت تحت المدخل القاسي، وهناك كان يجلس على حجر في الخارج، ترقص عيونه الرمادية طربًا، عندما وقعت على ملامح الذهول في وجهي! كان قد غدا نحيفًا ومرهقًا، لكنه بقي في وضوحه وانتباهه، أصابت وجهه الحادَ لفعة برونزيةٌ من الشمس وقد يبّسته الريح. كان في بذلته من التويد(٣٤) وقبعته القماشية مشابهًا لأي سائح يتجول في منطقة المستنقع، ولقد اهتم في الاعتناء بنفسه مثل مظهر القط في حب النظافة، التي كانت واحدة

[٣٤] (tweed suit) بذلة من النسيج الصوفي الخشن، يكثر ارتداؤها في بريطانيا وآيرلندا، وهي تحمي من قسوة الجو.

من أهم سماته الشخصية: ذقنه الناعم، وملابسه متكاملة الأناقة، كأنه كان في شارع بيكر!

قلت وأنا أهز يده بقوة:

ـ لم أكن مسرورًا بهذا المقدار لرؤية أي شخص في حياتي من قبل!

ـ أو يمكن أن نقول أكثر ذهولًا؟

ـ حسنٌ، يجب أن أعترف بذلك.

ـ لم تكن المفاجأة كلها في جانب واحد، أؤكد لك. أنا لم تكن لدي فكرة عن أنك قد عثرتَ على مأواي العرَضي هذا، ولا عن وجودك في الداخل، إذ لم أنتبه لذلك إلا عندما كنتُ ضمن مسافة عشرين خطوة من الباب.

ـ من آثار أقدامي؟... أفترض ذلك.

ـ لا، يا واتسن، لم أتمكن من تمييز آثار أقدامك بين كل آثار الأقدام في العالم. إذا كنتَ راغبًا جديًا في خداعي، فيجب عليك أن تغيّر نوع تبغك، لأنني حين أرى عقب سيجار من ماركة برادلي/ شارع أوكسفورد، أعرف أن صديقي واتسن في الجوار. ستجدها هناك على جانب المدخل، لقد رميتَها وتخلصتَ منها بلا شك، في اللحظة الحاسمة عند استعدادك لاقتحام الكوخ الحجري الفارغ.

ـ بالضبط!

ـ لقد فكرتُ وأنا أعرف مثابرتك وإصرارك المثير للإعجاب. لقد كنتُ مقتنعًا بأنك جالس في كمين وسلاحك متأهب، منتظرًا عودة المقيم. لذا، هل اعتقدتَ فعلًا أنني كنت المجرم؟

ـ لم أكن أعرف من تكون، لكنني كنتُ مصممًا على اكتشاف ذلك.

ـ ممتاز يا واتسن! وكيف تمكنت من تحديد موقعي؟ ربما أنك رأيتني في تلك الليلة في مطاردة المجرم، عندما قمتُ بحركة طائشة جدًا، إذ سمحتُ لنفسي بأن يكون القمر منيرًا خلفي، صحيح؟

ـ نعم، أنا رأيتك حينذاك.

ـ ولا شك لدي في أنك قد فتشتَ كل الأكواخ الحجرية حتى وصلتَ إلى هذا؟

ـ لا، لقد شوهد فتاك، وذلك قد منحني دليلًا إلى حيث أبحث...

ـ الجنتلمان العجوز صاحب التلسكوب! لا ريب في ذلك. أول مرة لم أستطع استنتاجَ ذلك عندما رأيت انعكاس الضوء على العدسات.

دخل إلى الكوخ الحجري، ثم قال:

ـ ها! إننى أرى أن كارترايت قد جلب بعض المؤونة. ما هذه الورقة؟ إذن، قد كنتَ في كومب تريسي، أليس كذلك؟

ـ بلى.

ـ لمقابلة السيدة لورا لايونز؟

ـ بالضبط!

ـ أحسنت! عمل رائع! يبدو أن أبحاثنا كانت تسير على خطوط متوازية، وعندما نوحّد نتائجنا، فإنني أتوقع أننا سوف نمتلك معرفةً كاملة حول القضية بشكل حسن.

ـ أنا مسرور من أعماق قلبي لوجودك هنا! حقًا لأن المسؤولية واللغز معًا قد أمسيا مرهقينِ لأعصابي كثيرًا. ولكن بحق التعجب والغرابة كيف جئتَ إلى هنا، وماذا كنت تفعل طول هذا الوقت؟ اعتقدتُ أنك كنت في شارع بيكر تعمل على قضية الابتزاز تلك.

ـ كنت أرغب في جعلك تعتقد ذلك!

فصحت وبداخلي بعض شعور المرارة:

ـ إذن أنت جعلتني غرضًا للاستغلال! وأنت حتى الآن لا تثق بي! أنا أعتقد أنني نلت الأفضل على يديك، يا هولمز!

ـ يا رفيقي العزيز، أنت ما تزال قيّما عندي في هذه القضية كما كنت في أخريات كثيرات، وأتوسل إليك أن تسامحني إذا بدوتُ لك أنني أمارس خدعةً عليك. في الحقيقة، فعلت ذلك بسبب جانب من الأمر يتعلق بمصلحتك الشخصية، وكان الأمر بحسب تقديري للخطورة التي تمر فيها، وهو ما قادني إلى المجيء والاطلاع على الأمر بنفسي. لو كنتُ معكما أنت والسير هنري، فمن المحتوم أن وجهة نظري ستكون مطابقة لوجهة نظرك نفسها، ولكان وجودي سينبه أعداءنا الهائلين، ليكونوا على أشد الحذر واليقظة. استنادًا إلى هذا، كنت وما زلت قادرًا على الإحاطة بالموضوع بخلاف ما لو كنتُ مقيمًا في الفيلا، وبقيتُ عنصرًا مجهولًا في هذه القضية، ومستعدًا للتدخل كليًا في اللحظة الحرجة.

ـ ولكن لماذا تبقيني في الظلام؟

ـ لأنك لن تعرفَ كيف يمكن أن تساعدنا، بل وهنالك احتمال أنك تقود إلى الكشف عني. فربما ترغب في إخباري عن شيء، أو يحصل في اهتمامك وعطفك أن تجلب لي بعض الراحة أو ما يشبه ذلك... وهكذا ستكون هنالك مخاطرة غير ضرورية. لقد جلبتُ معي الفتى كارترايت معي، أنت تتذكر الشاب الصغير في مكتب النقل، وهو يلبي حاجاتي البسيطة: رغيف من الخبز، وياقة نظيفة. فما الذي يريده الرجل أكثر من ذلك؟ لقد منحني عينين إضافيتين على قدمين نشيطتين جدًا، وكلاهما كان قيّما جدًا!

اضطرب صوتي كأنني استذكرت الآلام والفخر الذين بهما أنشأت تقاريري:

ـ إذن كل تقاريري كانت هباءً!

فتناول هولمز حزمة من الأوراق من جيبه، وقال:

ـ هذه هي تقاريرك، يا رفيقي العزيز، وأؤكد لك أنها مقروءة جيدًا. لقد أعددتُ ترتيبات ممتازة، وهي متأخرة يومًا واحدًا في طريقها. يجب أن أهنئك كثيرًا على الحماسة والذكاء، اللتين أظهرتهما في خضم هذه القضية الصعبة وفوق الاعتيادية.

في الواقع لما أزل بارد المشاعر بسبب الخداع الذي جرى عليّ، ولكن حرارة ثناء هولمز جعلت الغضب يذهب عني. لقد شعرتُ أيضًا في قلبي بأنه كان على حق في ما قال، إذ كان ذلك هو الأفضل لغايتنا المشتركة، إذ يجب أن لا أعرف بحضوره في المستنقع.

قال وهو يرى الظل يرتفع عن وجهي:

ـ ذلك أفضل. والآن أخبرني عن نتيجة زيارتك إلى السيدة لورا لايونز. لم يكن صعبًا عليّ أن أحزر أنك ذهبت من أجل رؤيتها، لأنني كنت أدري أصلا أنها الشخص الوحيد في كومب تريسي، الذي يمكن أن ننتفع منه في هذا الأمر. في الحقيقة، لولا ذهابك اليوم إليها لكان من المحتمل جدًا أن أزورها يوم غد.

غربت الشمس واعتلى الظلام فوق المستنقع، صار الهواء باردًا، فانسحبنا إلى داخل الكوخ الحجري طلبًا للدفء. هنالك ـ جالسين معًا في الغسق ـ أخبرتُ هولمز عن حواري مع الآنسة ستابلتون، وكان مهتمًا جدًا! حتى أنني اضطررت لتكرار بعض المقاطع مرتين قبل أن يحس بالرضا والاكتفاء. قال عندما ختمت حديثي:

ـ هذا هو الأهم، إنه يسدّ فراغًا في هذه القضية الأصعب لم أتمكن من اجتيازه. ربما تعلم بوجود علاقة حميمة بين هذه السيدة والرجل ستابلتون؟

ـ لم أعرف شيئًا عن علاقة مقربة!

ـ لا يمكن أن يكون هنالك شك في الأمر. إنهم يلتقون، ويكتبون، ويوجد تفاهم كامل بينهم. الآن، هذا يضع سلاحًا قويًا جدًا في أيدينا، لو أستطيع فقط أن أستعمله لفصل زوجته...

ـ زوجته!؟

ـ أنا الآن أقدم لك بعض المعلومات في مقابل ما قدمته لي: إن السيدة التي مرت من هنا بصفة الآنسة ستابلتون هي في الحقيقة زوجته!

ـ يا للسماء! يا هولمز! هل أنت متأكد مما تقول؟ كيف استطاع أن يسمح للسير هنري بأن يقع في حبها؟

ـ إن وقوع السير هنري في الحب لا يؤذي أحدًا إلا السير هنري نفسه. لقد اعتنى ستابلتون بالأمر بدقة، لكي لا يمارس السير هنري الحب معها، كما قد رأيتَ ذلك بنفسك. وأعيد كلامي: هذه السيدة تكون زوجته لا أخته!

ـ ولكن لماذا هذا الخداع المتقن؟

ـ لأنه يتوقع أنها ستكون عونًا أكبر له إذا ظهرت في سلوك المرأة الحرة.

فجأة! كل غرائزي غير المعلنة، وشكوكي الغامضة، تآلفت واتخذت شكلًا وتركزت في تخيّل شخصية العالم الطبيعي ذاك. ذلك الرجل عديم العاطفة، والشاحب، بقبعته من القش وشبكة فراشاته، لطالما كنتُ أرى شيئًا فظيعًا ومرعبًا، مخلوقًا من الصبر والحرفة اللانهائيين، مع الوجه الباسم والقلب المجرم.

ـ إذن، أيكون هو عدونا... هل هو من تعقبنا في لندن؟

ـ أنا أرى اللغز بهذه الصورة.

ـ والتحذير! لا بد أن يكون من تدبيره، صحيح؟

ـ بالضبط.

شكل من الإجرام المتوحش، نصف ظاهر ونصف مخمّن، بزغ من الظلام الذي طوقني لمدة طويلة جدًا.

ـ ولكن هل أنت متأكد من هذا، يا هولمز؟ كيف تعرف أن تلك المرأة تكون زوجته؟

ـ لأنه غفل ونسي نفسه، إلى الحد الذي يخبرك فيه جزءًا حقيقيًا من سيرته، لمناسبة لقائكما الأول وتعارفكما. وأنا أجرؤ على القول، إنه قد ندم كثيرًا جدًا على هذا منذ ذلك الحين. لقد أخبرك أنه كان لمدة من الوقت مديرَ مدرسة في شمال إنكلترا، والآن، لا أحد يسهل تتبعُ أثره أكثر من مدير مدرسة. هنالك وكالات مدرسية، بها يتمكن الفرد من التعرف والسؤال عن أي رجل في هذه المهنة. قليل من التحقيق أظهر لي أن مدرسة قد حزنت بسبب مرورها في ظرف شنيع، وأن ذلك الرجل الذي كان يملك المدرسة ـ كان الاسم مختلفًا ـ قد اختفى مع زوجته! كانت الأوصاف متطابقة. عندما علمتُ أن الرجل المفقود كان مختصًا بعلم الحشرات اكتمل عندي تحديد الهوية.

كان الظلام يرتفع، ولكن كثيرًا من الأمر ما يزال مخفيًا بالظلال، فسألت:

ـ إذا كانت هذه المرأة زوجته في الحقيقة، فما علاقة السيدة لورا لايونز بالأمر؟

ـ تلك واحدة من النقاط التي أضاءتها أبحاثك، أوضحت مقابلتك مع السيدة الموقفَ بصورة جيدة. لم أكن أعرف عن الطلاق المتوقع بينها وبين زوجها، في ذلك الحال ـ ومع عدّ ستابلتون رجلًا أعزب ـ تكون هي هيأت نفسها بلا شك لتصبح زوجة له.

ـ ومتى تخلصتْ من هذا الوهم؟

ـ إذن، ولهذا السبب ربما نزور سيدةَ الأعمال تلك، ويجب أن تكون زيارتها واجبنا المشترك الأول غدًا... ألا تعتقد يا واتسن، أنك بعيد عن موقع مسؤوليتك وواجبك بمسافة طويلة نوعًا ما؟ مكانك يجب أن يكون في فيلا باسكرفيل.

تلاشت آخر الأشرطة الحمر في الغرب، وخيّم الليل على المستنقع، وكانت بعض النجوم الخافتة تبرق في السماء البنفسجية. قلت وأنا أنهض:

ـ سؤال أخير يا هولمز: بالتأكيد لا حاجة للسرية بيننا، ما معنى هذا كله؟ ما الذي يسعى إليه؟

فخفت صوت هولمز، عندما أجاب:

ـ إنه القتل يا واتسن، جريمة قتل محضة، بدم بارد، ومقصودة. ولا تسألني عن التفاصيل. فشباكي تحاصره الآن، حتى لو كانت شباكه هو تحاصر السيرَ هنري،

وبمساعدتك فهو أصلًا في قبضتي تقريبًا وتحت رحمتي. ولكن هنالك خطر وحيد يهددنا، وهو أنه قد يسدد لنا ضربةً مفاجئة قبل أن نكون مستعدين للهجوم عليه! يوم آخر أو يومان في الأكثر، وستكتمل عندي خيوط القضية، ولكن حتى ذلك الوقت، احرص جيدا على حراسة السير هنري، وكن قريبًا منه دائمًا كاعتناء الأم الحنون بابنها المريض. مهمتك اليوم قد سوّغت نفسها بعد هذا الابتعاد، ومع ذلك أنا تقريبًا أرغب لو أنك لم تترك جانبه. اصغِ!!

انفجرت صرخةٌ مروّعة... صياحٌ طويل من الفزع والعذاب، مزق سكونَ المستنقع. تلك الصيحة المرعبة جمدت الدم في عروقي! فقلت لاهثًا:

ـ يا إلهي! ما هذا! وماذا يعني؟

قفز هولمز على قدميه، ورأيت هيكله الأسودَ الرياضي الرشيق عند باب الكوخ، وانحنت كتفاه، وأقحم رأسه متقدمًا، ينظر هنا وهناك في الظلمة، وهمس لي:

ـ صهٍ، صهٍ!

كان الصياح عاليًا بسبب قوة الصوت، لقد انفجر من مكان ما بعيد على السهل المظلم الغامض، والآن اقتحم آذاننا، أقرب، وأشد، وبوتيرة أسرع من قبل. همس هولمز، وقد

عرفت من الانفعال في صوته أنه ـ وهو الرجل الفولاذي ـ كان مرتجفًا خائفًا حتى أعماق روحه:

ـ أين ذلك؟ أين ذلك، يا واتسن؟

فأشرت إلى ناحية ما في الظلمة:

ـ هنالك... أظن.

ـ لا، بل هنالك!

ومرةً أخرى، اجتاحت الصيحة المكروبة الليلَ الصامت، أعلى، وأقرب مما سبق، وقد اختلط معها صوت جديد، دمدمة وقعقعة عميقة، موسيقية، ومع ذلك مهدّدة، مزمجرة، ترتفع وتنخفض مثل صوت أمواج البحر المنخفضة الثابتة. فصاح هولمز:

ـ إنه الكلب! تعال يا واتسن تعال. أيتها السماوات العظيمة، أخشى أن نكون متأخرين!

شرع بالركض سريعًا على المستنقع، وعدوتُ خلفه مباشرة، لكن الآن ومن مكان ما بين الأرض المتكسرة، جاءت أمامنا صيحةٌ يائسة أخيرة! وتلا ذلك هدير مكتوم قوي ثقيل. وقفنا وأصغينا، ولم يكن هنالك أي نأمة أخرى تكسر السكون الثقيل لليلة بلا رياح. رأيت هولمز يضع يده على جبهته كرجل ذاهل متحير، ثم ضرب الأرض بقدميه!

ـ لقد هزمَنا يا واتسن... تأخرنا كثيرًا!

ـ لا، لا... بالتأكيد ليس كذلك.

ـ ما أشد حماقتي عندما لم أسارع لاعتقال القاتل! وأنت يا واتسن، انظر إلى عواقب إهمالك مراقبةَ مسؤوليتك! لكن وحقّ السماء، لو أن الأسوأ كان قد حصل هذه الليلة لننتقمنّ منه!

ركضنا في عمى خلال العتمة، نتخبط على الصخور، ونشق طريقنا خلال أجمات شجيرات الرتم[٣٥]، نرتقي التلال لاهثين، وننحدر أسفل المنحدرات، منطلقين دائمًا في الاتجاه إلى حيث جاءت منه الأصوات المروعة. عند كل ارتفاع كان هولمز ينظر حوله في لهفة! لكن الظلال كانت قاتمة على المستنقع، ولا شيء قد تحرك على وجهه الممل.

ـ هل يمكنك أن ترى أي شيء؟

ـ لا شيء!

ـ ولكن! انتبه! ما ذلك؟

---

[٣٥] (gorse) شجيرة ذات أزهار صفر.

وصل إلى آذاننا أنينٌ منخفض! مرة أخرى كان الصوت على يسارنا! على ذلك الجانب نتوء صخري ينتهي بجرف هارٍ، يطلّ على منحدر متناثر الأحجار، على سطحه المتعرج كان هنالك جسم منتشر كالعقاب، وداكن بعض الشيء، وغير نظامي. عندما ركضنا نحوه تصلب الجسم الغامض في شكل محدد! كان رجلًا منبطحًا ووجهه نحو الأسفل على الأرض، والرأس مطوي تحته في زاوية فظيعة، والأكتاف متقاربة، والجسم محدودب وملتفٌ على نفسه كما لو كان في حركة دوران في الهواء! كانت هيئة غريبة، ولم أستطع للحظة أن أميز أن ذلك الأنين، كان لهذا الجسد الذي تفارقه الروح. لا همس، ولا حشرجة، تصدر الآن من الجسم المظلم الذي انحنيا عليه.

وضع هولمز يده عليه، ثم قبضها ورفعها عنه مرة أخرى، مع شعور بالعجب والرهبة! على ضياء عود الثقاب الذي أشعله هولمز رأينا أصابعه المتشنجة، وبركةً مروعة من الدم، تستمر في الانتشار في بطء من جمجمة الضحية المهشمة. وأظهرت أيضًا أمرًا آخر، ذلك الذي جعل قلوبنا مريضة ومنكسرة في داخلنا... جسد السير هنري باسكرفيل!! لا يمكن لأحد منا أن ينسى تلك البدلة التويت الحمراء الداكنة المميزة، وهي التي كان يرتديها خاصة، في ذلك الصباح الأول الذي رأيناه فيه في شارع بيكر. حظينا بنظرة واضحة إلى الجثة، ثم اضطرب عود الثقاب وانطفأ، وعندها تلاشى الأمل من أرواحنا. تأوّه هولمز، وبرق وجهه في الظلام، صحت ويداي مقبوضتان:

ـ يا للبشاعة، يا للتوحش! أوه يا هولمز... لن أسامح نفسي على تركي إياه ليواجه مصيره هكذا!

ـ أنا الذي يجب أن أتحمل اللومَ أكثر منك، يا واتسن، إنني لكي أجعل قضيتي سوية ومتكاملة أهملت حياة عميلي! إنها الضربة الأعظم التي أصابتني في مسيرتي المهنية. ولكن كيف لي أن أعرف؟ كيف لي أن أعرف، أنه كان سيخاطر بحياته وحيدًا على المستنقع متحديًا كل تحذيراتي!؟

ـ لذلك كان علينا أن نسمع صرخاته... يا إلهي، تلك الصرخات! ومع ذلك كنا عاجزين عن إنقاذه. أين ذلك الكلب المتوحش الذي دفعه نحو حتفه؟ ربما يكمن الآن بين هذه الصخور. وأما ستابلتون، فأين هو؟ يجب أن يدفع ثمنَ هذا العمل.

ـ نعم، يجب، وسأعمل على ذلك. عمٌ وابن أخيه قد قُتلا... أحدهما تم إفزاعه وإخافته حتى الموت بمنظر مباشر للحيوان، الذي كان يظن أنه مخلوق خارق! والآخر استُدرج إلى حتفه في هذه البرية بفراره المضطرب للنجاة منه. لكن يجب علينا الآن أن نثبت الصلة بين الرجل والحيوان. باستثناء ما سمعناه، لا يمكننا حتى أن نقسم على وجود الحيوان فعليًا، لما اتضح من أن موت السير هنري كان بسبب السقوط. بحق السماء، سنكون ماكرين مثله! ويجب أن يكون صاحبنا في قبضتي قبل أن يمر يوم آخر.

وقفنا على جانبي الجثة المشوهة وقلوبنا مشبعةٌ بالأسى والمرارة، ومغلوبة على أمرها بهذه الكارثة المفاجئة المحزنة، التي جعلت كل جهودنا الطويلة والدقيقة، تنتهي إلى هذه النهاية المثيرة للشفقة جدًا! بعد ذلك، وعندما ارتفع القمر تسلقنا نحو القمة الصخرية، حيث سقط منها صديقنا المسكين. ومن على تلك القمة بدأنا بالاطلاع على المستنقع المظلم، نصفه فضي ونصفه الآخر مظلم. بعيدًا جدًا، على مسافة أميال، باتجاه غرمبين، كان هنالك ضوء أصفر ثابت مفرد يلتمع، إنه يأتي فقط من مسكن ستابلتون المنعزل. بلعنة مريرة! كنت أنظر وأهز قبضتي:

ـ لماذا لا نقوم باعتقاله حالًا؟

ـ قضيتنا ليست متكاملة، فصاحبنا دقيق وماكر إلى أقصى درجة. الأمر ليس ما نعرف عنه، ولكن ما يمكن إثباته. إذا قمنا بحركة واحدة خاطئة، فإن الوغد قد يفر منا بسببها.

ـ ماذا يمكننا أن نفعل؟

ـ سيكون لدينا كثير لنفعله يوم غد، أما في هذه الليلة، فيمكننا فقط أن نؤدي آخر الطقوس لصديقنا المسكين.

معًا اتخذنا طريقنا للنزول على المنحدر الوعر واقتربنا من الجثة، سوداء واضحة بين الأحجار الفضية. أصابني مشهد عذاب الأطراف الملتوية بتشنج عصبي مؤلم، وجعل على عيني غشاوةً من الدموع:

- يا هولمز، علينا أن نطلب المساعدة، إذ لا يمكننا أن نحمله طول الطريق إلى الفيلا. يا للسموات العظيمة! هل جننتَ؟

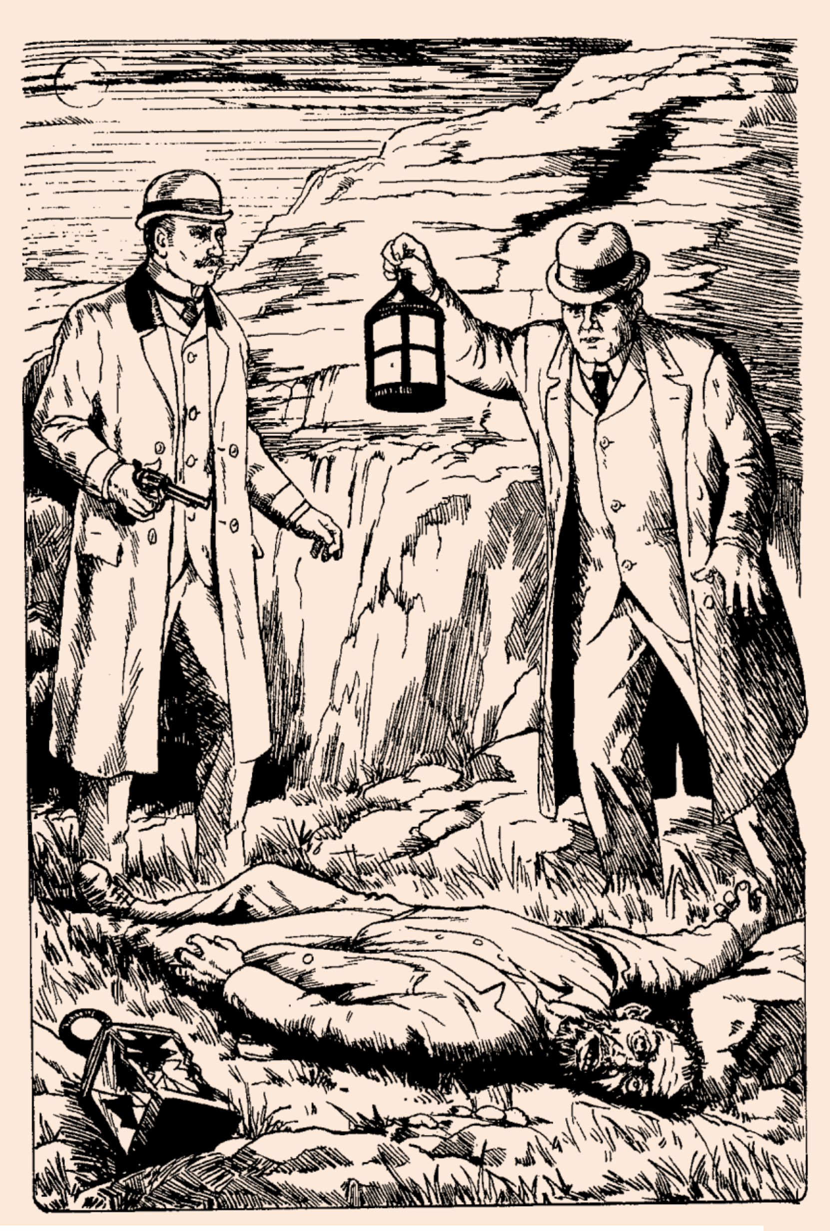
أطلق هولمز صيحةً! وانحنى على الجثة، والآن ها هو يرقص ويضحك، ويهزّ يدي جذلًا! أيمكن أن يكون هذا صديقي المتجهم منضبط النفس؟ حقًا لقد كانت هذه نيران مخبأة!!

- لحية! إنها لحية! الرجل لديه لحية!

- لحية!؟

- إنه ليس البارون... إنه... لماذا؟ إنه جيراني: المجرم!

قلبنا الجثة! كانت اللحية التي تقطر دمًا تشير نحو القمر البارد الساطع، لم يكن هنالك شك في الجبين البارز، والعيون الحيوانية الغائرة. لقد كان حقًا الوجه نفسه، الذي التمع في ضوء الشمعة من على الصخرة... وجه سيلدن المجرم!! ثم في لحظة واحدة، كان كل شيء



اقتربنا من الجثة، سوداء واضحة بين الأحجار الفضية

قد اتضح أمامي: تذكرتُ كيف أن البارون قد أخبرني، بأنه منح ملابسه القديمة إلى باريمور، فقام بايمور بإعطائها إلى سيلدن من أجل مساعدته على الفرار: أحذية، وقمصان، وقبعة... كانت كلها تعود للسير هنري. كانت المأساة ما تزال قاتمة بما يكفي، ولكن في الأقل، استحق هذا الرجلُ الموت بمقتضى قوانين بلده. أخبرت هولمز كيف حدث الأمر، وقد ابتهج قلبي بالشكر والفرح! قال هولمز:

ـ ثم كانت الملابس هي سبب موت الشيطان التعيس! إنه واضح بما فيه الكفاية، أن الكلب قد وُضعت له بعض الأشياء الخاصة بالسير هنري... الحذاء الذي سُرق في الفندق، في كل الاحتمالية... وهكذا طارد هذا الرجل. هنالك شيء واحد مميز جدًا، في أي حال، كيف استطاع سيلدن في الظلام أن يعرف أن الكلب كان على أثره؟

ـ لقد سمعه.

ـ ما كان سماع كلب على المستنقع، ليدفع رجلًا شديدًا مثل هذا المجرم نحو هذه النوبة المفاجئة من ذروة الرعب، فيخاطر بأن يُقبض بسبب صياحه بصورة وحشية من أجل المساعدة! وبهذه الصرخات يجب أن يكون قد ركض مسافة طويلة، بعد أن عرف أن الحيوان كان على أثره... فكيف عرف ذلك؟

ـ أعظم لغز بالنسبة لي هو: لماذا هذا الكلب، بافتراض أن كل تخميناتنا صحيحة...

ـ لا أفترض شيئًا...

ـ حسنٌ، إذن، لماذا وجب أن يكون هذا الكلب مطلقًا في هذه الليلة؟ أنا أفترض أنه ليس مطلقًا ليعدو دائمًا على أرض المستنقع، فما كان ستابلتون ليدعه يجري، ما لم يكن لديه سبب يجعله يعتقد أن السير هنري سيكون هناك.

ـ الصعوبة التي أواجهها هي أكبر من هذين، لأنني أعتقد أننا سنحصل ـ في وقت قصير جدًا ـ على تفسير لتساؤلاتك، في حين أن تساؤلاتي ربما تبقى لغزًا إلى الأبد. والسؤال الآن: ماذا سنفعل بجثة هذا الصعلوك المسكين؟ إذ لا يمكن أن نتركه هنا للثعالب والغربان.

ـ أقترحُ أن نضع الجثة في واحد من الأكواخ الحجرية، كي نتمكن من الاتصال بالشرطة.

ـ بالضبط، من المؤكد أننا معًا لن نقدر على حمل الجثة إلى مكان بعيد. مرحى! يا واتسن، ما هذا؟ إنه الرجل نفسه، بكل ما هو رائع وجريء! لا تنطق بكلمة تظهرُ شكوكك... لا كلمةَ البتة، وإلا فإن خططي ستنهار كليًا.

كان هنالك شكلٌ يقترب منا على المستنقع، ورأيت الوميض الأحمر الغامق من سيجاره. سقط نورُ القمر عليه، فاستطعت أن أميز ذلك شكل عالم الطبيعة ستابلتون الرشيق ومشيته النشيطة المألوفة. توقف لما رآنا! ثم عاد ليواصل اقترابه مرة أخرى!

ـ لماذا؟ دكتور واتسن، هذا لست أنت، أليس كذلك؟ أنت آخر رجل يجب أن أتوقع رؤيته خارجًا على المستنقع في مثل هذا الوقت من الليل، ولكن! يا إلهي، ما هذا؟ أحدهم أصيب بأذى؟ لا! لا تقل لي إنه صديقنا السير هنري!

أسرع باجتيازي وانحنى فوق الرجل الميت، سمعت شهقةً حادة من تنفسه، وقد سقط السيجار من بين أصابعه! تلعثم قائلًا:

ـ من؟ من هذا؟

ـ إنه سيلدن، الرجل الذي هرب من برنستاون.

استدار ستابلتون نحونا بوجه شنيع!! لكنه بجهد فائق تغلب على دهشته وخيبة أمله! وأخذ ينقل أنظاره بيني وبين هولمز!

ـ يا للرب! يا له من أمر صادم! كيف مات؟

ـ يظهر على جثته أنه قد كُسر عنقه بالسقوط فوق تلك الصخور. كنا أنا وصديقي نتسكع على المستنقع عندما سمعنا صرخة.

ـ وأنا أيضًا قد سمعتُ صرخة، ذلك ما دفعني للخروج. كنت قلقًا على السير هنري.

لم أستطع تجنب هذا السؤال:

ـ لماذا القلق على السير هنري تحديدًا؟

ـ لأنني وجهتُ له دعوة كي يزورنا، وعندما لم يأتِ استغربتُ، وبصورة طبيعية أمسيت قلقًا على سلامته، حين سمعت صرخاتٍ على المستنقع. وللمناسبة...

رشقنا بنظرات من عينيه مرة أخرى، وهو يحدق بين وجهي ووجه هولمز:

ـ هل سمعتم أي شيء آخر غير الصرخة؟

فقال هولمز:

ـ لا... هل سمعتَ أنت؟

ـ لا.

ـ إذن، ماذا تعني؟

ـ أوه... أنت تعرف القصص، وأن الفلاحين يتكلمون حول الكلب الشبح... وغيرها. يقال إنه يُسمع صوت في الليل على المستنقع، كنت أتساءل إذا كان هنالك أي دليل على مثل هذا الصوت في هذه الليلة.

فقلت:

ـ لم نسمع شيئًا من هذا النوع.

ـ وما نظريتك أنت في شأن موت هذا الرفيق المسكين؟

ـ لا شك لدي في أن الخوف الشديد والرؤية قد دفعاه وتحكما به، لقد اندفع على أرض المستنقع في حالة جنونية، وأخيرًا سقط من فوق ذلك المكان وكسر عنقه.

قال ستابلتون:

ـ يبدو لي أن هذه النظرية هي الأكثر مقبولية.

ثم تنهد، وأدركت بذلك ارتياحه.

ـ وماذا تعتقد أنت، يا سيد شارلوك هولمز؟

فانحنى صديقي ليقدم تحياته:

ـ أنت سريع في التعرف إلى الهويات.

ـ كنا نتوقع حضورك في هذه التفاصيل، منذ أن حل بيننا دكتور واتسن. أنت في الوقت المناسب كي تشهد المأساة.

ـ نعم بالفعل، لا شك لدي في أن تفسير صديقي سيستوفي كل الوقائع، سوف آخذ معي ذكرى غير لطيفة في عودتي إلى لندن يوم غد.

ـ عجبًا! ستعود يومَ غد؟

ـ هذه نيتي.

ـ حقًا آنني آمل أن زيارتك قد ألقت بعضَ الضوء على تلك الحوادث التي حيّرتنا، صحيح؟

هز هولمز كتفيه:

ـ لا يستطيع المرء دائمًا أن يحرز النجاح بحسب ما يأمله أحد، يحتاج المحقق إلى وقائع لا أساطير أو إشاعات، وعلى هذا، فإنها لم تكن قضية مُرضية.

تكلم صديقي هولمز بطريقته الأكثر صراحة واطمئنانًا، وبقي ستابلتون يحدق في قسوة فيه، ثم استدار نحوي:

ـ كنت لأقترح حمل جثة هذا المسكين إلى منزلي، لكن ذلك من شأنه أن يرعب أختي كثيرًا، لذلك لا أشعر بأن عملي سيكون مسوغًا. أظن أننا إذا وضعنا شيئًا على وجهه فسيكون في أمان حتى الصباح.

وهكذا كان التصرف. بعد أن رفضنا عرضَ ستابلتون في الذهاب إلى منزله، انطلقنا أنا وهولمز نحو فيلا باسكرفيل، تاركين العالم الطبيعي يعود وحيدًا. وعندما نظرنا وراءنا رأينا شكله يتحرك في بطء بعيدًا على المستنقع الواسع، وخلفه تلك اللطخة السوداء على المنحدر الفضي، التي تُظهر مكان اضطجاع الرجل حيث جاء في فزع شديد نحو حتفه.

١٣ - إعداد الشبكات

قال هولمز عندما مشينا عائدين معًا عبر المستنقع:

ـ وأخيرًا أوشك الأمر أن يكون في قبضتنا. ولكن ما أقوى أعصابَ صاحبنا! أرأيتَ كيف تمالك نفسه، في مواجهة ما يجب أن يكون صدمةً تصيبه بالشلل، عندما وجد أن الرجل الخطأ قد سقط ضحيةً لمؤامرته؟ أخبرتك في لندن، يا واتسن، وأنا أخبرك الآن مرة أخرى: إننا لم نحظَ بعدوٍ ذي إمكانيات عاليةٍ جدًا أكثر من صاحبنا هذا.

ـ أنا آسف لأنه رآك.

ـ وكذلك أنا في البدء، ولكن لم يكن مناص من ذلك.

ـ بعد أن عرف بوجودك هنا، فما تأثير ذلك في خططه؟

ـ ربما سيكون أكثر حذرًا، أو يدفعه هذا لأعمال يائسة من فوره. ومثل أكثر المجرمين الأذكياء، قد يكون واثقًا جدًا بألمعيته الشخصية، ويتخيل أنه قد خدعنا بصورة كاملة!

ـ لماذا لا يجب علينا أن نعتقله الآن؟

ـ عزيزي واتسن، لقد وُلدتَ لتكون رجلَ الحركة والأفعال! غريزتك متعلقة دائمًا بفعل شيء حيويٍ ممتلئ بالطاقة! ولكن افترضْ جدلًا أننا قبضنا عليه الليلةَ، فما الذي بحق

السماء سيجعلنا أفضل حالًا؟ إننا لا نستطيع إدانته بأي شيء، هنالك المكر الشيطاني في الأمر! إذا كان يتصرف من خلال القوة البشرية، فيمكننا الظفر ببعض الأدلة، ولكن إذا أردنا استدراج هذا الكلب الهائل إلى نور النهار، فلن يساعدنا الاعتقال على وضع حبل المشنقة حول رقبة سيده.

ـ بالتأكيد لدينا قضية.

ـ ولا حتى ظل قضية! كل ما لدينا هو تخمينات ورجم بالغيب، وسنضحك من أنفسنا إذا جئنا للمحكمة بمثل هذه القصة وهذا الدليل!

ـ هنالك موت السير تشارلز.

ـ وُجد ميتًا ولكن بلا علامات عليه. ندري كلانا أنه مات بسبب رعبٍ شديد، ونحن ندري أيضًا ما الذي أفزعه، ولكن من أين لنا باثني عشر محلفًا هادئًا وشديد الصبر ليدركوا ذلك؟ هل هنالك أي علامات تدل على الكلب؟ أين آثار أنيابه؟ بالطبع نحن نعرف أن الكلب لا يعض جسد ميتٍ، والحال أن السير تشارلز توفي حتى قبل أن يُهاجم بوحشية، وعلينا أن نثبت كل ذلك، لكننا لسنا في وضع يؤهلنا لفعل ذلك.

ـ حسن إذن... الليلة؟

ـ لسنا أفضل حالًا الليلة. مرة أخرى، لم تكن هنالك صلة مباشرة بين الكلب وموت الرجل. نحن لم نر الكلب قط، سمعنا صوته ولكن لم يمكننا إثبات أنه كان يجري على أثر هذا الرجل. إنه غياب كامل للدافع. لا، يا رفيقي العزيز، يجب علينا أن نوطن أنفسنا على حقيقة عدم امتلاكنا قضية في الوقت الحالي، ولكنها تستحق منا الآن أن نخاطر من أجل تأسيس واحدة.

ـ وكيف تقترح فعل ذلك؟

ـ لدي آمال عظيمة في ما قد يمكن أن تفعله السيدة لورا لايونز من أجلنا، عند إيضاح الوضع أمامها بالتفصيل. ولدي خطتي الخاصة أيضًا، إنها كافية من أجل الغد وللشرير فيها نصيب، أنا آمل قبل أن ينتهي اليوم، أن تكون لدي اليد العليا في النهاية.

لم أتمكن من الحصول على المزيد من المعطيات منه، واستكمل سيره بعيدًا في التفكير كبعد مسافة بوابات فيلا باسكرفيل.

ـ هل ستدخل؟

ـ نعم، لا أرى سببًا يدعوني لأبقى متخفيًا أكثر من هذا. ولكن كلمة تحذير أخيرة، يا واتسن: لا تذكر أي شيء حول الكلب للسير هنري، دعه يعتقد أن موت سيلدن كان مثلما

أراد لنا ستابلتون أن نعتقد، بهذا سيكون مسترخي الأعصاب عند المحنة التي سيخوض فيها غدًا! ذلك عندما ـ كما أتذكر تقريرك على نحو قويم ـ ينغمس في العشاء مع أولئك الناس.

ـ وكذلك أنا.

ـ إذن يجب أن تعتذر أنت عن الحضور، عليه أن يذهب وحده، ذلك سيكون سهل الترتيب. والآن، إذا كنا متأخرين عن العشاء، فأظن أننا مستعدون لوجبة مسائية خفيفة.

كان سرور السير هنري لرؤية شارلوك هولمز أكثر من دهشته! لأنه كان يتوقع لعدة أيام أن الأحداث الأخيرة سوف تجبره على المجيء من لندن. وفي أي حال، رفع حاجبيه عندما رأى صديقي بلا أمتعة ولا توضيح يفسر عدم وجودها!! وتلافينا فورًا تجهيزه بما يحتاج، ثم بعد تناول وجبة متأخرة، وضحنا للبارون ما لدينا من معطيات بمقدار ما بدا ملائمًا ويجب أن يعرفه.

قبل كل شيء وجب عليّ أن أنجز مهمتي غير السارة، بإبلاغ باريمور وزوجته بالنبأ! أما باريمور، فربما حصل عنده ارتياح كامل، لكن زوجته نحبت في مرارة وهي ترتدي مئزر المطبخ. بالنسبة لكل العالم كان سيلدن رجل العنف، نصف حيوان ونصف شيطان، لكن في قلبها يبقى دائمًا الصبيّ الصغير العنيد المشاغب من أيام طفولتها معه، الطفل الذي كان يتشبث بيدها، إن الشرير الفعلي هو الرجل الذي ليس لديه امرأة ترثيه.

قال البارون:

ـ منذ أن غادر واتسن عند الصبح وأنا في البيت مكتئب كل النهار، أظن أنني يجب أن أحصل على بعض الثقة، لأنني التزمت بوعدي. لولا قسمي على أن لا أخرج وحيدًا لحظيت بأمسية منعشة! إنني تلقيت رسالةً من ستابلتون يدعوني لزيارتهم.

فقال هولمز في اقتضاب وتهكم:

ـ لا شك عندي في أنك كنتَ ستحظى بأمسية أكثر سعادة!!! وللمناسبة، أنا لا أفترض أنك تقدّر أننا كنا ننحب عليك ونرثيك عندما كُسرت عنقك، ها؟

ففتح السير هنري عينيه:

ـ كيف كان ذلك!؟

ـ هذا الصعلوك المسكين كان يرتدي ملابسك، وأظن أن خادمك الذي إعطاها له سيتورط بمشاكل مع الشرطة.

ـ ذلك غير محتمل. بحسب ما أعرف، لم تكن هنالك علامة على أي منها.

ـ ذلك حظ سعيد له... في الحقيقة إنه حظ لكم كلكم! إنكم على الجانب الخطأ تجاه القانون في هذه القضية. لست متأكدًا بوصفي محققًا يعمل وفاقًا لضميره، أن واجبي الأول عدم القبض على كل ساكني البيت! إن تقارير واتسن هي الأكثر إدانة لكم.

سأل البارون:

ـ ولكن ماذا عن قضيتنا؟ هل تمكنتَ من استخراج أي شيء من هذا التشابك والعقد؟ لسنا أنا وواتسن الأكثر حكمة منذ وصولنا إلى هنا.

ـ أعتقد أنني سوف أكون في موقع، يجعل الموقف أمامك أكثر وضوحًا نوعًا ما قبل مرور وقت طويل. ما زالت القضية صعبة للغاية ومعقدة، وهنالك بضع نقاط فيها ما نزال نريد أن نضيء تفاصيلها، ولكنها كلها تأتي متشابهة!

ـ مررنا بتجربة واحدة، إذ لا شك في أن واتسن قد أخبرك، لقد سمعنا صوت الكلب على المستنقع، وأنا أستطيع أن أقسم أن الأمر ليس كله خرافات خاوية! كان لدي ما أفعله للكلاب عندما كنتُ في الغرب، وأنا أعرف صوت الكلب عندما أسمعه، إذا استطعتَ وضع الكمامة على فم هذا الكلب، وأن تربطه بسلسلة، سأكون مستعدًا للقسم على أنك المحقق الأعظم أبدًا!

ـ أعتقد أنني سوف أكممه وأربطه بالسلسلة، حسنٌ... إذا قدمتَ لي المساعدة.

ـ سأفعل كل ما تأمرني به.

ـ جيدا جدًا، أطعني طاعةً عمياء في كل ما أطلبه منك، بلا سؤال دائمًا عن السبب.

ـ كما ترغب.

ـ إذا فعلتَ هذا، فإنني أعتقد أن الفرص ستجعل مشكلتنا الصغيرةَ تتجه نحو الحل قريبًا. لا شك لدي...

توقف هولمز فجأة، وحدق ثابتًا في الهواء فوق رأسي! كان ضوء المصباح يسطع على وجهه، وكان ذلك مقصودًا وساكنًا جدًا، يشير شكله إلى وضع تمثال كلاسيكي بنحت واضح، يجسّم اليقظة والحذر والتوقع! فصحنا كلانا:

ـ ماذا هنالك؟

استطعتُ أن أرى عندما خفض بصره، أنه كان يكبت بعض المشاعر الداخلية! كانت ملامحه ما تزال متشكلة، لكن عينيه أضاءتا بابتهاج ممتع، قال عندما لوّح بيده نحو صف اللوحات التي تغطي الجدار المقابل:

ـ اعذروا إعجاب الذوّاق الخبير! لن يعترف واتسن بأني أعرف أي شيء عن الفن، ولكن تلك غيرة محضة! لأن آراءنا في هذا المجال مختلفة. الآن، حقًا هذه سلسلة جيدة جدًا من الرسوم.

قال السير هنري، وهو ينظر متفاجئًا إلى صديقي:

ـ حسنٌ، أنا مسرور لسماع ذلك منك. لا أتظاهر بأنني أعرف كثيرًا حول هذه الأشياء، أنا لدي خبرة وتقويم أفضل في مجال الخيول والثيران أكثر من الصور. لم أعرف أنك وجدتَ الوقت لمثل هذه الأمور.

ـ أعرفُ الجيدَ عند رؤيته، وأنا أراه الآن. ذلك عمل الفنان نيلر[٣٦]، أقسمُ أن تلك السيدة البعيدة في الحرير الأزرق، والجنتلمان الحازم مع الباروكة يجب أن يكون رينولدز. أفترضُ أنها كلها بورتريهات العائلة، صحيح؟

ـ نعم، كلها.

ـ هل تعرف أسماءهم؟

---

[٣٦] (Sir Godfrey Kneller) أفضل رسامي البورتريهات في إنكلترا بين القرنين السابع عشر والثامن عشر، توفي سنة ١٧٢٣م.

ـ لقد عرّفهم لي باريمور، وأنا أعتقد أنني يمكن أن أخبركم بما درستُ واكتسبت بصورة حسنة.

ـ مَن ذلك الجنتلمان ذو التلسكوب؟

ـ ذلك الأدميرال باسكرفيل، الذي خدم تحت قيادة رودني في جزر الهند الغربية. أما الرجل ذو المعطف الأزرق ولفافة الورق فهو السير ويليام باسكرفيل، الذي كان رئيس لجان مجلس العموم تحت حكم بت.

ـ ومن هذا الفارس الذي تواجهني صورته... هذا الذي في المخمل الأسود والدانتيل؟

ـ آه، لديك الحق لتعرف من هو! ذلك هو رأس البلاء، هوغو الشرير، الذي بدأت منه أسطورة كلب عائلة باسكرفيل، لا أظن أننا سننساه!



لا شك في مصداقية اللوحة، لأن الاسم والتاريخ مكتوبان على ظهرها.

حدقت في اهتمام ودهشة في اللوحة.

قال هولمز:

ـ يا إلهي! يبدو هادئًا، ووديعَ الطبع بما فيه الكفاية، لكنني أجرؤ على القول إن هنالك شيطانًا هائمًا في عينيه! كنت أتصور أنه شخص أكثر غلظة وهمجية!

ـ لا شك في مصداقية اللوحة، لأن الاسم والتاريخ: ١٦٤٧، مكتوبان على ظهرها.

تكلم هولمز بعد ذلك قليلًا... لكن صورة عاشق الحفلات والصخب القديم بدت ذات فتنة له، واستمرت عيناه مثبتتين عليه خلال تناول الطعام. لم يكن الوقت متأخرًا بعد، عندما انصرف السير هنري إلى غرفته، ولذلك كنتُ قادرًا على متابعة اتجاه أفكار هولمز. قادني لنعود إلى قاعة المآدب، وفي يده شمعة سريره، ثم رفعها أعلى الجدار، أمام البورتريه المصاب بالبقع بسبب مرور الزمن، وسألني:

ـ هل ترى أي شيء هنالك؟

نظرت إلى القبعة الواسعة المزينة بالريش، وقلوب الحب المجعدة[٣٧]، وياقة الدانتيل الأبيض، والوجه الطولي الشديد المحاط بهن. لم يكن محياه وحشيًا، بل متزمتًا، وشديدًا، وصارمًا، مع فم قوي الفكين ورفيع الشفتين، وعيون باردة غير متسامحة.

---

[٣٧] (love lock) أسلوب قديم من التجميل الخاص بالشعر، يكون بإضافة امتداد لجهة الشعر اليسرى فقط وجعلها أطول. وتمكن رؤيته في بعض البورتريهات القديمة.

ـ أيشبه أي أحدٍ تعرفه؟

ـ هنالك ما يشبه فك السير هنري...

ـ إيحاء فقط، ربما، ولكن انتظر لحظة!

وقف على كرسي ممسكًا بالشمعة بيده اليسرى، وقوّس ذراعه اليمنى فوق القبعة الواسعة، وحول عقصات الشعر الطويلة، فصحت في دهشة:

ـ يا للسماوات!!

بزغ وجه ستابلتون خارجًا من اللوحة!

ـ ها! أنت تميزه الآن. عيوني مدربة على تفحص الوجوه وليس زركشاتها، إنها أول مزايا محقق الجرائم، إذ عليه أن يرى ما وراء التمويه والتنكر!

ـ ولكن هذا مذهل! ربما تكون صورته!

ـ نعم، إنه مثال مثير للاهتمام في مجال البحث التاريخي، الذي يظهر في أن يكون ماديًا وروحيًا. تكفي دراسة بورتريهات العائلة لتحويل رجل إلى الإيمان بعقيدة التناسخ والتقمص. صاحبنا من عائلة باكسرفيل... وهذا واضح.

ـ مع مقاصد الاستمرار في الخلافة والتتابع.

ـ بالضبط. إن فرصة رؤيتنا هذه الصورة، وفرت لنا واحدةً من أكثر الحلقات المفقودة توضيحًا. لقد نلنا منه، يا واتسن، نلنا منه! وأجرؤ بالقسم على أنه قبل ليلة الغد، سيتخبط ويرتعد في شبكتنا عاجزًا ويائسًا مثل أي واحدة من فراشاته! دبوس، وفلينة، وبطاقة، هذا ما نحتاج إليه لإضافته إلى مجموعة شارع بيكر!

انفجر في واحدة من نوبات الضحك النادرة، عندما استدار مبتعدًا عن البورتريه. لم أعتد أن أسمعه يضحك كثيرًا، ودائمًا في مثل تلك الحالات، كانت ضحكته تنذر بالسوء والبلاء على أحدهم!

عند الصباح استيقظتُ مبكرًا، لكن هولمز مع ذلك سبقني بالإعداد والتهيئة، لأنني عندما ارتديت ملابسي رأيته يصعد إلى العربة. قال ملاحظًا وفاركًا يديه مع بهجة الحركة:

ـ نعم، يجب علينا أن نحظى بيوم ممتلئ بالحركة والأحداث! كل الشبكات معدّة في أماكنها الخاصة، وسيبدأ سحبها قريبًا. سنعرف قبل انقضاء يومنا هذا: إما أن نمسك سمكة الكراكي الكبيرة ذات الفك الأعجف(٣٨)، أو تنفذ هاربةً من خيوطها.

---

٣٨ (Pike) سمكة طويلة مفترسة تعيش في المياه العذبة، ذات خطم مدبب وأسنان كبيرة.

ـ هل كنت على أرض المستنقع اليوم؟

ـ لقد أرسلتُ تقريرًا من غرمبين إلى برنستاون عن وفاة سيلدن، وأعتقد أنني أستطيع الوعد بأن لا أحد منكم سيتورط في الأمر. وكذلك تواصلت مع الصبي المخلص، لأنني إن لم أطمئنه حول سلامتي، فمن المؤكد أنه قد يمر بحالة جزع ومعاناة، متلهفًا عند باب كوخي الحجري، مثلما يفعل كلب عند قبر سيده.

ـ ما الخطوة القادمة؟

ـ رؤية السير هنري. آه! ها هو!

قال البارون:

ـ صباح الخير، يا هولمز. تبدو مثل جنرال يخطط لمعركة مع رئيس أركانه!

وهذا هو الموقف بالضبط، كان واتسن يسأل عن الأوامر.

ـ وأنا أيضًا.

ـ جيد جدًا، أنت مشترك في الأمر ـ على نحو ما أفهم ـ من خلال تناول العشاء مع أصدقائنا آل ستابلتون هذه الليلة.

ـ آمل أنك سوف تأتي أيضًا، إنهم أناس كرماء ويحبون الضيوف، وأنا متأكد أنهم سيكونون في سرور كبير لرؤيتك!

ـ أنا وواتسن يجب أن نذهب إلى لندن.

ـ إلى لندن!؟

ـ نعم، أعتقد أننا سنكون أكثر نفعًا هنالك في المرحلة الحالية.

خيّم الحزن على البارون في صورة واضحة... وقال:

ـ أملت أنك ستأتي لتراني في خضم هذه القضية، الفيلا والمستنقع ليسا مكانًا سارًا عندما يكون المرء وحده.

ـ يا رفيقي العزيز، يجب عليك أن تثق بي ثقةً كاملة، وأن تفعل بالضبط ما أقوله لك. يمكنك أن تخبر أصدقاءك أننا كنا سنسعد للمجيء معك، ولكن ذلك الشأن الاضطراري يتطلب منا أن نكون في لندن. نحن نأمل أن نعود من قريب إلى ديفونشاير، فهل ستتذكر إخبارهم بهذه الرسالة؟

ـ إذا كنتَ تصرّ على ذلك!

ـ لا بديل عن ذلك، أؤكد لك.

رأيتُ في تقطيبة البارون أنه كان متألمًا في أعماقه، بما كان يعدّه هجرًا منا نحوه. سألنا في برود:

ـ ومتى ترغبان في الانطلاق؟

ـ بعد الفطور مباشرة، سنذهب إلى كومب تريسي، لكن واتسن سيترك أشياءه تعهدًا بضمان عودته إليك. يا واتسن، هلّا ترسل رسالة إلى ستابلتون، لإخباره بأنك تأسف على عدم استطاعتك المجيء.

قال البارون:

ـ أرى أن أذهب إلى لندن معك، لماذا يجب عليّ أن أبقى وحيدًا هنا؟

ـ لأن هذا موقع مسؤوليتك، ولأنك وعدتني بأنك ستفعل ما تؤمر به، وأنا آمرك الآن بأن تبقى.

ـ حسنٌ، إذن سأبقى!

ـ توجيه آخر فقط: أرجو منك أن تذهب بالعربة إلى فيلا ميريبيت لتلبية الدعوة. وفي أي حال، عندما تصل أرسل السائق ليعود بالعربة، واجعل آل ستابلتون يعرفون أنك سوف تعود إلى البيت ماشيًا.

ـ المشي عبر المستنقع؟

ـ نعم.

ـ لكن ذلك الأمر تحديدًا، هو الذي حذرتني من فعله مرارًا وتكرارًا!

ـ هذه المرة تفعلها في أمان. لو لم تكن لدي ثقة بقوة أعصابك وشجاعتك لما اقترحتُ ذلك، لكنه أمر جوهري.

ـ إذن سوف أفعل.

ـ وللحفاظ على حياتك، أنصحكَ أن لا تذهب عبر المستنقع في أي اتجاه، باستثناء سيرك على الطريق المستقيم، الذي يقودك من فيلا ميريبيت إلى طريق غرمبين، وهو طريقك الاعتيادي نحو البيت.

ـ سوف أفعل ما تقول لي بالضبط.

ـ ممتاز. سأكون مسرورًا لذهابي مباشرة بعد الفطور قدر الإمكان، لكي أصلَ إلى لندن بعد الظهر.

كنت مندهشًا كثيرًا بهذه الخطوات العملية، مع أنني تذكرت أن هولمز قد قال لستابلتون في الليلة الماضية أن زيارته ستنتهي اليوم القادم. في أي حال، لم يستوعب عقلي

أنه كان يرغب في ذهابي معه، ولم أستطع فهم كيف نكون غائبينِ معًا في التوقيت نفسه، الذي أعلن أنه حرج ومصيريّ! مع ذلك، لم يكن هنالك شيء إلا الطاعة الكاملة! لذلك قمنا بتوديع صديقنا الحزين. بعد ذلك بساعتين كنا عند محطة كومب تريسي، وقد أرسلنا العربة في طريق العودة، كان هنالك صبي صغير في الانتظار على المنصة، قال:

ـ أتأمرني بشيء يا سيدي؟

ـ يا كارترايت، سوف تركب في هذا القطار إلى لندن، وعند لحظة وصولك سترسل برقيةً باسمي إلى السير هنري باسكرفيل، تسأله فيها إن كان يجد كتابَ ملاحظاتي الذي سقط مني، وتطلب منه إرساله بالبريد المسجل إلى عنوان شارع بيكر.

ـ نعم، سيدي.

ـ واسأل الآن في مكتب المحطة عن أي رسالة لي.

ذهب الصبي ثم عاد ببرقية، سلّمها هولمز لي. وكان محتواها:

«برقية مستلمة: قادم مع مذكرة غير موقعة. وقت الوصول: الخامسة وأربعون دقيقة. لسترد.

ـ إنه جواب عن برقيتي في هذا الصباح. لسترد أفضل المحترفين بحسب اعتقادي، وربما نحتاج إلى مساعدته. الآن يا واتسن، أعتقد أنه لا يمكننا استثمار وقتنا أفضل من لقاء السيدة التي تعرفها: لورا لايونز.

بدأت خطة هولمز تتضح: كان يستعمل البارون لكي يقنع آل ستابلتون بأننا رحلنا فعلًا، بينما هو يعود في اللحظة المناسبة عند الحاجة إلينا. سوف تزيل تلك البرقية من لندن ـ إذا ذكرها السير هنري أمام آل ستابلتون ـ آخر الشكوك من أذهانهم. إنني أرى شبكاتنا تحاصر ذلك النحيف ذي الفك الأعجف أقرب فأقرب...

كانت السيدة لورا لايونز في مكتبها، افتتح هولمز الحوار معها بالصراحة والمباشرة التي أدهشتها كثيرًا!

ـ أنا أحققُ في الظروف المحيطة بموت المرحوم السير تشارلز باسكرفيل. صديقي هنا دكتور واتسن، أعلَمني بما قلتِه، وأيضًا بما أخفيتِه من صلتكِ بهذا الأمر.

فسألتْ بصورة دفاعية:

ـ ما الذي كتمتُه؟

ـ لقد اعترفتِ أنك، طلبتِ من السير تشارلز أن ينتظركِ عند الباب في الساعة العاشرة. نحن نعرف أن ذلك كان مكان وفاته وزمانها، لقد أخفيتِ الصلة بين هذه الأحداث.

ـ لا صلة بين هذه الأحداث.

ـ في ذلك الحال، لا بد أن تكون المصادفة أمرًا استثنائيًا فوق العادة حقًا! لكن أنا أعتقد أننا سوف ننجح في إيجاد صلة بعد كل هذا. أرغبُ في أن أكون صريحًا تمامًا معكِ يا سيدة لايونز، نحن نعدّ هذه القضيةَ جريمةَ قتل، وقد لا توضح الأدلةُ تورط صديقكِ السيد ستابلتون فقط، بل كذلك زوجته أيضًا.

فقفزت السيدة من كرسيها، وصاحت:

ـ زوجته!

ـ لا تبقى الحقيقة سرًا لمدة طويلة، فأخت الشخص المذكور آنفًا تكون زوجته.

عادت السيدة لايونز لتجلس وكانت يداها تقبضان على ذراعي الكرسي، ورأيتُ أظفارها الورديات ينقلبن بيضًا بالضغط من قبضتها، وكررت:

ـ زوجته! زوجته! إنه رجل أعزب.

فهز هولمز كتفيه استهجانًا!

وقد صرّح وميض الشراسة في عينيها أكثر من أي كلمات!

ـ أثبتْ لي ذلك! أثبتْ لي ذلك! فإن تقدر على فعل ذلك...

فقال هولمز وهو يسحب بعض الأوراق من جيبه:

ـ جئتُ اليوم مستعدًا لفعل ذلك. هذه صورة الزوجين التقطت في يورك قبل أربع سنوات، وعليها كتابة تصادق نسبتها لهم: «السيد والسيد فانديلور»، ومع ذلك فلن تواجهي صعوبةً في التعرف إليه، وإليها أيضًا، إذا كنتِ قد رأيتها من قبل. وهذه ثلاثة أوصاف مكتوبة من شهود ثقات، خاصة بالسيد والسيدة فانديلور، اللذينِ كانا يديران مدرسةَ القديس أوليفر الأهلية في ذلك الوقت. اقرئيها وانظري إذا كان بإمكانكِ أن تشكّي في هوية هؤلاء

الناس.

نظرتْ إليها، ثم رفعت نحونا الوجه الجامد والقاسي لامرأة يائسة:

ـ سيد هولمز، عرض عليّ هذا الرجل الزواجَ، على شرط حصولي على الطلاق من زوجي. لقد كذب عليّ هذا الوغد الحقير بكل طريقة مخادعة، لم يقل لي أي كلمة صادقة قط! ولكن لماذا؟ لماذا؟ كنت أتصوّر أن كل ذلك كان من أجلي! لكنني الآن أرى نفسي أنني كنتُ لا شيء بالنسبة له. لقد كنتُ أداةً في يديه، فلماذا يجب عليّ أن أحافظ على ولائي

له، وهو الذي لم يحفظ لي أي شيء معه قط؟ ولماذا عليّ أن أتستر عليه خشيةَ عواقب أفعاله الشخصية الشريرة؟ اسألني ما بدا لك، ولن أخفي عنك شيئًا. أقسم لك بخصوص شيء واحد: عندما كتبتُ الرسالة لم يخطر في قلبي قط، أن أؤذي ذلك الجنتلمان العجوز، الذي كان صديقي الأكثر كرمًا وعطفًا علي.

ـ أصدقكِ تمامًا يا سيدتي. لا بد أن أثر هذه الأحداث كان مؤلمًا جدًا فيك، وربما إذا أخبرتكِ بمجريات الأحداث فسيكون الأمر سهلًا عليكِ، ويمكنك أن تتفحصي أقوالي إذا اخطأتُ خطأً جوهريًا. إن إرسال تلك الرسالة كان باقتراح من ستابلتون، صحيح؟

ـ بل هو الذي أملاها عليّ!

ـ أفترضُ أن السبب الذي أعطاه لكِ، هو أنك ستحصلين على مساعدة من السير تشارلز، من أجل النفقات القانونية ذات الصلة بطلاقكِ، صحيح؟

ـ بالضبط.

ـ وبعدئذٍ، حين أرسلتِ الرسالة، نصحكِ بالعدول عن الالتزام بالموعد، أليس كذلك؟

ـ أخبرني أن الأمر كان يؤذي شخصيته واحترامه لذاته، لأنه يجب على أي رجل أن يدبّر المال لمثل هذا الهدف، وأنه رغم فقره سيكرّس كل ما عنده لتسهيل الطلاق.

ـ إنه يظهر في مظهر الشخصية المبدئية جدًا. ثم انقطعت الأخبار حتى قرأتِ نبأ وفاة السير تشارلز في الجرائد؟

ـ نعم.

ـ وجعلكِ تقسمين على عدم ذكر أي شيء يتعلق بالموعد؟

ـ لقد فعل. قال لي إن الوفاة كانت حادثةً غامضة جدًا، وأنهم سيشكّون بي إذا أظهرتُ بعض الحقائق، لقد أخافني كي أبقى صامتة!

ـ كذلك تمامًا. ولكن كان لديكِ شكوككِ؟

ترددت ثم نظرت إلى الأسفل:

ـ لقد عرفته. ولكن ما دام محتفظًا بالعهد معي، يجب عليّ دائمًا أن أقابله بالمثل.

ـ في المجمل أظن أنكِ قد حصلتِ على فرصة للنجاة، فأنتِ تملكينه بين يديكِ وهو يعرف ذلك، ولذلك أنتِ حية. لقد كنتِ لبعض الأشهر تسيرين قريبة جدًا من حافة الهاوية! والآن، يجب أن نتمنى لك صباحا طيبًا يا سيدة لايونز، ومن المحتمل أنك سوف تسمعين منا في وقت قصير جدًا مرة أخرى.

عند وقوفنا منتظرين وصول القطار من لندن، قال هولمز:

ـ أصبحت قضيتنا متماسكة، والصعوبات والعقبات تزول أمامنا واحدة تلو الأخرى.

قريبًا سوف أكون في موقعٍ يمكنني به أن أقدم وأنشر ـ في قصةٍ واحدة مترابطة ـ واحدةً من أعظم الجرائم المميزة والمثيرة في العصر الحديث. سوف يتذكر طلابُ علم الجريمة الحوادثَ المماثلة في غودنو في روسيا الصغرى(٣٩)، في العام ٦٦، وطبعًا هنالك جرائم آندرسن في شمال كارولاينا، ولكن هذه القضية تستحوذ على بعض السمات التي تخصها وتميزها بالكامل. وحتى الآن نحن لا نملك حجة واضحة ضد هذا الرجل الماكر! لكنني سأكون مندهشًا جدًا إذا لم تتضح بما فيه الكفاية، قبل أن نخلد إلى النوم هذه الليلة.

وصل قطار لندن مزمجرًا في المحطة، وقفز كلب صغير نحيل لكنه قوي، من نوع بولدوغ من عربة الدرجة الأولى. تصافحنا ثلاثتنا، وفهمت فورًا من طريقة التبجيل التي بها ينظر لسترد نحو رفيقي هولمز، أنه قد تعلم كثيرًا منذ تلك الأيام التي عملا فيها معًا أول مرة. أتذكر جيدًا السخرية التي استعملها في آرائه وأقواله رجلُ الحكمة المفكر لتحفيز الرجل العملي!

سأل لسترد:

---

[٣٩] (Little Russia) محافظة روسية قديمة، أسست منذ ١٧٢٢، وهي الآن أوكرانيا تقريبًا.

ـ هل من تطور جيد؟

فأجاب هولمز:

ـ الشيء الأعظم خلال سنوات. لدينا ساعتان قبل أن نحتاج للتفكير بالبدء، وأظن أننا نستثمرها في وجبة غداء. بعد ذلك، يا لسترد، نُخرج من رئتيك ضباب لندن بإعطائكَ أنفاسًا من هواء الليل النقي في دارتمور. لم تزرها من قبل؟ ها! حسنٌ، لا أفترض أنك سوف تنسى رحلتك الأولى إليها!

١٤ - كلب عائلة باسكرفيل

من عيوب شارلوك هولمز ـ إذا أراد المرءُ بالفعل أن يسميه عيبًا ـ أنه كان يكره كثيرًا أن يتواصل ويكشف خططه لأي شخص آخر، حتى لحظة إنجازها بالكامل. من جهة، كان ذلك بكل تأكيد بسبب طبيعته المستبدة الخاصة، التي تحب السيطرة والهيمنة بمفاجأة مَن حوله. ومن جهة أخرى، بسبب حذره الاحترافي، الذي يلح عليه بأن لا يخاطر أبدًا. في أي حال، إن تبعات ذلك كانت شاقة جدًا على أولئك الذين يعملون وكلاءً ومساعدين له. وكثيرًا ما عانيت من ذلك... لكنها لم تكن أكثر مما جرى خلال القيادة الطويلة في الظلام!

كانت المحنة العظيمة أمامنا، وأخيرا كنا على وشك أن نؤدي إنجازنا النهائي. وبما أن هولمز لم ينطق ببنت شفة، فإنني لم أستطع إلا أن أدور في دائرة التخمين لاستكشاف مسار أفعاله. أخيرًا، أصاب أعصابي الارتجافُ من التوقعات والمخاوف، عندما أحسستُ بالريح الباردة وهي تضرب وجوهنا في الظلام، وعرفت من المساحات الفارغة على جانبي الطريق الضيق، أننا كنا على طريق العودة إلى المستنقع مرةً أخرى. كل وثبة من أقدام الخيول، وكل دوران للعجلات، كان يستمر بأخذنا أقرب فأقرب نحو مغامرتنا الأخطر.

سبّب وجود سائق العربة حاجزًا أمام حوارنا في حرية، لذلك اضطررنا للحديث في أمور اعتيادية وعديمة الأهمية، بينما كانت أعصابنا مشدودة بعواطف مضطربة حول

توقعات ما يحصل. أخيرًا! ـ وقد كان في ذلك راحةٌ لي، بعد الكبت غير الطبيعي ـ اجتزنا مسكن فرانكلاند، وعرفنا أننا كنا نقترب من الفيلا ومشهد الحدث. لم نقد وصولًا نحو الباب، بل نزلنا قرب بوابة الطريق الخارجي. دفعنا أجرة العربة، وأمرنا السائقَ بالعودة إلى كومب تريسي فورًا، وباشرنا المسير نحو مسكن ميريبيت.

ـ هل أنت مسلح يا لسترد؟

فابتسم المحقق الشاب، وقال:

ـ أنا أرتدي بنطلوني ومعنى هذا أن لدي الجيب الخلفي، وما دام الجيب الخلفي موجودًا فلا بد من وجود شيء فيه!

ـ جيد يا صديقي، وأنا أيضًا مستعد للطوارئ.

ـ يا سيد هولمز، أنت الأقرب لمجريات هذا الأمر، فما لعبتنا الآن؟

ـ لعبة الانتظار!

قال المحقق في ارتعاش، وهو ينظر حوله إلى منحدرات التلال الكئيبة، وبحيرة الضباب الهائلة التي تستقر فوق مستنقع غرمبين:

ـ أقول لكم: إنه لا يبدو مكانًا مبهجًا جدًا. أنا أرى أضواء ذلك البيت أمامنا.

ـ هذا هو مسكن ميريبيت، وهنا تنتهي رحلتنا. يجب الآن أن أطلبَ منكم أن تمشوا على أطراف أصابعكم، وأن لا تتكلموا أعلى من الهمس.

تحركنا في حذر على طول المسار، كأننا قاصدون للوصول إلى المنزل، لكن هولمز أوقفنا عند بعد مئتي ياردة عنه، وقال:

ـ هذا سيفي بالغرض. هذه الصخور على اليمين تمنح موضعَ مراقبة رائعة.

ـ سننتظر هنا؟

ـ نعم، سوف نعدّ كميننا الصغيرَ هنا. ادخل في هذا التجويف يا لسترد. أما أنتَ يا واتسن، ألم تزر مسكنهم؟ إذن هل يمكنك أن تخبرني بماهية تلك الغرف؟ ما تلك النوافذ المشبكة المزينة عند هذا الطرف من البيت؟

ـ أظن أنها شبابيك المطبخ.

ـ وماذا عن الأخرى وراءها التي تنير بسطوع قوي.

ـ إنها بالتأكيد غرفة الطعام.

ـ الستائر مفتوحة. أنت تعرف طبيعةَ هذه الأرض بشكل أفضل، توغل إلى الأمام في هدوء وانظر ماذا يفعلون... ولكن بحق السماء! لا تجعلهم يعرفون أنهم تحت المراقبة!

سرت بأطراف أصابعي على الممر، وانحدرت وراء الجدار المنخفض المحيط بالبستان الواطئ، وتوغلت في ظلاله حتى وصلت إلى نقطة، حيث استطعت منها أن أنظر مباشرة خلال النافذة مفتوحة الستائر.

لم يكن في الغرفة إلا رجلان: السير هنري وستابلتون. جلسا وجانبا وجهيهما باتجاهي على طرفي المائدة المستديرة. كانا يدخنان سيجارين، والقهوةُ وكؤوس الشراب أمامهما. كان ستابلتون يتحدث بحيوية ونشاط، ولكن كان مظهر البارون في شحوب وشرود! ربما أن فكرة السير وحيدًا عبر مستنقع الشؤم والمفاجآت السيئة، تلقي على ذهنه ضغطًا كبيرًا!

ثم نهض ستابلتون وغادر الغرفة، وملأ السير هنري كأسه بالشراب مجددًا، واستند إلى الخلف في كرسيه، وهو ينفث دخان سيجاره. سمعتُ صرير باب، وصوت هش من حذاء يسير على الحصا. مرت الخطواتُ على طول الممر من الجانب الآخر للجدار الذي جثمت تحته منحنيًا. تطلعت من فوق، فرأيت العالم الطبيعي يتوقف عند باب منزل خارجي في زاوية البستان. أدار مفتاحًا في قفل، وعندما دخل كانت هنالك صوت جلبةٍ غريبة تنبعث من الداخل، لم تمضِ إلا دقيقة أو ما يقارب ذلك، ثم سمعتُ صوت المفتاح يُدار مرة أخرى، وعاد ستابلتون إلى البيت. رأيته ينضم لضيفه، ثم تسللتُ في هدوء عائدًا إلى رفاقي الذين ينتظرون أن أخبرهم بما رأيت.

سألني هولمز بعد أن أنهيت كلامي:

- تقول يا واتسن، إن السيدة لم تكن هنالك؟

- بلى.

- إذن، أين تكون، لا سيما أن لا ضوء مشتعل في أي غرفة أخرى إلا المطبخ؟

- لا يمكنني أن أخمّن.

الضباب الأبيض الكثيف فوق مستنقع غرمبين الكبير، كان ينجرف بطيئًا نحونا، ويتراكم تجاهنا كالجدار... منخفض ولكنه ثخين وبارز في وضوح وتحديد. سطع القمر عليه، فكان مثل حقل جليدي متلألئ، مع رؤوس التلال البعيدة مثل صخور محمولة على سطحه. استدار هولمز بوجهه نحونا، وتمتم بنفاد صبر عندما رأى الانجراف الواهن!

- إنه يتحرك باتجاهنا، يا واتسن.

- هل ذلك خطر؟

- خطرٌ جدًا! بل هو بالفعل الأمر الوحيد على الأرض الذي يمكنه أن يفسدَ خططي. لا يمكن أن يطول أمره الآن، قد تمت الساعة العاشرة، ونجاحنا وحياته تعتمد على خروجه قبل أن يغطي الضبابُ الطريق.

كان ظلام الليل فوقنا شفافا ولطيفًا، لمعت النجوم بالبرد والتألق، بينما غمر نصفُ قمر المشهدَ كله في نور ناعم وضعيف. وأمامنا استقرت كتلةُ المنزل المظلمة، وببروز سقفه المسنن ومداخنه الشاخصة في خشونة، تحدد شكل البيت في مواجهة السماء الفضية اللامعة. امتدت أعمدة من الضوء الذهبي عبر البستان والمستنقع، وفجأة انطفأ أحدها! غادر الخدمُ المطبخ، لم يبق إلا نور غرفة الطعام حيث يقبع الرجلان: المضيّف القاتل والضيف الغافل! يتحادثان عبر دخان السيجار.

في كل دقيقة تمر، كانت الرقعة الصوفية البيضاء التي غطت نصفًا من المستنقع، تمتد أقرب فأقرب نحو المنزل، بل إن أول حزمة رقيقة ورفيعة منها كانت تتكاثف عبر المربع الذهبي للنافذة المضاءة. لم يكن الجدار البعيد من البستان مرئيًا، وكانت الأشجار تقف خارجة عن عباب دوامة البخار الأبيض. وبينما كنا نراقب ذلك، وصلت ألسنة الضباب زاحفة حول زاويتي المنزل، والتفّت في بطء بكتلة واحدة سميكة، وفوقها الطابق العلوي والسقف، يطفوان مثل سفينة غريبة على بحر من الظلال. ضرب هولمز يده في انفعال على صخرة أمامنا، وحرّك قدميه جزعًا!

- إن لم يخرج في ظرف ربع ساعة، فإن الممر سيُغطى كله، بعد نصف ساعة لن نكون قادرين على رؤية أيادينا أمامنا!

ـ هلّا نتحرك راجعين نحو أرض أعلى.

ـ نعم، وهو كذلك.

وهكذا، عندما تدفقت كتلة الضباب، تراجعنا أمامها حتى صارت المسافة نصف ميل عن المنزل، وما يزال ذلك البحر الأبيض الكثيف ـ مع القمر الذي يكسو حافته العليا بلمعان الفضة ـ يستمر بالزحف البطيء العنيد. قال هولمز:

ـ نحن نبتعد كثيرًا... عندما يُهاجم قبل أن يصل إلينا، لن نكون قادرين على انتهاز الفرصة. مهما كان الثمن، يجب علينا أن نتمسك بمكاننا هنا حيث نقف.

ثم نزل على ركبتيه، وانحنى نحو الأرض لاصقًا أذنه بالأرض، ثم قال:

ـ الحمد لله، أظن أنني أسمعه قادمًا.

كسر صمتَ المستنقع صوت خطوات سريعة، لبثنا بين الصخور نحدق بتركيز في ما أمامنا من الكتلة ذات القمة الفضية. صارت الخطوات أعلى صوتًا، وهنالك بزغ خلال الضباب ـ كأنه خلال الستائر ـ الرجلُ الذي كنا ننتظره. نظر حوله مستغربًا عندما ظهر في الليل الصافي المرصع بالنجوم، ثم جاء في سرعة على طول الطريق، ومرّ قريبًا حيث كنا

رابضين، واستمر إلى أعلى المنحدر الطويل خلفنا. كان ينظر عن يمينه وشماله متلفتًا، مثل رجل قلق لا يهدأ له بال. صاح هولمز وقد سمعتُ صوت حادًا من سحب زناد المسدس:

ـ صهٍ! انظروا جيدًا! إنه قادم.

كان هنالك صوت ضعيف وهش، صوت مستمر يأتي من مكان ما في لب تلك الكتلة الثقيلة، كانت الغيمة ضمن مسافة خمسين ياردة عن مكان اختبائنا، وقد نظرنا كلنا في غضب وحزم نحوها، جاهلين الرعب الذي يوشك أن ينفجر خارجًا من قلبها! كنتُ ملتصقًا بمرفق هولمز، ونظرت للحظة نحو وجهه، كان شاحبًا وجذلًا! عيناه تشرقان بالتماع في ضوء القمر، ولكن فجأة بدأت عيناه تندفعان نحو الأمام بتحديق قوي وثابت، وانفرجت شفتاه في دهشة!! في اللحظة نفسها، أطلق لسترد صيحة فزع، ورمى نفسه ووجهه نحو الأرض!

قفزت على قدميّ، ويدي القابضة على المسدس صارت خاملة! وأصيب عقلي بالشلل!! عندما رأيت الشكلَ المروع الذي انبثق خارجًا أمامنا من ظلامات الضباب! كان كلبَ صيد، كلبًا هائلًا أسود كالفحم، لكنني لم أر قط كلبًا له مثل هذين العينين الوحشيتين! تنفجر النار من فمه الفاغر، وعيناه تتقدان بلهيب حارق، وخطمه وشعر عنقه ولغده... كانت كلها في لهب مشتعل! لم يحدث حلمٌ هذياني في خيال عقلٍ مختل ووحشي وجهنمي،

أكثر من ذلك الشكل المظلم والوجه الهجومي المرعب، الذي قفز أمامنا خارجًا من جدار الضباب!

بوثبات طويلة... كان المخلوق الأسود الضخم يعدو على المسار، متتبعًا في شدة آثار أقدام صديقنا. أصبنا بعجزٍ كامل بسبب هذا الشبح، الذي تركناه يمرّ أمامنا قبل أن نسترد حواسنا ويقظتنا! ثم أطلقنا النار هولمز وأنا معًا، فأصدر المخلوق عواءً شنيعًا، يُظهر أن



رأيت الشكلَ المروع الذي انبثق خارجًا أمامنا من ظلامات الضباب.

واحدًا منا قد أصابه برصاصة. لكنه في أي حال لم يتوقف، واستمر بالعدو نحو الأمام، بعيدًا على الطريق رأينا السير هنري ينظر خلفه، وبدا وجهه أبيض في ضوء القمر، وارتفعت يداه رعبًا، محدقًا بيأس في الشيء المرعب الذي كان يقترب لافتراسه! لكن صرخة الألم من

ذلك الكلب، بددت كل مخاوفنا مع الرياح، إذا لم يكن محصنًا من الألم إذن هو يموت! وإذا تمكنا من جرحه فيمكننا قتله.

لم أر قط رجلًا يركض مثلما ركض هولمز في تلك الليلة. أنا معروف بسرعة الانطلاق، لكن هولمز اجتازني بخطوات سريعة كما اجتزت أنا المحترف الصغير لسترد! أمامنا على الطريق، حيث اندفعنا سمعنا صرخةً تلو الصرخة من السير هنري، وزمجرةَ الكلب العميقة. كنت عند التوقيت الذي رأيتُ فيه الوحش يثب على ضحيته، ويلقيه نحو الأرض في عنف، ويهاجمه على عنقه. لكن في اللحظة التالية، أطلق هولمز خمس رصاصات من مسدسه في خاصرة المخلوق. وبعواءٍ عذاب أخير ونهشةٍ وحشية في الهواء، انقلب على ظهره، أربع أقدام تضرب ببراثنها في شراسة، ثم سقطت أطرافه عرجاء جانبًا. انقضضت عليه لاهثًا منحنيًا، وأطلقت النار من مسدسي على رأسه اللامع المرعب، لكن ذلك كان بلا فائدة، لأنه كان ميتًا.

بقي السير هنري مضطجعًا في إغماء حيث سقط، مزقنا أعلى قميصه، وحمد هولمز الرب امتنانًا عندما لم ير أي علامة على جرح، وبدأنا عملية إنعاشه وإنقاذه فورًا. ارتجف جفنا صديقنا، وبذل جهدًا واهنًا من أجل أن يتحرك، وأقحم لسترد زجاجة البراندي بين

أسنان البارون، فاستيقظ بعينين مرتعبتين تتطلعان إلى الأعلى نحونا، وقال في صوت ضعيف:

- يا إلهي! ماذا كان ذلك؟ بحق السماء ما اسمه؟ ما هو؟

قال هولمز:

- إنه ميت، مهما كان. لقد دفنا شبحَ العائلة مرة واحدة وإلى الأبد!

من حيث الحجم والقوة بصورة مجردة، كان المطروح أمامنا مخلوقًا فظيعًا، لم يكن كلب صيدٍ نقي السلالة، ولم يكن من نوع الدرواس نقي السلالة أيضًا، لكنه يبدو خليطًا من الاثنين: نحيل، ومتوحش، وكبير مثل لبوة صغيرة. حتى الآن - وهو في سكون الموت - يبدو فكه الضخم يقطر بلهب مزرق، وكانت العيون الصغيرة، والعميقة، والقاسية محاطة بالنار. وضعت يدي على الخطم المتوهج، وعندما رفعتها كانت ملوثةً بمادة متفاعلة وتصدر دخانًا ومضيئة في الظلام. قلت:

- فسفور!

قال هولمز، وهم يشم رائحة الحيوان الميت:

ـ تدبير شيطاني ماكر، لا توجد رائحة يمكن لها أن تتداخل مع قوة رائحته. نحن مدينون لك باعتذار يا سير هنري، لأننا جعلنك عرضة لهذا الرعب، كنتَ مستعدًا لكلب، لا لمخلوق مثل هذا! ولم يعطنا الضباب إلا وقتًا قليلًا لتمييزه.

ـ لقد أنقذتَ حياتي.

ـ عبر تعريضها للخطر أولًا. هل أنت قوي بما يكفي للنهوض؟

ـ اعطني رشفةً أخرى من ذلك البراندي، وسوف أكون مستعدًا لأي شيء. إذن، الآن إذا ساعدتني على النهوض. ماذا تقترح أن نفعل؟

ـ أن نتركك هنا. أنت في حال لا يسمح لك بمغامرات أخرى الليلة. إذا قررتَ أن تنتظر، فواحدٌ منا أو رجل آخر سيعود معك إلى الفيلا.

حاول النهوضَ على قدميه المترنحتين، لكنه لم يزل شاحبًا في صورة مروعة، ومرتعشًا بكل أطرافه. ساعدناه كي يستند إلى صخرة، حيث جلس مرتجفًا وهو يغطي وجهه بيديه.

قال هولمز:

ـ يجب أن نتركك الآن. علينا إتمام بقية عملنا، وكل دقيقة تمضي لها كل الأهمية. لدينا قضيتنا، ولا نبغي الآن إلا رجلنا.

وأكمل قوله عندما بدأنا بالعودة على خطواتنا في سرعة على الطريق:

ـ الواحد في الألف هي نسبة احتمال وجوده في البيت. لا بد أن هذه الإطلاقات النارية قد أخبرته بأن اللعبة انتهت.

ـ كنا مبتعدين بعض المسافة، وهذا الضباب ربما أخفاهم.

ـ لقد تبع الكلبَ ليعيده... ربما تكون متأكدًا من ذلك. لا، لا، لقد رحل خلال هذا الوقت! لكننا سنفتش في البيت لنتأكد.

كان الباب الأمامي مفتوحًا، فدخلنا مندفعين، وأسرعنا بالتفتيش من غرفة إلى غرفة، ورأينا دهشةَ الخادم العجوز الخرف! الذي صادفنا في الممر. لم يكن هنالك من نور إلا في غرفة الطعام، لكن هولمز قبض على المصباح، ولم يترك زاوية في البيت إلا بحث فيها. لم نجد أي علامة تدل على الرجل الذي كنا نطارده. في أي حال، كان باب إحدى غرف النوم في الطابق العلوي مغلقًا. صاح لسترد:

ـ يوجد أحدٌ ما هنا! أستطيع سماعَ حركة! افتح الباب!

صوت أنين خافتٍ واحتكاك ملابس من الداخل... ركل هولمز برجله الباب فوق القفل تمامًا فانفتح، فاندفعنا إلى الداخل شاهرين مسدساتنا، لكن لم يوجد أثر فيها من ذلك

النذل اليائس الجريء الذي توقعنا رؤيته. بدلًا من ذلك، رأينا شيئًا غريبًا جدًا وغير متوقع، جعلنا نقف دقيقة نحدق في دهشة! كانت الغرفة مصممة لتتحول إلى متحف صغير، وعلى الجدران اصطفت خطوط من الأوعية ذات الرؤوس الزجاجية، ممتلئة بمجموعات من الفراشات والعث، وهو الجانب الذي يمثل الراحة والاسترخاء لهذا الرجل المعقد الخطر!

في وسط الغرفة، عمود منصوب، وضع إسنادًا لكتل ألواح الخشب القديمة المتآكلة، وهي التي تؤلف السقف. كان هنالك جسم مربوط إلى هذا العمود، كان ملفوفًا بالأغطية التي تخفيه في إحكام، فلا يمكن للمرء للحظة أن يدرك أهو رجل أم امرأة؟ قطعة قماش حول الفم ومربوطة إلى خلف العمود، وأخرى تغطي الجزء الأسفل من الوجه، وفوقهما عينان داكنتان، عينان طافحتان بالحزن والعار والتساؤل الفظيع، تحدق بنا! في لحظة واحدة مزقنا الكمّامة، وحللنا الأربطة، وانهارت أمامنا السيدة ستابلتون على الأرضية. عندما انحنى رأسها الجميلُ على صدرها، رأيت طوق الأثر الأحمر حول رقبتها بسبب الخنق بالسوط.

صاح هولمز:

ـ الوحش اللعين! هنا يا لسترد، زجاجتك من البراندي! أجلسها على الكرسي، لقد أغمي عليها من سوء المعاملة والإنهاك.

فتحت عينيها مجددًا.

ـ هل هو في أمان؟ هل هرب؟

ـ لن يتمكن من يفلت منا، يا سيدتي.

ـ لا، لا، لا أعني زوجي، بل السير هنري، هل هو في أمان؟

ـ نعم.

ـ والكلب؟

ـ مات.

فأطلقت تنهيدةَ رضا طويلة، وقالت:

ـ الحمد لله، الحمد لله. آه! ذلك النذل! انظروا كيف عاملني!

كشفت عن ذراعيها من كميها، ورأينا في رعب أنهما مرقطتان بالكدمات، وأضافت:

ـ لكن هذا لا شيء... لا شيء! عقلي وروحي اللذان عذبهما وخرّبهما. يمكنني أن أتحمل كل شيء: سوء التعامل، والعزلة، والحياة المخادعة... كل شيء، طالما كنتُ

أستطيع التعلق بأملٍ أن أحظى بحبه، ولكن الآن، أنا أعرف أنني حتى في هذا كنتُ مُستغفلة وكنتُ أداة في يده.

انفجرت في نوبة بكاء عاطفي مرير! عندما كانت تتكلم.

قال هولمز:

ـ لا تتمكنين من إحراز رضاه، سيدتي. إذن، أخبرينا أين نجده؟ إذا كنتِ دائمًا تساعدينه في الشر، فساعدينا الآن لتكفّري عن ذلك!

ـ لا يوجد إلا مكان واحد يمكن أن يهرب إليه. يوجد منجم قصدير قديم في جزيرة على قلب المستنقع. هنالك يحتفظ بكلبه، ويعدّ تحضيراته كلها. لذلك يُحتمل أن يكون لاجئًا هناك.

استقرت كتلة الضباب مثل صوف أبيض أمام النافذة. أمسك هولمز بالمصباح تجاهنا، وقال:

ـ انظروا، لا أحد يمكنه أن يجد طريقه في مستنقع غرمبين الليلة.

ضحكت وصفّقت، ولمعت عيناها وأسنانها في بهجة قاسية. صاحت:

ـ ربما يجد طريقه للدخول، ولكن ليس الخروج. كيف يمكنه أن يستدل بالأوتاد في هذه الليلة؟ لقد ثبتناها معًا، لتعليم الطريق خلال المستنقع. آه، فقط لو أنني تمكنتُ من انتزاعها اليوم، إذن لوقع تحت رحمتكم فعلًا!

كان واضحًا لنا أن كل مطاردة ستكون هباءً من دون انقشاع الضباب. في ذلك الوقت، تركنا لسترد للسيطرة على المنزل، وعدنا أنا وهولمز مع البارون إلى فيلا باسكرفيل. لا يمكن أن تبقى قصة آل ستابلتون مخفية عنه لوقت أطول، لكنه تلقى الصدمة في شجاعة، عندما علم حقيقة المرأة التي أحبها! لكن صدمة مغامرات الليلة حطمت أعصابه، وقبل الصباح وقع فريسةً للحمى والهذيان، واعتنى به دكتور مورتمر. كلاهما سينطلقان في السفر حول العالم، قبل أن يتحول السير هنري مرة أخرى إلى الرجل ذي القلب المعافى الرقيق، الذي كان عليه قبل أن يصير سيد ذلك العقار المشؤوم.

والآن... أنا أصل في سرعة إلى نهاية هذا السرد الاستثنائي الفريد، الذي حاولتُ به أن أشرك القارئ في هذه المخاوف المظلمة والتخمينات المبهمة، التي غطت على حياتنا مدة طويلة، وانتهت بطريقة تراجيدية جدًا. في الصباح التالي بعد ليلة قتل الكلب ارتفع الضباب، وقادتنا السيدة ستابلتون إلى النقطة حيث وجدا هي وزوجها مسلكًا خلال المستنقع المميت. لقد ساعدَنا على إدراك فظاعة حياة هذه المرأة، أننا رأينا اللهفة والفرح المصاحبين

لعملية وضعنا على مسار زوجها. تركناها واقفةً على شبه الجزيرة الرقيقة من التربة الخثيّة(٤٠) الثابتة، التي استدقت على امتداد المستنقع الشاسع.

من نهاية ذلك، كانت هنا وهناك مجموعة من الأوتاد المزروعة تُظهر أين يتعرج المسار من أجمة قصبٍ ورابية إلى أخرى، بين تلك الحفر من الزبد الأخضر والمستنقع الكريه، حيث خططت الطريقَ وعلّمته للغريب. أرسلت حزم القصب والنباتات المائية الطينية الخضر المنتشرة، رائحةَ العفن وبخار الزفير الثقيل الضار، من المواد العضوية على وجوهنا! في حين أن خطوات خاطئة، أسقطتنا أكثر من مرة إلى عمق الفخذ في المستنقع المظلم المتحرك، الذي اهتز لياردات في تموجات ناعمة حول أقدامنا. عند المشي تنزع قبضته اللزجةُ كعوب أحذيتنا، وعند الغطس فيه كنا كما لو أن يدًا خبيثة تسحبنا إلى الأسفل داخل تلك الأعماق الفاحشة! كان الذي قبض علينا عابسًا ومتأنيًا ويعلم ما يريد!

حالما رأينا أثرًا يظهر أن أحدهم، قد مرّ على ذلك الطريق المحفوف بالمخاطر قبلنا، شيء ما مظلم، كان بارزًا من وسط خصلة حشائش القطن، التي حملته خارجًا عن الطين. غط هولمز حتى خصره، عندما خطا عن الممر لجلبه، ولو لم نكن هنالك معه لسحبه

---

(٤٠) نوع من التراكم العشبي المتحلل جزئيًا، أو مادة عضوية فريدة في بعض المناطق الطبيعية ومنها المستنقعات.

خارجًا، ما كان ليقدر أبدًا على أن يثبت قدميه على أرض صلبة مرة أخرى. أخيرًا... أمسك فردة حذاء سوداء قديمة في الهواء، وقرأ علامتها المطبوعة على جلدها الداخلي:

ـ مايرز/ تورنتو. إنها تستحق أن يخوض المرءُ من أجلها حمامًا طينيًا! إنه الحذاء المفقود لصديقنا السير هنري، رماه هنالك ستابلتون في طريق هروبه.

ـ بالضبط. لقد احتفظ به في يده بعد استعماله لإطلاق الكلب على الأثر. ثم هرب عندما عرف نهاية اللعبة متشبثًا به بإحكام، وتخلص منه عند هذه النقطة من هروبه. في الأقل، نحن نعرف أنه وصل إلى هنا في أمان.

لكن ما كان لنا أن نعرف أكثر من ذلك، رغم أن هنالك كثير ربما نخمّنه. لا فرصة للعثور على آثار أقدام على المستنقع، لأن الطين يصعد وينضح بسرعة ليغطيها، أخيرًا عندما وصلنا إلى أرض أصلب وراء المستنقع، تطلعنا في لهفة بحثًا عنها، لكن لم نرَ أي أثر في الإطلاق.

إذا كانت الأرض تخبرنا بقصة صادقة، إذن لم يصل ستابلتون إلى جزيرة اللجوء تلك، التي باتجاهها ناضل خلال الضباب في الليلة الأخيرة. في مكان ما من قلب مستنقع غرمبين الكبير، وعميقًا في الطين الملوث الكريه، من ذلك الشرك الهائل الذي امتصه للداخل، دُفن هذا الرجل بارد المشاعر وقاسي القلب إلى الأبد!

عثرنا على عدة أدلة وبقايا من مشروعه في الجزيرة المطوقة بالمستنقع، حيث أخفى حليفه المتوحش: عجلة ضخمة، وبئر ممتلئة لنصفها بالنفايات أظهرت موقع المنجم المهجور. وإلى جانبه، كانت هنالك أطلال بيوت أكواخ المناجم، لا شك في أنها هُجرت، بسبب نتانة البخار المنبعث من المستنقع المحيط بها. في واحد منها وتد كبير وسلسلة، مع كمية من العظام المقضومة، حيث كان يُحتجز الحيوان، وبين الحطام كان هنالك هيكل عظمي تلتصق به كتلة متشابكة من الشعر!

قال هولمز:

ـ كلب! يا إلهي، كلب مجعد الشعر من نوع سبانيل. مورتمر المسكين لن يرى حيوانه الأليف أبدًا. حسنٌ، أنا لا أدري بأن هذا المكان يحتوي على أي سر، لم نكن من قبل قد سبرنا غوره وفهمناه. تمكنَ من إخفاء كلبه، لكنه لم يستطع إسكات صوته، ولهذا كانت تأتي الصيحات، التي حتى في النهار لم تكن لطيفة على السمع. في حالات الطوارئ، كان يتمكن من الاحتفاظ بكلبه في البيت الخارجي عند مسكن ميريبيت، ولكنها كانت مخاطرة دائمًا، وحصل ذلك في اليوم المحتوم، الذي كان يعدّه تتويجًا لكل جهوده، لذلك تجرأ على جلبه إلى هناك.

بلا شك أن هذه العجينة في الصفيحة هي الخلطة المشعة التي بها يطلي المخلوق. بكل تأكيد كان عملًا ذكيًا وبارعًا، ومستوحى من قصة كلب العائلة الجهنمي، ومن الرغبةِ في تخويف السير تشارلز العجوز حتى الموت، ولا عجب في أن المجرم الشيطاني المسكين ركض وصرخ عندما رأى مثل هذا المخلوق! يعدو في ظلام المستنقع على أثره، كما فعل صديقنا، وربما كنا سنفعل ذلك نحن أيضًا. من أجل ذلك، إنه اختراع ماكر بصرف النظر عن فرصة قيادة ضحيتك إلى موته! أليس أي فلاح يغامر بالاستفسار المفصّل عن مثل هذا المخلوق، يجب أن يكون قد شاهده فعلًا، كما فعل كثيرون على المستنقع؟ قلتُها في لندن يا واتسن، وأقولها مجددًا هنا: لم يساعدنا على اصطياد الرجل الأخطر مثل هذا نفسه الذي يقبع الآن بعيدًا...

مدّ هولمز ذراعه الطويل باتجاه امتداد المستنقع الهائل المرقش بالبقع الخضر، الذي يمتد بعيدًا حتى يختلط بالمنحدرات الخمرية في المستنقع.

١٥ - استذكار الماضي

نهاية تشرين الثاني... في ليلة باردة جدًا وضبابية، كنا أنا وهولمز جالسين عند جانبي نارٍ متوهجة، في غرفة جلوسنا بشارع بيكر. منذ الخاتمة التراجيدية لزيارتنا إلى ديفونشاير، كان هولمز منشغلًا في قضيتين على أقصى الأهمية: الأولى منهما، الكشف عن سلوك الكولونيل أبوود الشنيع، في صلته مع فضيحة البطاقة المشهورة في نادي نونباريل. في حين أنه دافع في القضية الثانية، عن السيدة مونبنسير غير المحظوظة، لاتهامها بجريمة قتل ابنة زوجها، وهي الآنسة كارير، الشابة التي ـ كما سيُذكر ـ أنها وُجدت بعد ستة أشهر حيةً ومتزوجة في نيويورك!

كان صديقي في معنويات عاليةٍ، بعد النجاح الذي استجلب تتابعًا للقضايا الصعبة والمهمة، لذا كنتُ قادرًا على حثه على مناقشة تفاصيل لغز باسكرفيل. انتظرتُ في صبر تلك الفرصة، لأنني كنتُ أعلم أنه ما كان ليسمح أبدًا بتداخل القضايا، وأن عقله الواضحَ والمنطقي، ما كان لينجرف من عمله الحاضر نحو التفكير في استعادة الماضي.

في أي حال، كان السير هنري ودكتور مورتمر في لندن، على طريقهما نحو الرحلة البحرية الطويلة، التي تمت التوصية بها من أجل شفاء أعصاب السير هنري المدمرة! اتصلا

بنا واستدعيانا في مساء ذلك اليوم بالتحديد، لذا كان من المنطقي أن الموضوع سيعود مجددًا إلى الحوار والنقاش.

قال هولمز:

ـ كل مسار الأحداث ـ من وجهة نظر الرجلِ الذي سمى نفسه ستابلتون ـ كان بسيطًا ومباشرًا، مع أنها ظهرت كلها أمامنا معقدةً جدًا، نحن الذين لم تكن لدينا وسيلة عند البداية لمعرفة دوافع عمله، ويمكننا فقط أن نتعلمَ ونعرف جزءًا من الحقائق. لقد نلتُ الفائدة بمحادثتين مع السيدة ستابلتون، والقضيةُ الآن واضحة بصورة كاملة... إلى حد أنني أعلمُ تمامًا بعدم وجود أي سرٍ آخر فيها. ستجد ملحوظات قليلة على هذا الأمر، تحت العنوان (ب)، في قائمتي المفهرسة الخاصة بالقضايا.

ـ ربما تتفضلُ بلطفك، وتعطيني تخطيطًا لمسار الأحداث من ذاكرتك.

ـ بالتأكيد، مع أنني لا أستطيع أن أضمنَ أنني أحمل كلّ تلك الوقائع في ذاكرتي، فللتركيز العقلي الشامل طريقةٌ غريبة في حذف ما مضى. المحامي الذي لديه قضية بين يديه، وهو قادر على الجدال مع خبير في موضوعه الخاص، يجد نفسه بعد أسبوع أو أسبوعين من نهاية المحاكمة، قد خرج كل شيء من رأسه مرةً أخرى. كل قضيةٍ جديدة لدي تزيح القضيةَ الأخيرة، لذا، فإن قضية الآنسة كارير ألقت غشاوةً على تفاصيل قضية باسكرفيل. غدًا، ربما

تُعرض أمامي مشكلةٌ صغيرة أخرى لأنظر فيها، فهي بدورها تُبعد السيدةَ الفرنسية الجميلة، وأبوود سيء السمعة. حتى الآن، بما أن قضية الكلب تمضي في أي حال، فسأعرض مسارَ الأحداث بأدق ما يمكنني، وأنت سوف تذكر أي شيء ربما أنساه.

تظهرُ تحقيقاتي بعد كل الأسئلة، أن صورة العائلة لم تخدعنا، وأن ذلك الشخص كان باسكرفيل حقًا. لقد كان ابنًا لذلك المدعو روجر باسكرفيل، الأخ الأصغر للسير تشارلز، الذي هرب محملًا بسمعة العار والشر إلى أمريكا الوسطى، حيث قيل إنه مات هنالك ولم يتزوج قط. لكنه في الحقيقة تزوج، وكان له ابنٌ وحيد. هذا الابن، اسمه الحقيقي هو نفسه الذي لدى أبيه. تزوج بيرل غارسيا، وهي واحدة من جميلات كوستاريكا، وقام ـ باختلاسه مبلغًا كبيرًا من المال العام ـ بتغيير اسمه إلى فانديلور، وهرب إلى إنكلترا، حيث أسس مدرسةً في شرق يوركشاير.

كان السبب الذي جعله يجرب هذا الخط الخاص من العمل، أنه تعرّف إلى معلمٍ مصاب بمرض السل، في رحلة عودته البحرية، وقد استثمر خبرة ذلك الرجل للقيام بعمل ناجح. أما فريزر المعلم، فقد مات في أي حال، وأما المدرسة التي بدأت بداية جيدةً، فقد انهارت من سوء السمعة إلى العار! فوجد آل فانديلور أن من المناسب القيامَ بتغيير اللقب

إلى ستابلتون، وقام بحمل بقايا حظه، ومخططاته المستقبلية، واهتمامه بعلم الحشرات إلى جنوب إنكلترا.

علمتُ في المتحف البريطاني، أنه كان ذا مكانةٍ معروفة في هذا المجال، وأن اسم فانديلور ارتبط دائمًا بنوع من الفراشات التي اصطادها، وهو أول من وصفها في أيام إقامته في يوركشاير.

نصل الآن إلى ذلك الجزء من حياته، الذي ثبت أنه ذو أهمية شاملة جدًا لنا. لا بد أنه أجرى بكل وضوح بحثًا، ووجد شخصين فقط يحولان بينه وبين نيل الممتلكات القيمة. عندما ذهب إلى ديفونشاير كانت خططه ـ وأنا متأكد من ذلك ـ غير واضحة جدًا، لكن قصده وتصميمه على تعمد الأذى من البداية واضح، من الطريقة التي أخذ فيها زوجته معه بصفة أخته! كانت فكرة استعمالها مثل الطعم واضحةً أصلًا في تفكيره، رغم أنه لم يكن متأكدًا من كيفية إعداد تفاصيل مؤامرته.

عند النهاية، قرر في حسم أن يستحوذ على الأملاك، وكان مستعدًا لاستعمال أي أداة، أو التورط في أي مخاطرة من أجل غايته. اقتضت خطوته الأولى أن يقرّب نفسه بمسكن أقرب ما يمكن إلى موقع منزل أسلافه، والخطوة الثانية تأسيس صداقة مع السير تشارلز باسكرفيل والجيران.

البارون نفسه أخبره عن أسطورة كلب العائلة، وبذلك قد هيأ الطريق لموته هو من حيث لا يعلم! عرف ستابلتون ـ وهكذا سأستمر بتسميته ـ أن قلب الرجل العجوز كان ضعيفًا، وأن صدمة واحدة كافية لقتله، وعرف تفاصيل كثيرة من دكتور مورتمر. وسمع أيضًا أن السير تشارلز كان يصدق الخرافات، وأنه كان يحمل تلك الأسطورة النحسة على محمل الجد كثيرًا. ومن فوره، ابتكر عقله العبقري طريقةً يمكن بها أن يقضي على البارون حتى الموت، ولا يمكن أن تلصق التهمةَ بالقاتل الحقيقي إلا بصعوبة بالغة.

بعد تصوّر الفكرة، بدأ بالتنفيذ في دقة ودهاء عظيمين. أي متآمر اعتيادي كان سينفّذ المؤامرة باستعمال كلب متوحش، لكن توظيف وسائل صناعية لجعل المخلوق شيطانًا خارقًا، يعدّ ومضةَ ذكاء وعبقرية في هذا الجانب. اشترى الكلب في لندن من روس ومانجليس، التجار في فولهام رود، وكان النوعَ الأقوى والأكثر توحشًا لديهم. جلبه على محاذاة خط شمال ديفون، إذ مشى مسافةً طويلة على أرض المستنقع، من أجل أن يصل إلى البيت بلا إثارة أي شكوك واستفهامات.

قبل ذلك، كان قد تعلم في مجال صيد الحشرات كيفية الدخول إلى منطقة مستنقع غرمبين، وبذلك وجد مخبأ آمنًا ومناسبًا للمخلوق، هنالك اعتنى به وأعدّه انتظارًا للفرصة المناسبة. بعد مرور وقت... لم يتمكن من استدراج الرجل العجوز، للوقوع في الشرك عبر

إخراجه من أرضه ليلًا، فبدأ يحوم بضع مرات مع كلبه حول المنطقة، ولكن بلا جدوى! خلال عمليات الرصد غير المثمر، شاهده الفلاحون أو بالأحرى شاهدوا حليفه الكلب، وبذلك كانت أسطورة الكلب الشيطاني قد اكتسبت توكيدًا جديدًا. كان يأمل من زوجته أن تجذب السير تشارلز إلى حتفه، لكنها هنا أثبتت استقلالًا عنه بصورة غير متوقعة! ما كانت لتسعى إلى توريط الرجل العجوز في علاقة حسية، ربما تنتهي به إلى حيث عدوه الفتاك. ولم تفلح التهديدات وحتى ـ أنا آسف لذكر هذا ـ الضرب في زحزحتها عن موقفها، وما كان لها أن تفعل شيئًا ضد هذا الأمر، ولحين من الوقت كان ستابلتون مخفقًا وواقعًا في مأزق.

ثم وجد مخرجًا من مصاعبه، عبر قضية المرأة غير المحظوظة السيدة لورا لايونز، بعد أن جعله السير تشارلز ـ وقد خُدع بعلاقة الصداقة ـ الوكيل عن أعماله الخيرية. وبتقديمه نفسه رجلًا عازبًا أحرز تأثيرًا كاملًا فيها، وأقنعها بأنها إذا حصلت على الطلاق من زوجها فإنه سيتزوجها. انبثقت خططه في رأسه فجأة، من خلال معرفته أن السير تشارلز كان سيغادر قريبًا الفيلا، تنفيذًا لنصيحة دكتور مورتمر، وقد تظاهر ستابلتون بأنه يتفق مع رأيه.

هنا يجب أن يتصرف حالًا! وإلا فإن ضحيته ستكون خارج نطاق أفعاله الشريرة، لذلك ضغط على السيدة لايونز من أجل كتابة هذه الرسالة، لتتوسل فيها إلى الرجل

العجوز، كي يمنحها فرصةَ مقابلة في المساء قبل سفره إلى لندن. ثم ـ بحجة زائفة ـ منعها من الذهاب، وهكذا حصل على الفرصة التي كان ينتظرها بفارغ الصبر.

في عودته من كومب تريسي عند المساء، كان الوقت مناسبًا لإحضار كلبه، ولإجراء عملية طلائه بالصبغ الجهنمي، ثم جلبه حول الباب، حيث كان يعتقد أنه سيجد الجنتلمان العجوز في الانتظار. قفز الكلب ـ محرّضًا من سيده ـ فوق الباب الصغير، وطارد البارون سيء الحظ، الذي هرب صارخًا على الممر الشجري. في ذلك النفق المظلم، لا بد أنه كان مشهدًا مرعبًا جدًا! أن ترى ذلك المخلوق الأسود الضخم، بفكه الملتهب وعيونه القادحة، يثب خلف ضحيته... سقط ميتًا عند نهاية الممر بسبب قلبه المريض والفزع الهائل!

أبقى ستابلتون الكلبَ على المساحة العشبية، في حين أن البارون ركض على الممشى، لذلك لا توجد آثار ظاهرة إلا آثار الرجل. وعندما رأى المخلوق السير تشارلز ملقى على الأرض، ربما اقترب منه ليشمه، لكنه وجده ميتًا لذلك استدار وتركه مبتعدًا. هنالك ترك الكلب آثارًا تلك التي رآها فعلًا دكتور مورتمر. تم استدعاء الكلب، وأسرع ستابلتون مبتعدًا نحو مقره في مستنقع غرمبين، وتُرك اللغز الذي حير السلطات وأقلق الريف... وأخيرًا وصلت القضية إلى نطاق اهتمامنا وتحقيقنا.

أُثيرت تفاصيلُ كثيرة جدًا حول موت السير تشارلز باسكرفيل، وكنتَ ترى الجانب الشيطاني الخارق فيها، لأن من المستحيل تقريبًا أن تُرسم ملامح قضية ضد المجرم الحقيقي، وشريكه الوحيد/ الكلب الذي ما كان ليتخلى عنه أبدًا، وطبيعة رغبة المجرم الغريبة الشاذة التي لا تُصدق، التي خدمته في جعل الأمر أكثر تأثيرًا.

كلا المرأتين المتصلتين بالقضية: السيدة ستابلتون، والسيدة لورا لايونز، جعلهما في شك عظيم ضده، إذ كانت السيدة ستابلتون، تعرف أنه أعدّ خططه للنيل من الرجل العجوز، وتعرف بوجود الكلب. أما السيدة لايونز، فلم تعرف هذين الأمرين، بل ظلت متأثرة بالموت الذي حصل في وقت الموعد غير الملغي، الذي لم يكن يعرفه إلا السير تشارلز. ومع ذلك، كانتا كلاهما تحت هيمنته، ولم يخش شيئًا منهما. أُنجز النصفُ الأول من مهمته في نجاح، لكن الثاني ـ وهو الأصعب ـ ما يزال في طور التنفيذ.

من المحتمل أن ستابلتون لم يعرف بوجود وريث في كندا، وفي أي حال، كان سيعلم به من صديقه دكتور مورتمر، الذي أخبره بكل التفاصيل حول وصول هنري باسكرفيل. كانت فكرة ستابلتون الأولى، أن هذا الشاب الغريب من كندا، يمكن أن يُقضى عليه في لندن من دون المجيء إلى ديفونشاير في كل الأحوال. وهو لم يثق بزوجته قط، منذ أن رفضت أن تساعده في نصب الفخ للرجل العجوز، ولم يجرؤ من جهة أخرى على تركها بعيدًا عن

أنظاره مدة طويلة، لأنه يخشى أن يفقد تأثيره عليها. لهذا السبب أخذها معه إلى لندن، وأقاما ـ وقد عرفتَ هذا ـ في فندق مكسبورو الخاص، في شارع كريفن، الذي كان فعلًا واحدًا من تلك الفنادق التي بحث فيها وكيلي كارترايت عن دليل.

هنالك استبقى زوجته مسجونةً في غرفتها، بينما تنكّر هو بلحية، وتبع دكتور مورتمر إلى شارع بيكر، وبعدئذٍ إلى المحطة وفندق نورثمبرلاند. كانت زوجته تطّلع على بعض خططه، ولكن كان لديها خوفٌ كبير منه، خوف نما تدريجًا عبر سوء المعاملة الوحشية... التي جعلتها لا تجرؤ على أن تكتب، لتحذر الرجل الذي عرفت أنه سيكون في خطر قاتل، فلو أن الرسالة وقعت بين يدي ستابلتون، فإن حياتها لن تكون في أمان. أخيرًا... كما

نعرف، ابتكرت هي حيلةَ قص الكلمات التي ألّفت الرسالة، ووجهتها بيدٍ غير معروفة، وقد وصلت إلى البارون، وكانت أول تحذير له عن الخطر.

كان جوهريًا جدا لستابلتون أن يحصل على شيء من ملابس السير هنري، لأنه كان مصممًا على استعمال الكلب مرةً أخرى، بذلك ستتوفر لديه الوسيلة دائمًا لوضع الكلب على المسار. وهكذا... بسرعة مميزة وجرأة، شرع بذلك في عجل، ونحن لا نشك في أن خدم الفندق والحمالين، أو خادم الغرفة في الفندق، قد تلقوا رشوة جيدة لمساعدته في الحصول على ما يريد. وبالمصادفة كان الحذاء الأول الذي جُلب له جديدًا ولم يكن نافعًا

له. ثم عاد وحصل على حذاء آخر... وكان ذلك الحادث الأكثر فائدة، لأنه أثبت بشكل قاطع لعقلي، أننا كنا نتعامل مع كلب حقيقي، بما أن لا افتراض آخر، يمكن أن يفسر هذا السعي والتلهف من أجل الحصول على حذاء، وهذه اللامبالاة تجاه الحذاء الجديد. إن الحادث الأغرب وغير الاعتيادي هو الذي يستحق الاعتناء والتحقيق أكثر، والنقطة المحددة التي تبزغ كأنها تعقّد القضية هي ـ عندما تُدرس كما ينبغي وتُعامل بعلمية ـ التي تكون الأكثر احتمالية لتوضيحها. ثم كانت لدينا الزيارة من أصدقائنا في الصباح التالي، وقد تبعهما ستابلتون دائمًا بعربة الأجرة.

من خلال معرفة ستابلتون بمجالات عملنا وبشخصيتي وشهرتي، وكذلك من سلوكه العام، أنا ميال للاعتقاد أن سلوك ستابلتون الإجرامي، لم يكن مقصورًا على قضية باسكرفيل وحدها! ذلك يذكّرنا بأنه خلال السنوات الثلاث الأخيرة، كانت هنالك أربع عمليات اقتحام وسطو كبيرة في غرب البلاد، ولم يُقبض في أيٍ منها على المجرم. آخر واحدة، كانت في مبنى فولكستون في شهر أيار، كانت مميزة لما حصل فيها من الرمي بالمسدس في جرأة نحو الخادم الذي فاجأ السارق المقنع! لا يمكنني الشك بأن ستابلتون قد جنّد مصادره الآيلة للضعف في هذه القضية! لذلك كان لسنوات يائسًا ورجلًا خطيرًا.

كان لدينا مثال عن وفرة مصادره وقدرتها، في ذلك الصباح عندما فرّ منا في نجاح، وأيضًا دقته في إعادة إرسال اسمي الشخصي لي عبر رجل العربة. من تلك اللحظة، عرف هو أنني توليتُ القضية، ولذلك لم تكن لديه فرصة في لندن، فعاد إلى دارتمور وانتظر وصول البارون.

ـ لحظةً واحدة! بكل تأكيد، لقد وصفتَ تتابع الأحداث في صورة صحيحة، ولكن هنالك نقطة واحدة تركتها بلا توضيح: ماذا حصل للكلب عندما كان سيده في لندن؟

ـ منحتُ هذا الأمر بعض العناية، وهو مهم. لا شك في أن ستابلتون كان له شخص ثقة، إذ ليس من غير المرجح أبدًا، أن يضع نفسه تحت رحمة مساعدٍ بمشاركة كل خططه معه. كان هنالك خادم عجوز في فيلا ميريبيت، اسمه أنتوني، يمكن تتبع صلته بآل ستابلتون إلى بضع سنوات ماضية، حتى أيام إدارة المدرسة، لذا فإنه يجب أن يكون مطلعًا على أن سيده وسيدته زوجان. اختفى هذا الرجل وهرب من الريف. وإنه أمر موحٍ أن أنتوني ليس اسمًا شائعًا في إنكلترا، في حين أن أنتونيو مشهور في كل البلدان الأسبانية أو الأسبانية ـ الأمريكية، وهو مثل السيدة ستابلتون، يتحدث الإنكليزية جيدًا، ولكن مع لثغة غريبة في لهجته، لقد رأيت بنفسي هذا الرجل العجوز عبر مستنقع غرمبين، قرب الممر الذي علّمه ستابلتون.

من المحتمل جدًا، أنه هو الذي يعتني بكل شيء عند غياب سيده، مع أنه لا يعرف أبدًا الغرض الذي من أجله يُستعمل هذا الحيوان.

ثم عاد آل ستابلتون إلى ديفونشاير، وسرعان ما رحلتما بعدهما أنت والسير هنري. وأتكلمُ الآن بشأن: كيف تصرفتُ عند ذلك الوقت؟ ربما تذكر أنني حين تفحصت الورقةَ، التي كانت الكلمات المطبوعة ملصقةً عليها، أجريت تدقيقًا بحثًا عن العلامة المائية، وخلال فعل ذلك، أمسكتُ الورقةَ قريبًا من عينيّ، وكنتُ منتبهًا للرائحة البسيطة من العطر المعروف بالياسمين الأبيض. هنالك خمسة وسبعون عطرًا، ومن الضروري لخبير الجرائم أن يكون قادرًا على تمييزها واحدًا عن الآخر، وهنالك قضايا حصل فيها هذا الأمر أكثر من مرة، ضمن خبرتي الشخصية بالاعتماد على التمييز الدقيق. أوحى لي العطر بوجود سيدة، وحينئذٍ بدأت أفكاري تتجه نحو آل ستابلتون. وهكذا تأكدت من وجود كلب، وخمّنتُ من يكون المجرم حتى قبل أن نذهب إلى الريف الغربي!

كانت لعبتي أن أراقب ستابلتون، وكان واضحًا في أي حال، أنه لا يمكن أن أفعل هذا لو كنتُ معك، لأنه حذر ويقظ جدًا في الاحتراز. لذلك، خدعتُ كل شخص حتى أنت! وسافرتُ إلى هناك في السر، عندما كان مفترضًا أن أكون في لندن. لم تكن صعوباتي كبيرة كما تخيلتَ، رغم أن مثل هذه التفاصيل تافهة، ويجب أن لا تتداخل مع التحقيق في القضية.

قضيت القسم الأكبر في كومب تريسي، واستخدمت الكوخ في المستنقع عند الضرورة فقط، لأكون قريبًا من مشهد الحدث. جاء معي كارترايت، وساعدني بتنكره في هيئة صبيّ ريفي مساعدةً عظيمة، إذ كنت أعتمد عليه في تأمين الطعام والملابس النظيفة، وعندما كنت أراقب ستابلتون، كان كارترايت دائمًا يراقبك، لذلك كنتُ قادرًا على أن أبقي يدي على كل الخيوط.

أخبرتك في ما مضى، أن تقاريرك وصلت إلي في سرعة، كانت تحّول لي فورًا من شارع بيكر إلى كومب تريسي، وكانت ذات فائدة عظيمة لي، ولا سيما تلك الفقرة الحقيقية المذكورة عرضًا حول سيرة آل ستابلتون، إذ استطعتُ معرفة هوية الرجل والمرأة، وعرفتُ أخيرًا كيف أتصرف بالضبط.

كانت القضية معقدة بشكل كبير خلال حادثة المجرم المدان، والعلاقات بينه وبين آل باريمور، وذلك أيضًا قد أوضحته أنتَ بطريقة فعالة جدًا، مع أنني قبل ذلك، توصلتُ إلى الاستنتاجات نفسها بمراقباتي الخاصة. في الوقت الذي عثرتَ فيه عليّ كنتُ قد حصلت على معرفةٍ كاملة حول الأمر كله، ولكن لم تكن لي قضية نهائية يمكن أن تُقدم للمحلفين.

حتى محاولة ستابلتون ضد السير هنري، في تلك الليلة التي انتهت بموت المدان المشؤوم، لم تساعدنا كثيرًا في إثبات الجريمة على رجلنا. لم يبدُ أن هنالك بديلًا متوفرًا إلا

بالقبض عليه ويداه ملطختان بالدماء. ولفعل ذلك، كان علينا استعمال السير هنري طعمًا، وحيدًا وغير محميٍ بشكل جزئي. فعلناها، ولكن كلفنا ذلك صدمةً قاسية لعميلنا، ثم نجحنا في إكمال قضيتنا ودفع ستابلتون نحو هلاكه.

يجب أن أعترف أن تعريض السير هنري لذلك، يعد سببًا لتقريع إدارتي الشخصية للقضية، ولكن لم يكن لدينا أي وسيلة، للتنبؤ بالمشهد الفظيع والمصيب بالشلل، الذي قام به الوحش، ولا كان في إمكاننا التنبؤ بحصول الضباب، الذي مكّن الكلب من الهجوم أمامنا في مثل ذلك الظهور السريع! نجحنا في هدفنا بتكلفة، وأكّد الطبيب المختص ودكتور مورتمر كلاهما أنها ستكون عرضًا مؤقتًا. ربما أن القيام برحلة طويلة، لن تمكن صديقنا من استعادة أعصاب جسمه المحطمة وحدها، بل معها مشاعره المجروحة! كان عشقه تلك السيدة عميقًا ومخلصًا، وبالنسبة له، فإن الجزء الأكثر حزنًا في كل هذه القضية السوداء، أنه كان يجب أن يُخدع بوساطتها.

يبقى أن أشير إلى الجزء الذي أنجزتْه هي خلال ذلك، إذ لم يكن هنالك شك في أن ستابلتون أثّر فيها ربما بالحب أو الخوف، أو كليهما في الاحتمال الأقوى، إذ إنهما في كل الأحوال كانا في خليط من المشاعر غير المتوافقة، لكنها في الأقل كانت فعالة بشكل شامل. استجابة لأمره، وافقت على تمثيل دور الأخت، رغم أنه اكتشف حدودَ سلطته عليها، عندما

سعى لجعلها المساعدةَ المباشرة للجريمة. كانت مستعدةً لتحذير السير هنري بقدر ما تستطيع بلا توريط زوجها، وحاولت ذلك مرة بعد أخرى في استمرار.

ستابلتون نفسه يبدو أنه كان قادرًا على الغيرة والحسد في خضم ذلك السعي، إذ عندما رأى البارون يدفع أجور المحكمة إلى السيدة - وحتى لو كان ذلك جزءًا من خطته - فإنه بقي لا يساعد، معرقلًا الأمر بالهيجان العاطفي، الذي كشف عن الروح النارية، التي ينطوي بذكاء عليها سلوكُه المنضبط المتحفظ. وبتفعيل العلاقة الغرامية بينهما، تأكد لديه أن السير هنري سيتردد كثيرًا على فيلا ميريبيت، وأنه عاجلا أم آجلًا سيحظى بالفرصة التي يرغب فيها.

ومع ذلك، في يوم الأزمة، انقلبت زوجته ضده فجأة! لقد علمت شيئًا ما عن موت المجرم، وعرفت أن الكلب كان مخبأً في المنزل الخارجي، مساء اليوم الذي سيأتي فيه السير هنري لتناول العشاء. لقد اتهمت زوجها بجريمته المعدّة! وتبع ذلك مشهدُ عنف، الذي أظهر لها فيه للمرة الأولى، أنها تميل لشريك في الحب... في لحظة واحدة تحول حبها وإخلاصها له إلى كراهية مُرة! ورأى أنها ستخونه وتغدر به. لذلك، قيّدها لكي لا تحظى بفرصة لتحذير السير هنري، كان يأمل أن الريف كله، عندما ينسب موتَ البارون إلى لعنة

العائلة ـ وهم بالتأكيد يفعلون ذلك ـ فإنه سيستعيد زوجته، ويكسبها للقبول بالأمر الواقع، وستبقى صامتة على ما تعرفه.

في هذا أنا أتخيل أنه في أي حال قد ارتكب خللًا في التقديرات، ومشروعه ـ حتى إذا لم نكن هنالك ـ سيكون مع ذلك مغلقًا، إذ لا يمكن أن تتغاضى امرأة بدم أسباني عن مثل هذه الإصابة بشكل عابر! والآن، عزيزي واتسن، بلا إشارة إلى ملحوظاتي، لا يمكن أن أعطيك تفصيلاتٍ أكثر حول هذه القضية الغريبة، لأنني أظن أننا استوفينا كل الأمور الجوهرية...

ـ لم يكن يأمل أن يرعب السير هنري حتى الموت، كما فعل بكلبه الكبير مع العم العجوز.

ـ كان الحيوان متوحشًا ونصف جائع. إذا لم يرعب ظهورُه ضحاياه حتى الموت، ففي الأقل يقوم بشل مقاومتهم التي قد تظهر ويسلبهم رشدهم وسلامة عقولهم!

ـ لا شك في ذلك. يبقى هنالك أمرٌ صعب: إذا استمر ستابلتون في مسعاه، ونجح في ذلك، فكيف يمكنه أن يوضح حقيقةَ كونه الوريثَ، الذي كان يعيش متخفيًا تحت اسم آخر، وقريبًا في الوقت نفسه من الملكية؟ كيف يمكنه أن يطالب بذلك بلا إثارة الشكوك والتساؤلات؟

ـ إنها صعوبة هائلة، وأظن أنك تسأل كثيرًا عندما تتوقع مني أن أحلّ ذلك. الماضي والحاضر ضمن مجال بحثي، ولكن ما يفعله رجل في المستقبل سؤال صعب الإجابة. سمعتْ السيدةُ ستابلتون زوجها يناقش المشكلة في بعض المناسبات، وهنالك ثلاثة مسارات محتملة: ربما يدّعي ويطالب بالملكية من مستقره في أمريكا الوسطى، بأن يوضّح ويؤسس هويته أمام السلطات البريطانية هنالك، وهكذا ينال الثروة بلا أي مجيء إلى إنكلترا تمامًا. أو يقوم بتمويه متقن خلال الوقت القصير الذي يحتاجه للوجود في لندن. أو مرةً أخرى يهيئ شريكًا متواطئًا معه بالإثباتات والأوراق الضرورية، يجعله في مقام الوريث، ليستمر بالمطالبة بحصة من الأموال. لا يمكننا الشك استنادًا لما نعرفه عنه، في أنه كان سيجد مخرجًا ما من العسر في المستقبل.

والآن، يا عزيزي واتسن، لقد مررنا ببعض أسابيع من العمل الشديد، وأعتقد أننا من أجل أمسية واحدة، يجب أن نوجّه أفكارنا نحو اتجاهات أكثر مسرة. لدي حجز مقصورة خاصة لحضور أوبرا (الهوغونيون)(٤١) الفرنسية. هل سمعتَ من قبل صوت الممثل دي

---

٤١ (Les Huguenots) أوبرا فرنسية من تأليف موسيقيّ الأوبرا (Giacomo Meyerbeer)، واحدة من أشهر أعمال الأوبرا والأكثر شعبية، وهي من نماذج الأوبرا الكبيرة في خمسة فصول. عُرضت أول مرة في باريس عام ١٨٣٦.

ريزكيس؟ [٤٢] إذن، يُحتمل أنني أزعجك قليلًا لتكون مستعدًا في ظرف نصف ساعة، ويمكننا التوقف عند مطعم مارسيني، لتناول عشاء خفيف في طريقنا... ما رأيك؟

---

[٤٢] (١٨٥٠ ـ ١٩٢٥) ممثل أوبرا بولندي معروف، كان مشهورًا بصوته الأوبرالي.

الفهرس